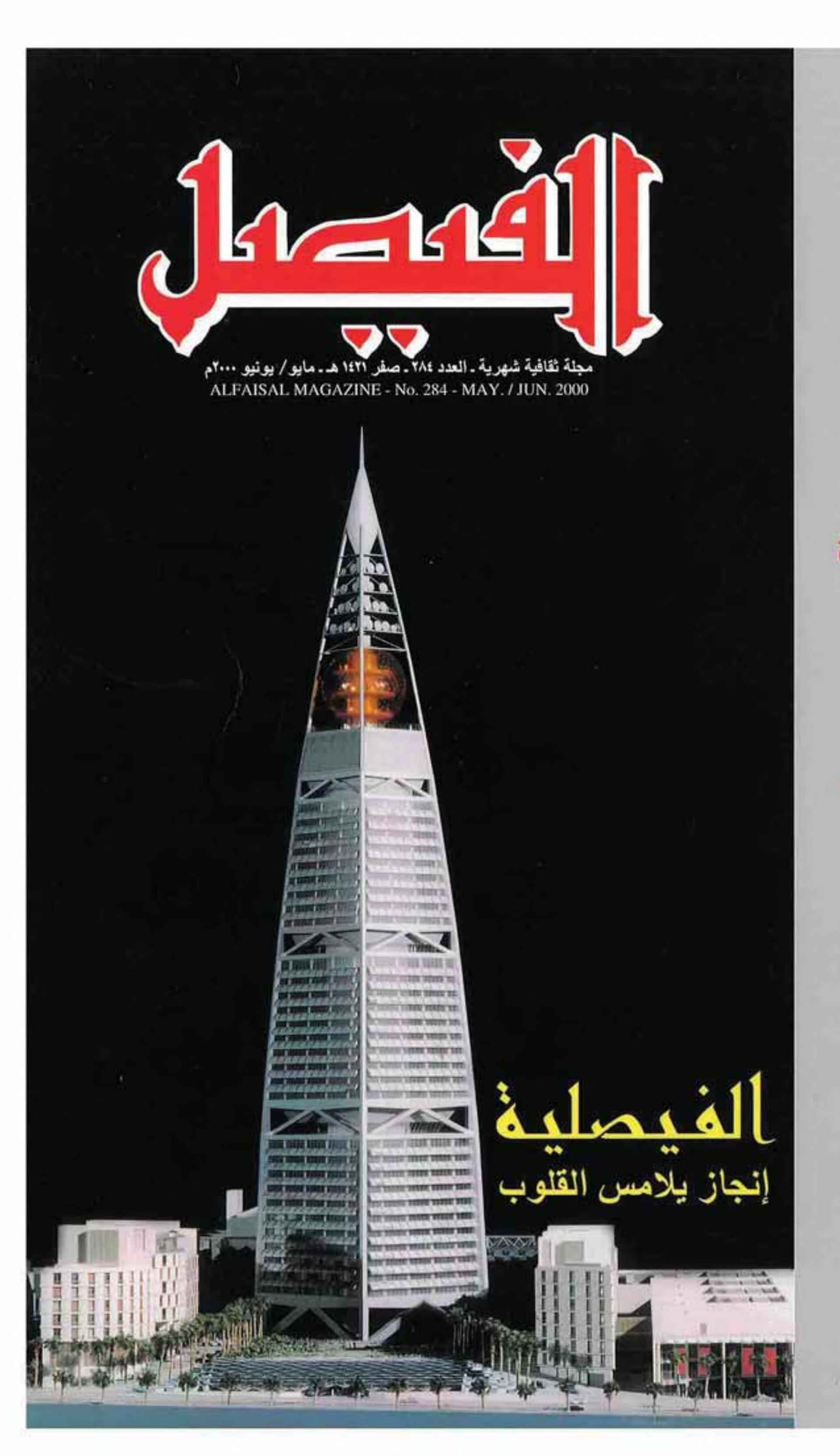


- التثاقف في المجتمع الكوني
- المثالية والبراغماتية بين الرجل والمرأة
- فرغانة: مدينة من وراء النهر
- طيور الفراعنة
- المتحف الروسي في سان بطرسبورغ
- البدء برحلة زرع الدماغ



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

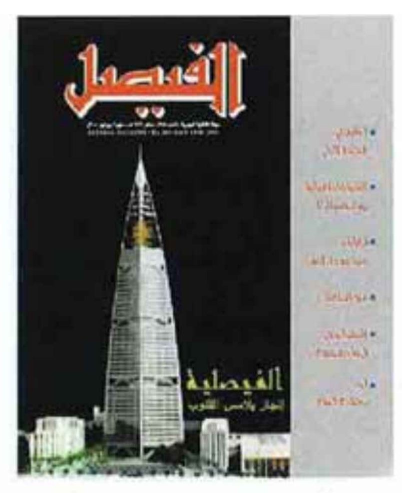
السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف ٤٧٨٣٠٠٠، فاكس ٤٧٨٤٣٣٣، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١ ـ ٩٦٣٠٠، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦٠٠، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤٠٠، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢٠٠، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣٠٠، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١٠٠، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D. PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣٠٠، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥٠٠، السودان ـ دار التوزيع العام ـ ص.ب ٣٥٨ هاتف ٧٧٥٥٨٥ ـ فاكس ٧٧٥٧٧٠ ـ ١١ ـ ٢٤٩٠٠، المغرب ـ CAS - SOCHPRESS - CAS - CASABLANCA ٢٤٥٧٤٥ ـ MOROCO TEL: فاكس ٣١/٣٢ ـ ٤٠٤٠ ـ ٢١٢ ـ ٠٠، باكستان PARADIS BOOK STALL - KARACHI 3. PAKISTAN TEL: ٥٦٨٣٤٩٤ ـ فاكس ٥٦٨٢٧٠٤ ـ ٢١ ـ ٩٢ ـ ٠٠، الجمهورية اليمنية ـ محلات قائد التجارية ص.ب ٣٠٨٤ الحديدة هاتف ٢١٧٤٤٤ ـ فاكس ٢١١٥٣٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧٠٠، سلطنة عمان ـ المتحدة لخدمة وسائل الإعلام ـ ص.ب ٣٣٠٥ روي ١١٢ ت: ٧٠٠٨٩٥ / ٧٠٧٩٣٢ ـ فاكس ٧٠٦٥١٢ ـ ٩٦٨٠٠





مركز الفيصلية: إنجاز يلامس القلوب

تحرص مؤسسة الملك فيصل الخيرية، وهي تقوم بدورها الإنساني، على إضفاء لمسات جمالية على البيئة مستمدة منها مفرداتها ومعبرة عن إنسانها وإرثه الحضاري. ومركز الفيصلية ـ آخر مشروعاتها الاستثمارية وأضخمها ـ يسجل ببرجه العملاق السبق كأول ناطحة سحاب في المملكة العربية السعودية، فماذا عن مقومات هذا المشروع الكبير وإمكاناته؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ٠٢٥٨ ـ ١١٤٠

ثوب جديد

كلمة شكر صادقة محلها القلب أكتبها إليكم إذ سيطر عليّ شعور جميل وسعادة غامرة عندما قرأت العدد ٢٨٠ من مجلة «الفيصل» الزاهرة، وهو بالنسبة إليّ العدد الأول منذ سنوات، وخاصة بعد عهد الكاتب الكريم الأستاذ علوي طه الصافي. وسوف أحتفظ بمشيئة الله بكل عدد قادم وعاقد النية ألا يفوتني أي عدد مهما كانت الظروف حتى لو أقترض ثمن المجلة. فهي بالنسبة إليّ وإلى كل قارئ «للفيصل» معين لا ينضب من الثقافة الأصيلة إذ توفر لنا ديباجة مشرقة وأسلوبًا جزلاً يكشفان لنا الشيء الكثير من كنوز المعرفة واللغة . فأتقدم إليكم شاكرًا لكم الجهد الكبير لتحديث المجلة بابتكار أبواب جديدة حتى أصبحت تجاري العصر الراهن الذي يتميز بالمعلومات. فلا غرو إذن أن تكون المجلة بعد التفرد في مجال الإخراج متعة للعين والقلب والفكر جميعًا.

سيدي الفاضل رئيس التحرير حفظه الله:

بعد إعجابي غير المحدود بمجلة «الفيصل» الغراء في ثوبها الجديد، أبدي ندمي على الأعداد التي لم أتمكن من اقتنائها، ولا سيما بعد التجديد المبارك، وهذا لن يتكرر كما أشرت. لذا أرجو من شخصكم الكريم أن تتفضلوا شاكرين ببعث بعض الأعداد من مجلتي الجديدة «الفيصل» ولكم كل الشكر وكل الامتنان مسبقًا وأتمنى أن يتيسر ذلك فأنتم محل ثقة.

ويسعدني أن أكون من المشتركين في المسابقة الشهرية التي تنظمها المجلة الغراء بدءاً من العدد ٢٨٠ إصدار شوال ١٤٢٠هـ، وهذه المسابقة الكبيرة تتيح لنا فرصة البحث في المعاجم والكتب والدوريات فنزداد علمًا وثقافة، والمجلة مشكورة في جميع الأحوال سواء فزنا أم لم نفز. بل يكفينا فخرًا أن نكون قراء الفيصل ونبعث برسائلنا إليها، فذلك يعد إنجازًا كبيرًا. وفي ختام كلمتي - التي أضاعت جزءًا من وقتكم الثمين - أسأل الله أن يوفقكم ويسدد خطاكم ويمدكم بالصحة حتى يستمر عطاؤكم المتجدد دومًا بإذن الله، ولمجلتنا الزاهرة دوام التقدم والرقي في عالم الصحافة الثقافية.

أحمد الصاوي السيد

مصر - الشرقية طريق فاقوس - كفر الحاج عمر
قهبونة ص.ب ٤٤٧٣٣ أول ش عمر بن الخطاب

التحرير:

نشكر لك هذا الحرص على اقتناء المجلة، وإطراءك على الشكل الجديد لها، وسوف تصل إليك بعض الأعداد الأخيرة منها إن شاء الله.

اتسم ردكم بالبرود!

قرأت تعليقكم على رسالة الأخ نبيل الإمام من سورية في ص٤ من العدد ٢٨٢ التي بيّن فيها انحرافات بعض مشاهير عصرنا، مثل محمود درويش، وصنع الله إبراهيم، ومحمد عبدالوهاب، ويوسف شاهين.

فتعجبت لردكم على الأخ حيث اتسم (بالبرود) في وقت كنا نتمنى فيه منكم أن تؤيدوه دفاعًا عن إسلامكم الذي تدينون لله به، وتحقيقًا لمبدأ الولاء والبراء (لا تجد قومًا...) الآية.

وهو لم يقل إلا الحق، فما سبب عدم تأييده في (أغلب) ما نُشر حسب ما قلتم؟ لم توضحوا!

هداكم الله، وجعلكم عضدًا للإسلام وأهله في هذا الزمان.

ناصح أمين

التحرير:

نشكر للأخ الناصح الأمين تعليقه واستفساره، ونشير إلى أن الفيصل منبر رأي وثقافة، وليست محكمة للرأي والضمير، فالضمائر لا يعلم سرّها إلا الخالق عز وجل وما نراه صحيحًا تجاه هذا الأمر أو ذاك قد يراه الآخر غير ذلك، والعكس صحيح أيضًا.. ونشر رسالة أي قارئ لا يعني الموافقة على ما جاء فيها، كما أنه لا يعني رفضها، ولو كان لدينا تحفظ أو برود أو خوف لما نشرناها!!

والحق أحق أن يتبع، ومن باب هذا الحق ننشر رسالتك كاملة على الرغم من أننا - والحق - لم نر اسمك أو عنوانك عليها!

القصة ليست لي!

فوجئت بأحد الأصدقاء يريني قصة منشورة في العدد ٢٧١ الصادر في محرم ١٤٢٠هـ/مايو ١٩٩٩م في الصفحة ١٠٦ من مجلتكم الغراء الفيصل، بعنوان «الرزق والعمر» تحمل اسمي الأدبي (أبو فروة الرجبي)، وهذا العدد من الأعداد التي فاتني اقتناؤها.

ومن هنا أود أن أوضح أن هذه القصة ليست من تأليفي، ولم أقرأها أو أكتبها من قبل، ويبدو أنه حصل خطأ في الصف بينها وبين إحدى موادي، لذلك أود أن أنوه، وأرجو منكم نشر تنويهي هذا.

وأود في هذا المقام أن أذكركم أيضًا، أنني أرسلت ومنذ عدة سنوات مواد لم تنشر حتى الآن، مع أن بعضها نال القبول لديكم، وكان نصيبي أن ينشر اسمي أول مرة، في مجلتكم - بالخطأ - وفوق قصة ليست لي.

راجيًا أن يكون المانع خيرًا، وها أنذا أرسل لكم بعض القصص القصيرة جدًا، راجيًا أن تنشر على صفحات الفيصل.

محمود أحمد محمد الرجبي

ص.ب ١٣٤٢ - الزرقاء ١٣١١٠
الأردن

التحرير:

سبق أن اعتذرنا لصاحبة القصة الأستاذة جيهان المكاوي التي جاء ذكر اسمها في الفهرس، وتصدر اسمك خطأ في داخل العدد، نأمل أن تجد إحدى قصصك طريقها إلى النشر قريبًا - إن شاء الله - وعذرًا مرة أخرى لك ولصاحبة القصة.

أين الزاد الثقافي؟

إنني أسكن مدينة سيئون إحدى مدن حضرموت.. نفتقد إلى الزاد الثقافي هنا.. فالمجلة لا تصل إلينا.. وكان آخر عدد قرأته من الفيصل عدد أكتوبر ١٩٩٩م في أثناء زيارتي لمدينة صنعاء، وقد أعجبني العدد لكونه شمل التراث والثقافة والعمارة. وفي زيارتي الثانية لصنعاء بحثت عن عدد آخر فلم أجده.

إنني مهندس مدني أعمل بمدينة سيئون جئت إليكم بطلب أرجو ألا يخيب أملي وهو إرسال أعداد من مجلة الفيصل على عنواني بسيئون - حضرموت سواء أكانت قديمة أم جديدة بالإضافة إلى إرسال أي من مطبوعات دار الفيصل الثقافية.. إنه رجاء وأمل.. وشكراً.

م. سالم عمر حسن

سيئون - ص.ب ٩٢٥٥

محافظة حضرموت - الجمهورية اليمنية

التحرير:

تم حل جزء كبير من مشكلة التوزيع في اليمن وغيرها من الدول، كما أرسلت ملاحظتك إلى موزعنا في اليمن. ونأمل اليوم الذي نجد فيه «الفيصل» في مدينتك من غير عناء، قريباً إن شاء الله، وستصلك بعض أعداد «الفيصل» لعلك تجد فيها مبتغاك.

لن أفرط فيها!!

بادئ ذي بدء يطيب لي أن أتقدم إليكم وإلى مجلتكم الغراء «الفيصل» بكلمة شكر وإعجاب وإشادة بالدور الريادي الذي تتمتع به هذه المجلة الثرية والقيّمة فيما تقدمه من معلومات وموضوعات وثقافة عامة أكسبتها شهرة عالمية وعالية جداً، جعلتها واسعة الانتشار في جميع البلدان العربية والإسلامية وغيرها خصوصاً لدى النخبة المثقفة والمهتمة بالعلوم والمعارف والآداب، وهذا ما وجدته بالنسبة إليّ بوصفي معلماً تربوياً في علم اللغة العربية بحيث إنه لا يمكنني الاستغناء عن مثل هذه المجلة بحال من الأحوال، وسأعمل جاهداً على اقتنائها بصفة مستمرة. وسوف تصل إليكم مني مشاركات شهرية أرجو أن تنال إعجابكم إن شاء الله، وأتمنى الحصول على الكثير من أعدادها السابقة إن تيسر لي ذلك، أما من الآن فصاعداً فلن أفرط فيها ألبتة، وبالمناسبة أرجو منكم التكرم بأن تخبروني بعناوين مهمة أذكر منها: عنوان رابطة الشباب المسلم، وبعض عناوين المؤسسات العلمية والخيرية داخل المملكة العربية السعودية.

شاكراً لكم هذا التعاون والتجاوب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حسين عباس علي السُدْعي

اليمن - صنعاء - مكتب بريد الحصبة - ص.ب: ٨٨٩٣

التحرير:

شكرا لك ثقتك في المجلة، وسوف نرسل إليك بعض أعدادها القديمة، ويمكنك الاتصال على الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض، لعل المسؤولين فيها يدلونك على عناوين الجمعيات التي تريدها، وأرقام هواتف الندوة هي: ٤٦٤١٦٦٩، ٤٦٤١٦٦٣، ٤٦٤٥٥٤٣١ وناسوخ رقم ٤٦٤١٦٧٦، ٤٦٤١٧١٠

ردود سريعة

الأخ زيدان الميلود بن عبدالقادر - مجاجة الشلف. الأخت عائشة مجاهدي عبدالقادر - ولاية عين موشنت - الجزائر:

الأخ زيدان: لا تستطيع المجلة تلبية طلبك، ونأمل أن تتعامل مع ناد رياضي في بلدك لعل المسؤولين فيه يكتشفون موهبتك، فتكون صفقة مربحة كما قلت.

وكذلك لا يمكن لنا تلبية طلب الأخت عائشة التي نتمنى لها التوفيق في تحقق طموحاتها.

الأخوان بلقاسم برهومي - ولاية مقصحة - تونس. عبدالواحد نسقان - صفرو - المغرب:

نشكر للأخ برهومي إجاباته الوافية عن أسئلة العدد (٢٧٧)، ولكن يجب أن تكون الإجابات التي تدخل في الفرز على كوبون المجلة، ومرحباً بك وأن تجدد صداقتك مع المجلة، كما نفيد الأخ عبدالواحد أنه تم الأخذ باقتراحه حيث لم يعد هناك مواد تحريرية تنشر خلف صفحة المسابقة.

الأخ ع. إبراهيم - درعا - سورية:

تحديد الفائزين في مسابقة «الفيصل» يتم بالقرعة لتحقيق تساوي الفرص بين المتسابقين، ونأمل أن تفوز بإحدى الجوائز لتحقيق رغبتك في شراء المراجع التي أشرت إليها.

الأخت أمل حامد سالم - عمان - الأردن:

نأمل أن تفوزي بجائزة المسابقة في أحد الأعداد القريبة إن شاء الله، ونشكر لك هذه الروح الإنسانية التي تدفعك إلى إهداء الأعداد لصديقاتك وحل المسابقة لهن حتى يفزن بقيمة جائزة المسابقة.

الأخت فاطمة محمد حريق الأسمري - بللسمر - أبها - السعودية:

تم إرسال العددين ٢٧٥، ٢٧٦ حسب طلبك، علماً بأن اشتراكك المجاني بدأ من العدد ٢٦٣ وكان آخر عدد أرسل إليك هو العدد (٢٧٤). وجاء إرسال هذين العددين تقديراً لاهتمامك بالمجلة، كما أرفق معهما أعداد أخرى.

الأخ فاسر عبدالله يحيى الوادعي - حجة - اليمن:

يمكنك أن توجه سؤالك إلى الجهات المختصة حتى لا نخوض فيما يخرج عن نطاق اختصاص المجلة، أما جوائز نوبل والفائزون بها منذ عام ١٩٨٦ إلى ١٩٩٩م، فيمكنك أن تطلب هذه المعلومات من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية وعنوانه: الرياض ١١٥٤٣ - ص ٥١٠٤٩ - المملكة العربية السعودية.



حسين حسن حسين - عبد الرحمن بن محمد العقيل

قسم التحرير

«يؤدي فن المعمار أدوارًا عدّة؛ عملية وبراغماتية، ولكنه يستجيب - من وقت إلى آخر - لما هو أكثر من مجرد دور عملي. فعندما يتجاوز فن المعمار أول مستوى من معطياته، ليستشرف عالمًا جديدًا، كما يحدث هنا، فإن المبنى يتحول إلى شيء آخر. إنه يصبح وسيلة تنقلك إلى تجربة أخرى، وتربطك بجو من الأبهة والعظمة». كلمات للفنان البريطاني بريان كلارك وهو يعلق على تجربته الفنية في مشروع الفيصلية حيث قام بوضع تصميم الزجاج المعشق المستخدم في بهو برج الفيصلية، وهذه الكلمات تؤكد ما يمكن أن يمثله الفن المعماري من أبعاد حضارية حين يعكس جماليات البيئة، ويوظف مكوناتها، ويعبر عن الإنسان في هذه البيئة بكل ما لديه من إرث ثقافي وحضاري.



الأمير خالد الفيصل وإلى جواره الأمير بندر بن خالد بن سعود أمام مجسّم للفيصلية يستمعان إلى شرح من مصمم المشروع عن مراحل التنفيذ

وبهذا الفهم العميق لمضمون فن العمارة، كان حرص القائمين على مؤسسة الملك فيصل الخيرية على أن تأتي مشروعاتها المعمارية متفردة في تصميمها، ومنسجمة مع بيئتها، متخذة الجمال لغة بين مكوناتها، والتكامل الوظيفي صفة لها.

وإذا كان مبنى «الخيرية» - وهو المسمى الذي عرف به مقر المؤسسة والذي افتتح في ٢٤ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ (شباط/فبراير ١٩٨٤م) - مثّل معلمًا حضاريًا بارزًا في الرياض منذ إنشائه، إذ جاء على طراز متقدم، واتخذ شكل كتاب مفتوح، وبلغ ارتفاعه أربعة عشر طابقًا، فإن مركز الفيصلية أحدث مشروعات المؤسسة وأضخمها تنفرد تصميمًا، وتكامل



إنجاز يلامس القلوب

مكوناته، وارتفاعه الشاهق يعد إضافة معمارية إلى معالم مدينة الرياض التي شهدت نقلة واسعة معمارياً وخدمياً في زمن قصير جداً حتى غدت مدينة حديثة تضاهي أكثر المدن في العالم تطوراً، مما أهلها لتكون مركزاً تجارياً مهماً في المنطقة بأسرها. ولا غرو أن تختار عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م لما تضمه من مؤسسات تعليمية، ودور فكر، وأندية أدبية وثقافية، ومكتبات ضخمة، ومراكز معلومات، ودور نشر، ومؤسسات صحفية. ولا شك أن العمارة تعد وجهاً من وجوه الثقافة والحضارة التي هيأت الرياض لهذا الاختيار.

ومن حسن الطالع أن يأتي افتتاح مركز الفيصلية مع مطلع قرن جديد ومتزامناً مع اختيار مدينة الرياض عاصمة للثقافة العربية، ليقدم الدليل على حيوية هذه المدينة العريقة، وتجدد بنيتها المعمارية من خلال التمازج بين الماضي والحاضر، ومواكبتها لما يشهده العالم من تطور في نواحي الحياة المختلفة.

الفيصلية.. لماذا؟

لقد قامت سياسة مؤسسة الملك فيصل الخيرية على إقامة مشروعات استثمارية بغرض تحقيق أرباح يتم توظيفها في الإنفاق على مشروعاتها الخيرية في قارات العالم المختلفة. ومن أحدث استثماراتها مركز الفيصلية الذي بلغت تكلفة إنشائه نحو ٢ر١ بليون ريال سعودي (٣٢٠ مليون دولار)، والذي من المؤمل أن يكون رافداً مهماً لتمويل المشروعات الإنسانية للمؤسسة في المجالات الأكاديمية والعلمية والثقافية، وفي مجال خدمة المجتمع، ولاسيما بعد تضاعف ميزانية العمل الخيري في المؤسسة.

وتحقق المؤسسة من خلال هذا المشروع الحيوي شعار «توجهات جديدة وملامسة لحياة الناس» ولاشك أن الاهتمام بالعنصر الجمالي من أهم تلك التوجهات الجديدة التي تحرص عليها مؤسسة الملك فيصل الخيرية؛ وإذا كان ذلك قد بدأ في مبناها الرئيس «الخيرية»، فإنه لابد لعصر التقنية أن يفرض قوانينه ولمساته على مركز الفيصلية كمشروع جديد رئيس من دون أن يكون هذا اغتراباً عن البيئة،

مجسم كامل للفيصلية

بتأكيد أهمية استحضار مقومات التراث المعماري، وتوظيفه بما يحقق جماليات حضرية ووظيفية على المدى.

المشروع: مكونات وإمكانات

يتكون مشروع الفيصلية الذي دشن أعمال البناء فيه صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض في ١٦ ذي القعدة ١٤١٧هـ (٢٥ مارس - آذار ١٩٩٧م) من خمسة أقسام هي: برج الفيصلية، والمركز التجاري، ومركز المؤتمرات والأفراح، وفندق الفيصلية، والشقق السكنية.

وتقوم شركة الجرامي بإدارة القسم الأول من المشروع، كما تقوم شركة روز وود بإدارة الأقسام الثلاثة الأخرى.

وقد فازت على منافسيها بتنفيذه شركتان بريطانيتان من أعرق الشركات العاملة في مجال الاستشارات الهندسية هما: السير نورمان فوستر وشركاه، وبورو هابولد، وذلك بعد مسابقة معمارية ضمت شركات عالمية معتمدة.

ويذكر أن الشريط التجاري الواقع بين طريق الملك فهد وشارع العليا قد وضعت له الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض في عام ١٤١٤هـ مخططات جديدة، من بينها السماح ببناء ناطحات سحاب بهدف إضافة لمسة إبداعية جمالية إلى المدينة وإتاحة مساحة خضراء لمشاة المدينة مع عدم التأثير في شبكات الخدمات والمرافق وكثافة الحركة المرورية، وقد وضعت اشتراطات خاصة بالشريط الذي تم فيه [illegible] الذي يحدد مستوى الارتفاعات في هذه المنطقة مع تحقيق السلامة.

ويقول عن ذلك سمو الأمير سلمان: إن مشروع الفيصلية يعتبر من الاستثمارات الرائدة في المجالات المختلفة، يعكس ازدهار الاقتصاد الوطني، والنشاطات التجارية القائمة في الشريط التجاري بطريق الملك فهد، ويسعى إلى استيعاب الأفكار والإبداع المعماري، والخروج [illegible] رفعة المستوى، وتوفير مساحات مفتوحة أكثر على الأرض.

تحديات بيئية

كانت التحديات الجيولوجية واحدة من أخطر التحديات التي واجهت المشروع، إذ قامت [illegible] إلى أكثر من ١٠٠٠ ثقب للاختبار داخل الحجر الجيري للتأكد من عدم وجود فراغات أو فجوات تحت الأساسات، ولم يكن هناك حاجة إلى زيادة عمق الحفر عن خمسة أمتار لمعظم المنشآت، لكن لزم في الأماكن الأخرى الحفر لعمق ٢٥ مترا تحت قاعدة الأساس الخرساني المتصل الذي يقع على عمق ١٥ مترا تحت مستوى الأرض.

ويكمن من حسن الحظ [illegible] داخل ثقب الحفر البالغ قطره ٦ أمتار [illegible] الشقوق المتوقعة أو التجاويف الصخرية لتصبح [illegible]



المراحل الزمنية لإنشاء الفيصلية



الأرضية ومنع الكهوف الناتجة من التفتت.

ولارتفاع مستوى المياه السطحية في هذه المنطقة تمَّ تبطين سائر المشروع بطبقة مطاطية عازلة في جميع الوصلات الخرسانية، وقام المهندسون بهذا العمل بناء على افتراض ارتفاع الماء إلى متر واحد تحت مستوى سطح الأرض، وهو افتراض غير متوقع الحدوث.

وقد صمم البرج لمقاومة سرعة رياح مقدارها ١٤٠ كلم / ساعة، ومن المتوقع أن تميل قمة البرج في حدود ٤٥٠ ملم (في حدود ثلاث سنوات من الريح)، وتتحرك نحو ٢٥٠ ملم بعد خمس عشرة سنة من تأثير الرياح، وهذه الحركة في الحدود المعقولة، ولا يشعر بها الإنسان.

ويبلغ احتياج المشروع من الكهرباء ٢٧ ميجا واط، قامت بتوفيره الشركة السعودية الموحدة للكهرباء (سيكيكو) بطاقة بلغت ١٣٨٠٠ فولت، وعلى الرغم من أن هذا المعدل أعلى من المستوى العادي، إلا أن مجمع الفيصلية يستعمل طاقة أقل للمتر المربع، موازنة بالمجمعات ذات الحجم المماثل التي تم بناؤها قبل هذا المشروع في المملكة.

وتمّ عمل ترتيبات خاصة مع الاتصالات السعودية لتوفير خمسة آلاف خط هاتفي للمجمع، وهي تكفي لإمداد مدينة صغيرة، كما ربطت شبكة الألياف البصرية مباشرة بالمقسم المحلي لمتطلبات بث المعلومات عبر الاتصالات الهاتفية.

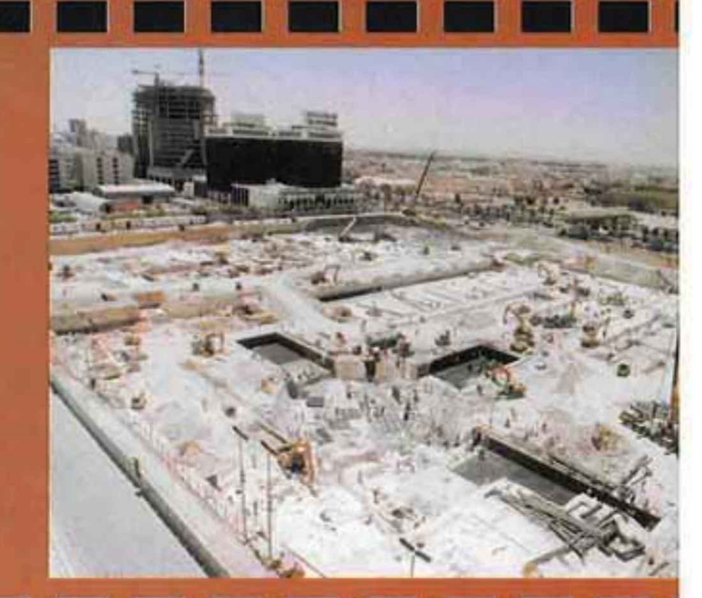


جانب من الفندق

برج الفيصلية (برج المكاتب)

الماء والخضرة يضفيان على أي مكان جمالاً خلاباً، فكان أن تغنى بهما الشعراء على مر العصور، وهما يمثلان في مركز الفيصلية عنصراً جمالياً مهماً تم توظيفه في أماكن كثيرة، بدءا من مدخل البرج الذي زينت مساحته الرحبة بمياه وأشجار ونخيل ومسارات وممرات تم بناؤها من الجرانيت، ويوجد في قاعة البرج مبنى موصل يمتد بعرض ١٠٠ متر تقريبا، وارتفاع






نموذج من غرف الفندق

٥ر٢٧ متراً، وهو يمثل مدخل الردهة ومقر الاستقبال الرئيس في البرج، وتضم الردهة مصاعد حديثة تصل إلى جميع الطوابق.

ونظم كل طابق للمكاتب بشكل دائري حول وحدة مركزية، ومصاعد الزوار، ومصعد الردهات، وعددها ١١ مصعداً، وسرعة المصعد ٥ر٧ أمتار في الثانية أي ما يعادل طابقين في الثانية، وهذه المصاعد مجهزة بنظام مراقبة يعمل بشبكة استشعار متطورة، ووحدة حاسوب، مع نظام إرشاد صوتي. ونظام دخول الطوابق بالبطاقات. وتوجد شاشات عرض [illegible]

[illegible]

[illegible]






الرافعة العملاقة ترتفع في سماء الرياض

إلى مكان آخر، وتمت الاستفادة من هذا الفراغ بإضافة هذه الكرة الزجاجية، ولتعارضها هندسياً مع الهلال والذي كان يفترض وجوده في قمة البرج، تم تغيير الهلال، وأصبحت أضلاع البرج جميعها تنتهي عند نقطة واحدة، وتنتهي بمثلث زجاجي يمكن إضاءته بحيث يصبح كالشعلة في قمة البرج مما يضفي مزيداً من الجمال على البرج.

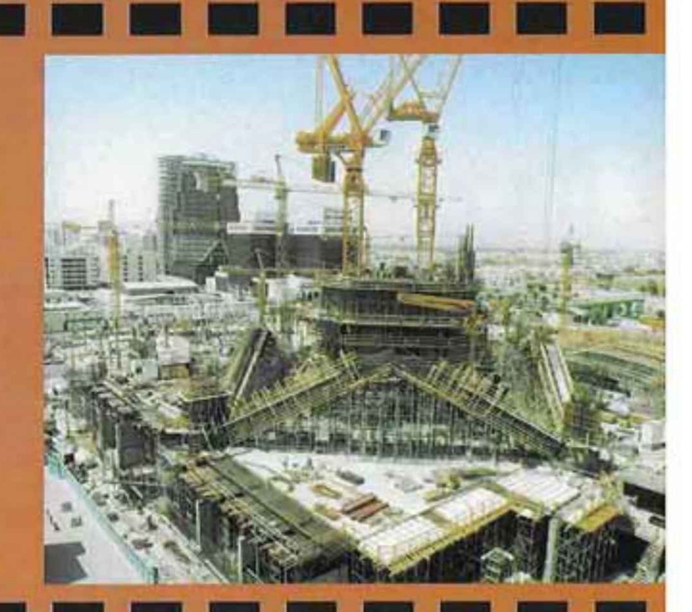
وتعلو هذا المطعم المخبوء بكرته البلورية قمة برج الفيصلية البالغ طولها ١٣ متراً، وهي مسلة فولاذية زنتها سبعة أطنان، وقد تم تركيبها في الجزء المخروطي في أعلى البرج.

ومن المعلومات المثيرة عن المباني الخرسانية الشاهقة أنها تقصر بمرور الزمن، إلا أن شركة بيرو هابولد قد تغلبت على هذه المشكلة في برج الفيصلية بالقيام بعمليات حسابية، توصلت من خلالها إلى أن البرج سوف يقصر نحو ١٣٦ مليمتراً بعد ثلاثين عاماً، بينما تقصر أعمدة الزوايا في المدة نفسها نحو ٢٤٤ مليمتراً، وللتعويض عن الفرق الناتج من هذا الانكماش بين الجزءين، قام المهندسون بزيادة خرسانة كل طابق مليمتراً واحداً عن الأعمدة المحيطة حتى تصبح في مستوى واحد مع البرج المركزي.

بهو البرج

من أروع أجزائه ويشبه سقفه بتلات الزهر، ويرتفع إلى علو خمسة طوابق، ممتداً بين الفندق من الناحية اليمنى، وكل من المجمع السكني ومركز التسوق من الناحية اليسرى لمجمع الفيصلية. ويربط بين هذين المبنين جسران يمران مباشرة أمام الجدار الزجاجي المعشق.

وتمتد نافذة البهو وحدها بعرض ٨١ متراً، وارتفاع ٢٤ متراً، وهي مصنوعة من الزجاج المعشق الرائع، وهي من تصميم الفنان المعماري البريطاني بريان كلارك الذي صمم الزجاج ونقشه ليعكس خلفية صحراوية، تتخللها صور جمالية





حسين حسن حسين

تتمازج فيها الألوان معبرة عن أقاليم المملكة وطبيعتها وبيئاتها المختلفة.

واستطاع كلارك بذلك أن يعيد البريق إلى فن العمارة الإكليركية الذي ازدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد، بتقديمه في ثوب عصري حديث، تُستخدم فيه أكثر التقانات تطوراً.

وتبلغ مساحة الجدار الزجاجي الرائع الجمال ألفي متر مربع من الزجاج المطفأ المقوى، المؤلف من ألواح مطوقة، ويبلغ سمك كل من الـ ٣٥٠ لوحاً سنتيمتراً واحداً، وأبعاد كل لوح ١٧٠×٢٩٠ سنتيمتراً، مما يجعله أضخم عمل فني من أعمال الزجاج المعشق يتم إنجازه حتى الآن.

مرحلة تثبيت الجزء النهائي في أعلى البرج (المسلة)

عبد الرحمن بن محمد العقيل

البصر مع ذلك التغيّر. ويقوم هذا الفنان أولاً بالتقاط صور فوتوغرافية للأشكال المستخدمة، ثم يُعالج الصور بالوسائط المختلفة من ألوان مائية، وإكليريك وغيرهما، ويعيد تصويرهما. وبعد ذلك يقوم بمسح الصور بوساطة الحاسوب، محيلاً إياها إلى مئات الألوف من العناصر الدقيقة المتشابكة في مزيج متناغم من الظلال والألوان الكثيرة. وأخيراً، يقوم بتجزئة الشكل إلى أقسام عدة، تمهيداً لطبعها من الشاشة الحريرية على الألواح الزجاجية.

وبدلاً عن الأصباغ والأحبار يتم مزج عدد من الأكاسيد المعدنية الشفافة



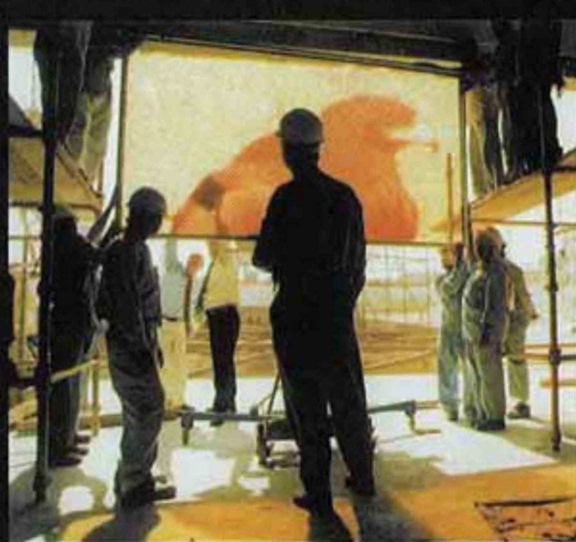




الرياض حيث يتم تنظيف كل لوح بمفرده، كما يتم طلاؤه بمادة عازلة، ولصق لوح زجاج شفاف عليه، مما يحقق مستوى عالياً جداً من العزل الحراري.

ويراوح حجم البقع اللونية التي تتخلل الزجاج بين ملليمترات قليلة ونحو ٢٫٥سم، ولذا تراها العين بأكثر من طريقة، حسب المسافة التي تفصلها عن الناظرين، فمن على البعد يبدو كل عنصر من العناصر المكونة لهذا العمل الفني واضحاً، ولكن كلما اقترب الناظر إلى الجدار، أخذت دوائر الضوء شبه الشفاف تتكسّر. إن هذا يشبه ما نشعر به حينما نطالع نقاط حروف الجريدة من خلال عدسة مُكبرة، ولكن الفرق هنا أن النقاط تخدعك ألوانها بصورة بارعة، وهي تتدرج من رقة اللون الشاحب، إلى ثراء اللون البنفسجي وعنفوانه. وكلما اقتربت أكثر، انتثرت تلك البقعة لتعطيك الإحساس بأنك تنظر إلى ملايين القطرات من الضوء الملوّن. ولكن يكفي أن ترجع خطوة إلى الوراء لترى الشكل الحقيقي مرة أخرى.

ويعلق كلارك باعتزاز على هذه التجربة بقوله: «إن هذا البناء - في معظمه - يتكون من وحدات مسبقة الصنع، وهذه عملية آلية استخدمت فيها جميع الوسائل التقانية (التكنولوجية) المتاحة لتحقيق تصورنا بشكل صحيح. ولو كانت قطعة فنية ملونة باليد لما أعطت ذلك التصور».



الرسومات على الزجاج المعشق

ويضيف: «إنني لا أحب أن أرسم لوحة لأعلقها على أحد الأبنية، وإنما أود أن تستجيب أعمالي لضرورات الفن المعماري. وما أحبّه في الزجاج المعشق بالذات أنه جزء أصيل من البناء؛ إنك لا تفكّر أبداً في إزالته».

ومن التحدّيات التي واجهها في مشروع الفيصلية أنه لم يكن قد رأى سوى رسومات ومجسمات للمشروع عندما تقدم بتصميمه، وعبر عن تخوفه نتيجة ذلك بقوله: «لقد كنت أخشى





ألا يكون الوضع متلائماً مع مفاهيمي الفنية. ولكن من حسن الحظ أن نظام الإضاءة، والمناخ العام للبهو حققا النجاح للتصميم الذي وضعته».

المركز التجاري ومتعة التسوق

تشكل المراكز التجارية بمختلف مستوياتها المنتشرة في مدينة الرياض دلائل على عافية النشاط الاقتصادي في المملكة العربية السعودية، وقد أقامت مؤسسة الملك فيصل الخيرية مجموعة من المراكز التجارية مثل مركز الخزامى، ومركز أبها التجاري، ومركز خميس مشيط، وذلك دعماً لموقفها المالي حتى تتمكن من الوفاء بالتزاماتها وبلوغ أهدافها ذات الطابع الخيري الإنساني.



داخل أحد المطابخ

ويجيء المركز التجاري الذي يضمه مجمع الفيصلية مختلفاً في تصميمه، ومستفيداً من الخبرات التي تراكمت في هذا المجال، ومراعياً النواحي الجمالية والوظيفية لمثل هذا المركز الذي يحتاج إلى يسر الحركة، وحرية التنقل عمودياً وأفقياً، مع توفر التسهيلات التي تتيح للبائع عرض بضاعته بشكل جذاب يلفت انتباه المستهلكين إليها، ويجعلها في متناول أيديهم، كما تتيح للمستهلكين متعة التسوق في مناخ صحي حيث يتشكل المركز التجاري من ساحات رحبة، ومساقط مائية، ونوافير مروحية تتدرج معاً مكونة لغة هندسية رائعة تستمد مفرداتها من البيئة المحيطة.

ويتكون المركز من أربعة طوابق، وتبلغ مساحته الإجمالية ٤٥ ألف متر مربع، منها ٣٣ ألف متر مربع للإيجار، إلى جانب ١٠٠ متجر للبيع، منها متاجر عالمية تتبع أرقى الماركات الوطنية والدولية في مجالات الأزياء والمجوهرات والأدوات المنزلية وغيرها من السلع والبضائع.

ويضم المركز محلات للأطعمة تقدم وجبات ومأكولات خفيفة، وحلويات في الهواء الطلق، كما أن من أبرز معالمه أجنحة التسلية والترفيه المخصصة لتقديم مختلف الألعاب لكل ما





يشتمل عليه من ألعاب حديثة توظف فيها التقنيات المتطورة لإضفاء جو من المرح البريء يستمتع به رواد المركز، إلى جانب الخدمات المتطورة التي تعطي للمركز صفة التكامل والشمول.

مركز المؤتمرات والولائم

استغلت المساحة تحت الأرض بين فندق الفيصلية والشقق السكنية في إقامة مركز للاحتفالات والولائم خطط لتصميمه بعناية فائقة، فأعطي مساحة شاسعة حيث يمكن استخدامه لأغراض مختلفة؛ فهو يصلح صالات طعام تكفي لخدمة ٣٠٠٠ ضيف، كما يمكن أن تُقام به المعارض لترويج المنتجات، ولعقد المؤتمرات والندوات والمناسبات الاجتماعية.

تبلغ مساحة هذا المركز ٥٨×٨٠ متراً وارتفاع سقفه ٧.٨ أمتار، وهو مع هذا بلا أعمدة، وتم تقسيم هذه المساحة إلى ١٦ وحدة مستقلة للاجتماعات أو غرف الطعام. ويتصل بهذا المركز مساحة مستقلة ذات مدخل خاص يمكن استخدامها عند الحاجة، وهي تستوعب ١٢٠٠ ضيف.

ويتوافر لهذا المركز تقنيات حديثة في الإضاءة والتكييف موزعة إلى وحدات يمكن استخدامه بطريقة مستقلة.

فندق الفيصلية ورفض مصطلح «طوابق المديرين»

يقع فندق الفيصلية وهو من درجة (خمسة نجوم) شمال البرج، وقد صمم وفق أحدث المواصفات العالمية التي تهيئ



متابعة دقيقة لمراحل العمل

الراحة للنزلاء والاستمتاع بالخدمات الحديثة والسريعة، ولاسيما لرجال الأعمال الذين يعني لهم الوقت الشيء الكثير.

ويتكون الفندق من ١٨٩ غرفة ممتازة و ٣٥ جناحاً، ويقوم بالخدمة عاملون مؤهلون يحرصون على توفير أفضل خدمة للعملاء من دون تمييز بدءاً من فك الأمتعة إلى أي خدمات يحتاج إليها العميل.

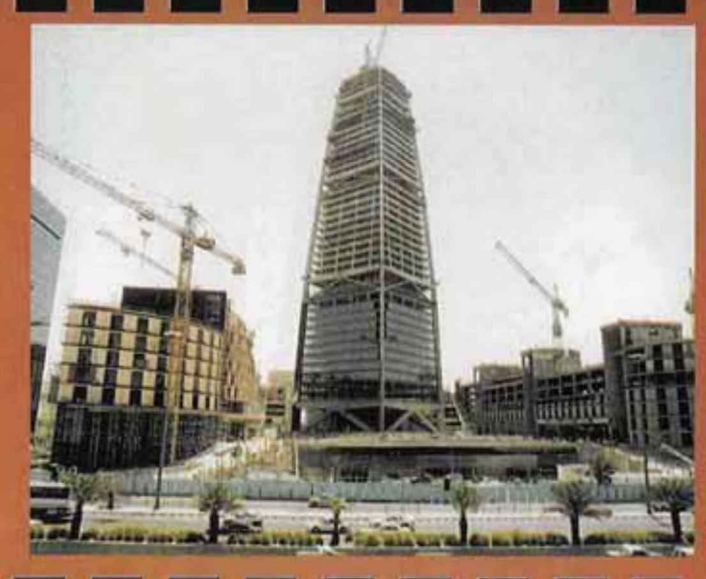
ويتوافر في كل غرفة أثاث أنيق بالإضافة إلى وسائل الاتصال المتقدمة، كما يوجد بالفندق ناد صحي يقدم





شقق سكنيه بخدمات فندقيه







وللأرقام حديث

• برج الفيصلية البالغ ارتفاعه ٢٦٧ متراً هو أعلى بناء في المملكة العربية السعودية، كما أنه مرتفع قليلاً عن برج «كناري ورف» أعلى مبنى في بريطانيا.

• ثقل البرج البالغ ١٠٠ ألف طن موزع على ١٥ متراً، وهي عمق الأساسات، ومع ذلك أبقي الضغط على الصخور كما كان قبل بناء البرج.

• إذا وضعت الإسمنت المستخدم في بناء البرج في أنبوب قطره بوصة واحدة، فإن طوله سيبلغ نحو ١٢٠٠ كيلو متر، وهي المسافة بين الرياض وجدة.

• إذا تم توصيل نهايات القضبان «الكابلات» المستخدمة في الموقع بعضها مع بعض، فإنها ستمتد عبر المملكة العربية السعودية من جدة إلى الدمام.

• لو أخذنا ٢٥ مليمتراً كمتوسط لقطر قضيب، فإن الـ ٣٥ ألف طن من الحديد المستخدم في المشروع سيمتد نحو ٤٫٥٠٠ ميل، وهي المسافة من الرياض إلى لندن.

• الطاقة المولدة من أجهزة التكييف المركزية البالغ عددها ٢٤ جهازاً تعادل طاقة ٣٠ ألف ثلاجة.

• يتضمن المشروع ٢٥ ألف وحدة إضاءة مع استثناء الشقق السكنية.

• صالة الطعام التي تبلغ مساحتها ٨٠×٥٨م هي أكبر صالة حديثة خالية من الأعمدة في المملكة.

• أكبر رافعة مستخدمة في المشروع هي من طراز ليبهر تستطيع أن تحمل ١٥٤ سيارة من السيارات ذات الدفع الرباعي.

• تبلغ طاقة دوائر تكبير الصوت المغلقة ٢٫٤ كيلو وات، وهي تعادل طاقة ٤٠٠ جهاز إستريو سيارة، ولو تم استخدام مكبر واحد لكل دوائر الصوت المغلقة، لسمع أذان الصلاة في كل أنحاء مدينة الرياض.

• عند ذروة العمل في المشروع في عام ١٩٩٩م، بلغ عدد العاملين ٣٥ استشاريًا، و٥ آلاف عامل يمثلون ٢٠ جنسية مختلفة.

• العاملون في المشروع يحتاجون إلى ١٥ ألف وجبة طعام، وعشرة آلاف رحلة بالحافلة على أساس مناوبين للعمل، و٢٠ ألف لتر من مياه الشرب يومياً.

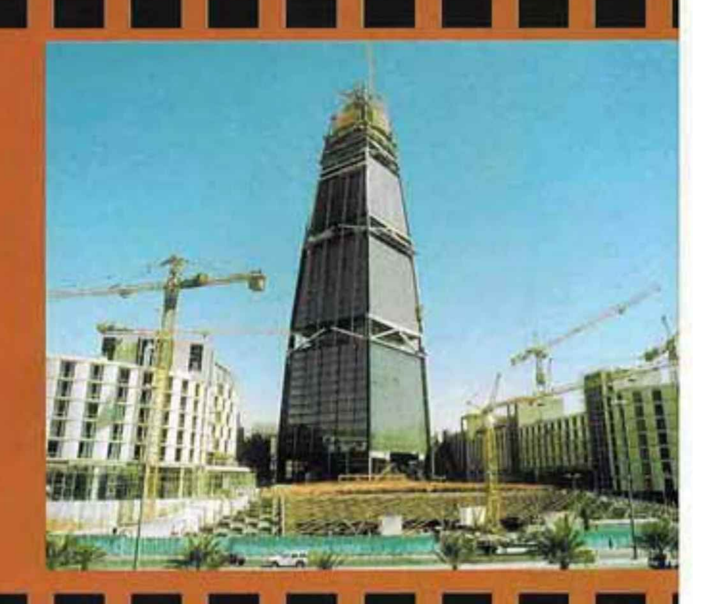
وللتقنية لغة

الرافعة العملاقة «ليبهر» التي استخدمت في وضع المسلة الفولاذية على قمة برج الفيصلية مزودة بنظام حاسوبي متطور يحدد الزوايا، وأطوال الأسلاك، وأوزان الأجسام المرفوعة بدقة متناهية، ويوقف التشغيل عند ظهور أول بادرة لأي خلل. كما يحسب الحاسوب سرعة الرياح، لأن كوابح الرافعة تعمل وفقًا لتلك السرعة، مما يسمح للرافعة بالاستدارة مع الريح. أما إذا تجاوزت سرعة الرياح حداً معينًا فإن الحاسوب يوقف حركة الرافعة تمامًا.

والطريف أن سائق الرافعة لا يرى شيئًا خلال قيادتها، لذا فهو يعتمد اعتمادًا تامًا في أداء مهمته على توجيهات مساعديه الذين يُقدِّرون سرعة الأشياء وارتفاعها.

وغالبًا ما تحتاج الرافعة إلى مساعد واحد، ولكن في مشروع الفيصلية يوجد مساعدان.

إن السؤال الكبير الذي يتبادر إلى ذهن كل من يرفع بصره إلى أعلى البرج هو: «كيف يمكن إنزال الرافعة مرة أخرى إلى الأرض؟» والإجابة تكمن في أن هذه الرافعة تفكك نفسها بنفسها، وتنضغط حتى تصبح تحت مستوى دعامة الذراع المثبتة على جانب البرج، ثم تقوم الذراع بعد ذلك بتفكيك الأجزاء المتبقية، وإنزالها قطعة قطعة إلى الأرض، وأخيراً يتم تفكيك الذراع وإنزالها عن طريق مصعد الشحن الخاص بالبرج.





العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية بقوله: «لقد شهدت الفترة القصيرة نسبيا من عمر المؤسسة جيلا كاملا من الإنجازات التي لامست قلوب أناس عديدين في أرجاء العالم، وزرعت الأمل في نفوس رجال ونساء وأطفال كثيرين بمساعدتهم في تحقيق تطلعاتهم نحو حياة أفضل، كما شهدت نمو المؤسسة، وترسيخ اهتماماتها، وتطورها وتوسع أهدافها لتعبر أكثر فأكثر عن غاياتنا، واليوم نتطلع في لهفة إلى إطلالة جيل جديد من الإنجازات، ودورة جديدة من النمو».

«العلو، الشموخ، التفرد، التكامل» أربع مفردات؛ هي أقل ما يمكن أن نحكيه لغة عن هذا المشروع، وعن كل جزء من أجزائه؛ فالعلو: في التصميم والمعمار المذهل والإبداع الهندسي، والشموخ: في ذلك البرج الرابع الذي يقف شامخا على ما حوله في العاصمة الرياض، والتفرد: من حيث روعة البناء والتصميم، والسبق في أن يكون أول ناطحة سحاب في المملكة، والتكامل: في الترابط المتين بين أجزاء المشروع، بل في انسجامه مع مبنى المؤسسة الرئيس وأجزائه القديمة، والتكامل الحيوي بين مبنى الخدمات والمرافق سكنا وتسوقا وعملا واستخداما.

وبعد هذا هل بالغ كلارك حين قال: «هذا المشروع يمثل ليلة عرس في المملكة»؟

مصمم المشروع

ولد نورمان فوستر في مدينة مانشيستر في عام ١٩٣٥م، ومنحته ملكة بريطانيا لقب اللورد فوستر أوف ثمسايد.

تخرج في كلية الهندسة المعمارية وتخطيط المدن في جامعة مانشيستر في عام ١٩٦١م.

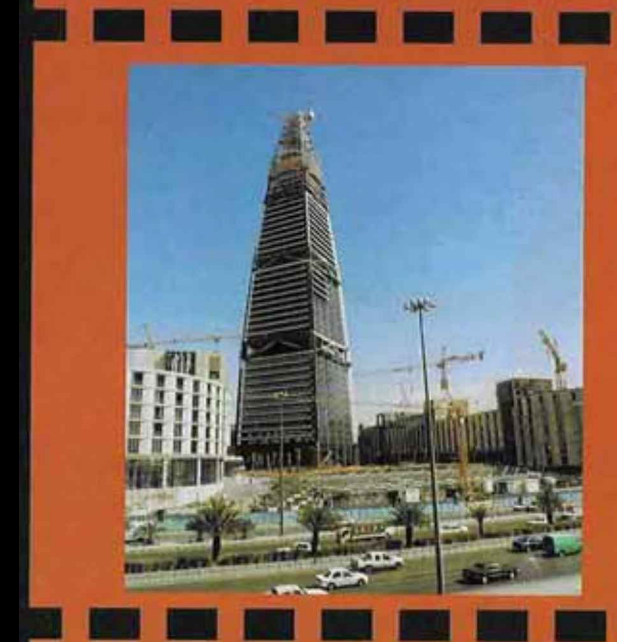
تكونت شركة باسم فوستر وشركائه مقرها الرئيس لندن.

فوستر عضو في المعهد الملكي للفنون المعمارية البريطاني، والأكاديمية الملكية للفنون في لندن، وزميل معهد الفنون المعمارية الأمريكي، وزميل جمعية القانون للمصممين المعمارية، وعضو الأكاديمية الدولية للفنون المعمارية في صوفيا، والأكاديمية الملكية للفنون الجميلة في السويد، وزميل معهد المهندسين الإنشائيين، وعضو الجمعية الفرنسية للمهندسين المعماريين، ومجلس الكلية الملكية، ومجلس التربية والتعليم، وعضو زائر في المعهد الملكي للفنون المعمارية البريطانية.

من المباني الرئيسة التي نفذتها الشركة المقر الرئيس لشركة ويليس فيبر أند دوماس Willis Faber and Dumas في أبسويتش Ipswich، ومركز سينسبيري للفنون البصرية Sainsbury Center في نورويتش Norwich، ومصرف هونج كونج، وشنغهاي في هونج كونج، وقاعات ساكلر الفنية في الأكاديمية الملكية في لندن عام ١٩٨٤ ـ ١٩٩٣م، والمقر الرئيس لبنك كومرز في فرانكفورت عام ١٩٩١ ـ ١٩٩٧م، والمتحف الجوي الأمريكي ودوكسفورد ومطار هونج كونج الجديد أكبر مشروع إنشائي في العالم، وغيرها.

نالت شركة فوستر وشركائه على ما يزيد على ١٦٠ جائزة وشهادات تقدير، كما فازت بخمسين منافسة (مناقصة) محلية ودولية.

منح درجات دكتوراه من كثير من الجامعات في العالم.









حقيقة فرصة التثاقف في مجتمع المعلومات الكوني

خير الدين عبدالرحمن
حلب - سورية

قبل أن ينتشر الحديث عن تشكيل مجتمع المعلومات الكوني، وصفًا للبشرية في ظل عصر تعاظم فاعلية تقانة (تكنولوجيا) المعلومات، ابتدع الأمريكي ميلفن سكوفيتش مصطلح التثاقف Acculturation - أي التزاوج الثقافي بين المجتمعات والأمم المختلفة بوصفه جوهر العلاقات الإنسانية. يقوم مفهوم التثاقف على عملية تبادلية، وتفاعل تسوده المشاركة في صياغة الراهن المؤسس للمستقبل.

إن غواية هذا المفهوم شديدة في إيحائها بأن لكل مجتمع نصيبه في هذه الصياغة، وبأن لكل إبداع فرصته للإسهام في بناء عالم واحد تشترك كل الثقافات في تشييده. لكن هذه الغواية خادعة عندما يغطي إيحاؤها حقائق الواقع العالمي، فيحجب طبيعة العلاقات السائدة والمتوقعة بحديث عن تفاعل وتبادلٍ وتزاوج، كواقع قائم أو طموح متاح، بينما تستشري جائحة تيار جارف أحادي الاتجاه أسماه سدنته: العولمة.



إن التثاقف تعبير افتراضي عن تفاعل إيجابي متوازن نسبياً، يتم تحت شروط إنسانية ينتفي فيها القسر والقمع والإلغاء والاستئصال والإلحاق بالقهر. فحرية كل مجتمع - صغيراً كان أم كبيراً - في التعبير عن ذاته الحضارية والثقافية، وأخذ ما يلائمه ويفيده ويستكمل حاجته الحقيقية من تجارب المجتمعات الأخرى وإنجازاتها وإبداعاتها، وتقديم ما في تجربته الذاتية للآخرين مطمئناً إلى انتفاء الرفض المسبق، أو الازدراء التلقائي لتلك التجربة، أساس لتفاعل يكون العطاء فيه مطلقاً، والأخذ اختيارياً، إرادياً، دونما إكراه وقسر وإلحاق؛ يستدعي هذا قدراً من التوازن النسبي القائم على الاعتراف بالآخر واحترامه، والإقرار بالتنوع والتمايز سنة من سنن الحياة الإنسانية الطبيعية. لا نقصد بالتوازن مساواةً في الطاقات والقدرات والقوى، ولا تماثلاً في ظروف الحياة ومستويات المعيشة، ولا التكافؤ في مستويات الفعل والانفعال، ولا التطابق في مقدار الأخذ والعطاء، فهذه افتراضات نظرية مستحيلة، لكن استحالتها لا تعني الخضوع لنقائضها على أنها قدر أو حتمية تسوغ المغالاة في الاعتداد بالذات إلى حد امتهان الآخرين وتسويغ إلغائهم، سواء أكان الإلغاء إبادة مادية على نحو ما تم فعلاً بما أدى إلى اختفاء أمم ومجتمعات كاملة، مثل الأزتيك والأنكا والمايا، ومن أطلق عليهم اسم الهنود الحمر في القارة الأمريكية، أم كان الإلغاء معنوياً وحضارياً عبر خنق فاعلية أمم وشعوب ومجتمعات

لغرض الالتحاق والتبعية والخضوع عليها قسراً.

تحدث ابن خلدون في مقدمته عن «اقتداء المغلوب بالغالب» قانوناً يلخص علاقة المقهور بقاهره، وعلاقة الضعفاء والمتخلفين والمهزومين بالقوة المنتصرة. لكن هذا الاقتداء - حتى في أقصى أشكاله اللا إرادية - يتضمن حيزاً من المسؤولية الذاتية للمقتدي، كما يتضمن فرصة التراجع عن الاقتداء، أو مزجه بما تفرزه الحاجات والمعطيات والموروثات الذاتية. فمهما بلغ تأثير الانبهار بتجربة الآخر وإنجازاته والخضوع لهيمنته، ومهما تلاشت الثقة بالذات أمام هذا الانبهار بالآخر، وتوسل الخلاص عبر استنساخ وسائله وسبله وقوانين تطوره، يظل هذا التأثير فعلاً يستثير بدوره رد فعل، سواء جاء رد الفعل هذا سريعاً وعفوياً، أم جاء بطيئاً وعقلانياً وتراكمياً، فإنه يحمل بذاته احتمالات تغيير تتقلص معها فاعلية الإلحاق القسري أو الالتحاق التلقائي.

إن اقتداء المغلوب بالغالب يأخذ أبعاداً شديدة التعقيد عندما يوغل الغالب في الاعتداد بالذات وامتهان الآخرين، فيتجذر الوهم لديه يقيناً بالتفوق الفطري الدائم، ويتجسد هذا اليقين إصراراً على اعتماد نسق قيمه معياراً وحيداً للتحضر والمعاصرة، بل وللجدارة بالحياة والوجود. وهنا لا يعود غريباً أن يخرج من صفوف الغالب والملتحقين به زعم بأن تجربته هي النموذج الكوني النهائي الذي يتوقف عنده التاريخ. ويزداد الأمر تعقيداً عندما يجعل الغالب مصالحه الذاتية أولوية مطلقة يستبيح توظيف العالم بأسره - بشراً وأرضاً وفضاء وطاقات وثروات - لخدمتها، موظفاً قوة عسكرية طاغية ساحقة لفرض هذه المصالح وحمايتها، إلى جانب احتكاره وسائل الاتصال والتواصل والتكنولوجيا، مما يرسخ هيمنته على اقتصاديات العالم وسياسات دوله وعلاقاتها، وتحكمه بمسارات الشعوب ومواردها وأنماط حياتها. إن مثل هذا الوضع يجعل معظم الشعوب مغلوبة من غير مغالبة، ويجعل الغالب قرصاناً كونياً أكثر مما هو قدوة تفرض بالقسر اقتداء الآخرين بها.

أين هي فرصة «التثاقف» في مثل هذا الوضع؟ وما خط التفاعل المتوازن تحت هذه الشروط؟ إنها علاقة فاعل بإطلاق مع مفعول به بإطلاق، علاقة يشتد اختلالها ويتفاقم مع الاتساع المتسارع للفجوة بين طرفيها، وبشكل خاص مع الهيمنة المتزايدة للأقلية على التحكم بتحويل التدفقات والتراكمات المعلوماتية إلى معارف، ومن ثم إلى منجزات، متواكباً مع التحكم بتوجيه التدفقات الإعلامية والمالية والإنتاجية واستثمارها، وبآلية التبادلات التجارية والمالية والمعرفية.

> لكي يتم تثاقف حقيقي كعملية تبادلية، وتفاعل إيجابي، لابد للضحايا المستباحة من ترتيب البيت الداخلي ليستطيع تقديم ما يفرض نفسه على المستبيح، ويقنعه بأن التفوق والإبداع ليسا احتكاراً فطرياً له

إنه تحكم يتعاظم في مقابله عجز المجتمعات المستباحة على امتداد العالم، وحرمانها من حق تقرير المصير واختيار المسار.

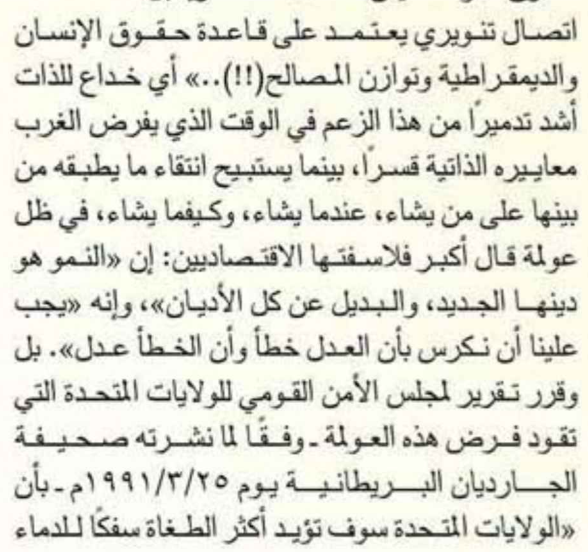
وتكمن معضلة هذه المعادلة المختلّة في أن فاعلية طاغوت التفوق المادي والتقني والعسكري تتوالد وتتضاعف بتسارع مستمر. وتفوق هذه الفاعلية في تأثيرها ما تتضمنه من قدرات حقيقية بعشرات المرات في ظل شل فاعلية المجتمعات المستباحة، وتعطيل قدراتها، وتكبيل إرادتها، ومحاصرة خياراتها وآمالها.

إن مجتمع المعلومات الكوني الذي كانت مقولة التثاقف واحدة من الغوايات الممهدة للتبشير به، ليس وليد تفاعل طبيعي للمجتمعات المختلفة في سياق تطور حضاري شامل، وهذا المجتمع ليس - كذلك - رداً معرفياً وثقافياً على ممارسات الاجتياح الهائل للقيم والمعايير المادية والاستهلاكية، وما أحدثته من تغييرات جذرية في العلاقات وأنماط السلوك المجتمعية والإنسانية، جارفةً فاعلية القيم الروحية والأخلاقية والعقدية، وفارضةً لعبة الأرقام بأكثر صيغها خداعاً وتحيزاً وانتقائية واختلالاً.

إن اللعبة الرقمية مستمرة في توليد نتائج لا تتناسب أحجامها مع بداياتها، ولا تتناسب أرباحها الخيالية مع

عناصر الإنتاج من رأس مال وعمل ومواد أولية نظراً للتعاظم المتفاقم للقيمة المضافة، والجشع المروع في استنزاف المجتمعات المستهلكة. فهل التثاقف ممكن في ظل استفحال هذه اللعبة؟

لقد قرر الفيلسوفان الألمانيان أدورنو وهركيير أن «الثقافة الغربية قد أفلست بالتقنيات الصناعية والتكنولوجيا»، كما قرر روجيه جارودي في كتابه ««الهدامون» أن الحضارة الغربية الصليبية المتهودة هي هيمنة عسكرية ساحقة لا تحمل أي مشروع إنساني قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ». فإذا ما وعينا أن الامتداد الأمريكي لهذه الثقافة والحضارة، الذي يشكل أكثر أجزائها خواء وأقلها أصالة - بإقرار غالبية المفكرين الأمريكيين والأوربيين - هو الذي يقود عملية تكوين مجتمع المعلومات الكوني، وصياغة علاقاته، نستطيع أن نستشرف بسهولة ملامح هذا المجتمع في غدنا القريب. إنها ملامح تعني بالتأكيد خداع الذات، والدعوة إلى غيبوبة إرادية نقترفها بسذاجة عندما نركن مثلاً إلى ما ذهب إليه كاتب عربي حين «بشّر» في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١م بأن «اتصال الغرب في مرحلتنا التاريخية مع الشرق الأوسط ليس اتصالاً استعمارياً بل



اتصال تنويري يعتمد على قاعدة حقوق الإنسان والديمقراطية وتوازن المصالح(!!)..» أي خداع للذات أشد تدميراً من هذا الزعم في الوقت الذي يفرض الغرب معاييره الذاتية قسراً، بينما يستبيح انتقاء ما يطبقه من بينها على من يشاء، عندما يشاء، وكيفما يشاء، في ظل عولمة قال أكبر فلاسفتها الاقتصاديين: إن «النمو هو دينها الجديد، والبديل عن كل الأديان»، وإنه «يجب علينا أن نكرس بأن العدل خطأ وأن الخطأ عدل». بل وقرر تقرير لمجلس الأمن القومي للولايات المتحدة التي تقود فرض هذه العولمة - وفقاً لما نشرته صحيفة الجارديان البريطانية يوم ١٩٩١/٣/٢٥م - بأن «الولايات المتحدة سوف تؤيد أكثر الطغاة سفكاً للدماء مادام يلعب على هواها، وسوف تعمل على إسقاط حتى ديموقراطيي العالم الثالث إذا ما خرجوا عن خدمة أغراضها»! أين هي القيم التي تشكل مرجعية للتثاقف!

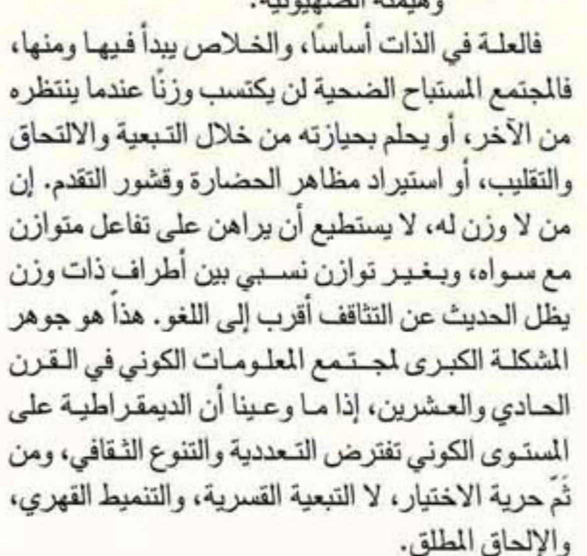
أليس افتراض التثاقف في ظل مثل هذه الشروط أشبه بقناع لا يختلف عن الأقنعة التي تزين الإلحاق القسري، وفرض التبعية، والنهب المنظم، والإلغاء بدعاوى حقوق الإنسان والديمقراطية وتوازن المصالح!

لكي يتم تثاقف حقيقي كعملية تبادلية، وتفاعل إيجابي، لابد للضحايا المستباحة من ترتيب البيت الداخلي ليستطيع تقديم ما يفرض نفسه على المستبيح، ويقنعه بأن التفوق والإبداع ليسا احتكاراً فطرياً له.

إن تجربة اليابان التي نهضت من ركام هزيمتها مرتين خلال نصف قرن جديرة باتخاذ نجاحها حافزاً لعشرات الأمم الأخرى، وإن كان هذا لا يعني إطلاقاً استنساخ تلك التجربة. كذلك فإن تجربة الصين التي بدأت النهوض من القاع مع منتصف القرن العشرين لتشكل قوة كبرى ذات واحد من أعلى معدلات النمو في العالم مع نهاية هذا القرن، تسقط كل ذرائع التخاذل والجمود والاستكانة والاكتفاء بالشكوى من آثار الاستعمار، وقيود الإمبريالية وتآمر الغرب، وهيمنة الصهيونية.



روجيه جارودي



فالعلة في الذات أساساً، والخلاص يبدأ فيها ومنها، فالمجتمع المستباح الضحية لن يكتسب وزناً عندما ينتظره من الآخر، أو يحلم بحيازته من خلال التبعية والالتحاق والتقليب، أو استيراد مظاهر الحضارة وقشور التقدم. إن من لا وزن له، لا يستطيع أن يراهن على تفاعل متوازن مع سواه، وبغير توازن نسبي بين أطراف ذات وزن يظل الحديث عن التثاقف أقرب إلى اللغو. هذا هو جوهر المشكلة الكبرى لمجتمع المعلومات الكوني في القرن الحادي والعشرين، إذا ما وعينا أن الديمقراطية على المستوى الكوني تفترض التعددية والتنوع الثقافي، ومن ثمّ حرية الاختيار، لا التبعية القسرية، والتنميط القهري، والإلحاق المطلق.

المثالية.. والبراغماتية

بين الرجل والمرأة في الشعر العربي القديم

أحمد محمود الخليل
العين - الإمارات

رقة المشاعر، ورهافة الأحاسيس، ودفء عواطف الرحمة والحنان، والانفعال بالمواقف المثيرة.. تلكم هي الصفات التي تُعرف بها المرأة، وتلكم هي الخصال التي تمتاز بها.
أما الرجل فيأتي في هذه الميادين ثانياً؛ إذ المعروف أنه أكثر واقعية، وأقدر على كبح جماح العواطف، وأشدّ مراساً في مواجهة الانفعالات، بل هو لا يتردد في إدارة الظهر لما فيه دغدغة للمشاعر، حين يتعارض ذلك وما رسمه لنفسه من أهداف.

وبعبارة أخرى دعونا نقل: يُتوقّع من الرجل أن تكون رؤيته أقرب إلى المنطق العملي الذرائعي (البراغماتي) الماديّ. ويُنتظر من المرأة أن تكون رؤيتها أميل إلى المنحى العاطفي (الإنساني) المثالي. لكن الشعر العربي القديم يفصح عن أمر لا يخلو - في هذا الباب - من العجب.. وليس هذا فحسب، وإنما يفيد العكس تماماً.

بلى.. ثمة لوحات شعرية كثيرة تبدو فيها الصورة المتوقعة لكلٍّ من الرجل والمرأة معكوسة تماماً، فالرجل في هذه اللوحات هو الذي ينزع إلى ما هو إنساني (مثالي)، وهو الذي يتشبّث بالمواقف الرحيمة النبيلة، وهو الذي يدافع بقوة وحماسة عن مشروع إنساني رحيب الآفاق اتّخذه لنفسه غاية، وقرّر التزامه ممارسة، بينما تبدو المرأة ذات نزعة أنانية (مادية)، تتصدى للرجل محاولة عرقلة مشروعه الإنساني، غير عابئة بشؤون المحتاجين وشجونهم.

فما أبعاد هذا التناقض بين مواقف الرجل ومواقف المرأة؟

ترى أ فلسفتان للحياة متضادّتان هما؟ أم إن الأمر لا يتعدى كونه تشويهاً إعلامياً موجهاً إلى المرأة يقف الرجل وراءه؟!

هذا ما سيكون موضوع بحثنا في الصفحات الآتيات.

قيم ومشكلات

ليس هناك في دائرة الحياة الإنسانية ما يأتي من فراغ، أو يحدث من غير سبب، وكذلك شأن القيم الاجتماعية؛ فهي - في كل عصر - على علاقة وثيقة بالواقع اليومي للمجتمعات البشرية، وبحاجات الناس على الصعيدين المادي والمعنوي.

ولا يخفى أن الطبيعة الصحراوية هي الغالبة على بيئة شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه الطبيعة - ولا سيّما في العهود القديمة - بالغة القسوة، وكانت تغدو أكثر قسوة أيام الشتاء؛ إذ تقلّ الأقوات، وتصوّح الأرض وتنضب المراعي، وكثيراً ما كان الحرمان يعصف بحياة كثير من الأسر العربية، ويرمي بهم في مهاوي الجوع والبؤس.

وإزاء هذا الواقع البيئي والحياتي الأليم نمت في المجتمع العربي القديم قيمة من أروع القيم الإنسانية على مدار التاريخ، ألا وهي (الجود)، ونشأت طائفة فريدة من نوعها عُرفت بالأجواد، وقد هبّ العرب هؤلاء يقفون بكل نبل إلى جانب المحرومين، يقدمون لهم ما يحفظ عليهم حياتهم وكرامتهم، ويشاطرونهم لقمة العيش سواء بسواء، بل يؤثرونهم أحياناً بما يملكون، وأصبح التباري بأشكال الجود من أعظم مفاخر العرب، وبات البخل من أبشع النقائص وأقبح الصفات في دائرة الأعراف العربية.

على أن مواقف الأجواد هذه كانت

نجرّ عليهم مشكلات أسرية مقلقة، وكثيراً ماكان الخلاف ينشب بين الرجل وزوجته بسبب ذلك، فالزوج يبادر إلى الإنفاق على المحتاجين، وإنقاذ المحرومين، بينما تقف له المرأة بالمرصاد، وتطلب إليه الاقتصاد حيناً، والكف حيناً آخر. ويبدو الخلاف تارة في شكل عتاب رقيق، ويعنف تارة أخرى ليغدو لوماً وتقريعاً، ثم يتفاقم أمراً وزجراً، ثم يتفاقم أكثر فيكون تهديداً بالفراق، بل كان ينتهي الأمر بالطلاق أحياناً.

جواد نبيل.. ونساء عاذلات

دعونا بادئ ذي بدء نقف عند صورة حصن بن حُذيفة الفزاري، ممدوح زهير بن أبي سُلمى، فبعد أن يهيئنا زهير نفسياً لاستقبال ذاك الرجل الجليل بقوله:

وأبيضَ فيّاضٍ يداهُ غمامةٌ
على مُعتفيه، ما تغبُّ نوافلُهْ(١)

أجل بعد هذا التقديم الجليل، نجد مشهداً يثير الشاعر حقاً، إذ ها هو ذا الرجل الجواد حصن قاعد على الرمل في فناء بيته، تحيط به نسوة من ههنا وههنا، وهن يعاتبنه طوراً، ويلاطفنه بالقول طوراً آخر، وعلام يعاتبنه؟! على إكثاره من بذل المال لأهل الحاجات، وعدم الاقتصاد في الإنفاق، لكن أولئك النسوة لم يحققن الغرض من عتابهن، وما استطعن أن يثنين ذلك الكريم الجليل عن نهجه الإنساني النبيل، وما كانت النتيجة سوى أن حصناً ظل متشبثاً بموقفه، مصراً على نهجه:

بكرتُ عليه غُدوةً فوجدتُهُ
قعوداً لديه بالصَّريم عواذلُهْ
يُفدِّينه طوراً وطوراً يلُمنهُ
وأعيا، فما يدرين أين مخاتلُهْ
فأعرضْنَ منه عن كريم مُرزَّأ
جموعٍ على الأمر الذي هو فاعلُهْ(٢)

ولا يكتفي زهير بتصوير صلابة حصن في موقفه وثباته على نهجه، والإعراض عن الأسلحة التي استخدمتها النسوة في محاولتهن، وإنما يعود إلى الصورة الجليلة فيزيدها جلالاً، من خلال تأكيد تعلّق حصن بالجود على نحو غير مألوف، فهو يمارس رسالته الإنسانية بعشق ما بعده عشق، وترى البشر يطفح من على وجهه وهو يعين المحتاجين بما يحتاجون إليه من أموال، غير مدلّ عليهم بما يجود، ولا مباهٍ بما يفعل:

أخي ثقةٍ، لا تُهلِكُ الخمرُ مالَهُ
ولكنّه قد يُهلِكُ المالَ نائلُهْ
تراهُ إذا ما جئتَهُ متهللاً
كأنك تُعطيه الذي أنت سائلُهْ(٣)

وقد رأينا حصن بن حُذيفة رجلاً سامي النفس، جليل القدر، يترفّع عن خوض الجدال مع النسوة حول نهج ارتضاه، وفلسفة للحياة آمن بها، وهو يكتفي بالاستماع إليهن، تاركاً لهن الحرية في أن يقلن ما يشأن، ويقترحن عليه ما يرين؛ إذ له أيضاً أن يفعل ما يشاء في المال الذي يملكه، وبالكيفية التي يرغب فيها.

وإذا كان حصن قد اكتفى بالاستماع إلى عواذله، فإن زيد الفوارس لا يكتفي بذلك، ولا يقبل بالصمت جواباً عن اللوم الذي ينهال عليه من ابنة منذر في قلب الليل، إنه يبادر إلى الدفاع عن مواقفه، لكن بعيداً عن الفظاظة، وفي إطار حواري طريف، لا يخلو من الداعبة والرقّة المزوجتين بقدر غير قليل من الحزم، وراح يؤكد لزوجته أنه مؤمن كل الإيمان بنهجه في الجود:

أقلّي عليّ اللومَ يابنةَ منذرِ
ونامي، وإن لم تشتهي النومَ فاسهري
ألم تعلمي أنّي إذا الدهرُ مسّني
بنائبةٍ زلّتْ، ولم أتتترترِ؟!
يراني العدوُّ عند غبّ لقائه
خليّاً نعيمَ البال، لم أتغيّرِ
وراكدةٍ عندي طويلٍ صيامُها
قسمتُ على ضوءٍ من النارِ مُبصرِ

طروقاً فلم أفحشْ، وقسّمتُ لحمها
إذا اجتنب العافون نارَ العذوّرِ(٤)

رؤية براغماتية.. ورؤية وجودية

أما الأمر بين عبدالله بن الحشرج الجعدي وزوجته أمّ مسلم فهو مختلف جداً.

إن هذه الزوجة فقدت صبرها إزاء ما يقدم عليه زوجها من إنفاق للأموال على المحتاجين، لذا فهي لا تكتفي بالعتاب الرقيق، وإنما تنتقل إلى مواقع الهجوم الصريح على زوجها، إنها لا تتردّد في أن ترميه بالإسراف في الإنفاق، بل هي تقسو عليه أكثر فتتهمه بالفساد.

فماذا كان موقف الشاعر من هذا الهجوم؟

إنه لا يخرج عن طوره، ويظلّ متماسكاً رزيناً محتفظاً بوقاره، ويردّ على زوجته رداً رقيقاً، موضحاً لها أنّ الجود طبع فيه، ولن يستطيع الإقلاع عنه:

ألا بكرتْ تلومُكَ أمُّ سلْمٍ
وغيرُ اللوم أدنى للسَّدادِ
وما بذْلي تلادي دون عِرضي
بإسرافٍ، أُميمَ، ولا فسادِ
فلا وأبيكِ ما أعطي صديقي
مكاشرتي وأمنعُهُ تلادي
ولكني أمرؤٌ عوّدتُ نفسي
على علاّتها جريَ الجوادِ
محافظةً على حسبي، وأرعى
مساعي آلِ وردٍ والرُّقادِ(٥)

ويلاحظ الموقف نفسه بين حاتم الطائي وتلك المرأة - ولعلّها زوجته ماويّة - فقد هبّت تلومه على جوده بالمال، وراحت تبصّره بأوجه الضرر التي يجرّه الجود على الأسرة وعليه هو نفسه، وما كانت حجّته سوى أنه ينقاد لطبعه، والطبع غلاّب:

وقائلةٍ: أهلكتَ بالجودِ مالَنا
ونفسَك، حتى ضرَّ نفسَك جودُها
فقلتُ: دعيني، إنّما تلك عادتي
لكلِّ كريمٍ عادةٌ يستعيدُها(٦)

وتبدو المرأة ناقمة لاذعة في عتابها أحياناً، إنها ترمي زوجها بسوء التصرف، والافتقار إلى الحكمة في إنفاق الأموال، ولا تكتفي باستثمار البعد النفسي في محاولاتها إثناء الزوج عن الكرم، وإنما تلجأ إلى الحجاج العقلي المنظم أيضاً، وتمضي لتقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، وتكشف للزوج خطل رأيه وفساد نهجه؛ وهذا ما فعلته طُريفة مع زوجها جُويّة بن النَّضْر:

قالت طُريفةُ ما تبقى دراهمنا
وما بنا سرفٌ فيها، ولا خُرُقُ

إنّا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا
ظلّت إلى طُرُق المعروف تستبقُ

ما يألفُ الدرهمُ الصيّاح صُرّتنا
لكنْ يمرُّ عليها وهْو منطلقُ

حتى يصير إلى نَذْلٍ يُخلّدُه
يكادُ من صرِّه إيّاه يَنْمَزِقُ(٧)

والحجة التي تتقدم بها طريفة هي أن جهود زوجها في الإنفاق تذهب عبثاً، وهي لا تطالبه بالإمساك على نحو مباشر، وإنما ترسم صورة طريفة لدراهمهم وهي تتفرّق شذر مذر، وتتسابق إلى طرق المعروف. ووجه المفارقة أن تلك الدراهم التي تمرّ على صرّة جوّية مرور الكرام تستقرّ أخيراً بين يدي لئيم من البخلاء يحكم عليها الإغلاق أيما إحكام، ولا يفرج عنها أبداً، أفليس من الأفضل إذاً أن يبقي عليها جوّية عنده بدل أن تقع في أسر أولئك اللئام؟!

وفي بعض الأحيان يأخذ الحجاجُ بين الزوجين طابعاً معرفياً، يعود بجذوره إلى رؤيتين فلسفيّتين للحياة متناقضتين:

الأولى، رؤية وجودية عملية (براغماتية)، تتمثل في أن قيمة الإنسان مرهونة بما يمتلك من ثروة، بل إن المرء يستطيع، من خلال حيازة المال الوفير، أن يترك أثره في التاريخ، ويكون من أصحاب الشهرة الخالدين، بينما لا يجرّ الفقر على الإنسان سوى الهمّ والغم، وتصبح حياته جحيماً لا يطاق؛ وتلكم هي رؤية عاذلة المخبّل السعدي (لعلّها زوجته).

والثانية، رؤية وجودية شمولية، تتخذ من الموت معياراً لقيمة الحياة، وأن الفناء المحتوم هو الكاشف الحقيقي لمعنى وجود الإنسان، وانطلاقاً من الفهم الشمولي للوجود لا يكون المال سوى عاريّة، وهو لا يمتلك مقومات الخلود، إذاً فكيف للمرء أن يركن إليه، ويقضي العمر في اقتنائه، ويبذل الجهد في الضنّ به؟! وتلكم هي رؤية المخبّل نفسه.

وشتّان ما بين الرؤيتين!

ويقول المخبّل في ذلك:

وتقولُ عاذلتي، وليس لها
بغدٍ، ولا ما بعده عِلْمُ

إنّ الثراء هو الخلود، وإنْ...
نَ المرء يُكربُ يومه العُدْمُ

إنّي - وجدّك - ما تُخلّدني
مئةٌ يطيرُ عِفاؤها أُدْمُ

ولئن بنيت لي المشقّر في
هضْبٍ تُقصّرُ دونه العُصْمُ

لتنقّبنْ عني المنيّةُ إنْ...
نَ الله ليس كحكمه حُكْمُ

إنّي وجدتُ الأمرَ أرشَدُه
تقوى الإله، وشرُّه الإثمُ(٨)

حرب نفسية.. وتقنيات هجومية

وليت معارضة المرأة للأجواد وقفت عند العتاب الرقيق والحجاج الهادئ؛ إن هذه المعارضة تتصاعد، فتأخذ أحياناً طابعاً هجومياً لا يخلو من العنف على الصعيد النفسي، وتتمثّل هذه التقنية الهجومية الجديدة في جملة من أساليب الحرب النفسية، هي:

- تشكيك الرجل في مبادئه، وسلوكه ومواقفه: فهاهنّ أولاء عوائل المثلّم بن رياح المُرّي قد تحلّقن حوله في الصباح الباكر، ولعلّه كان نُمي إليهنّ أنه بصدد مشروع خيري جديد، فشرعن يهاجمنه من كل جانب، ويرمينه بالسفاهة والحمق والطيش، محاولة منهن لصرفه عمّا هو بصدده من إقدام على الجود، لكنّه لا يلين ولا يستكين، ويظلّ واثقاً من أن ما يفعله هو الصواب، وما السفاهة إلا فيما يأمرنه هنّ به من إمساك للمال وإعراض عن ذوي الحاجات:

بَكَر العواذلُ بالسّواد يلُمنني
جهلاً يقُلْنَ: ألا ترى ما تَصنعُ؟!

أفنيتَ مالَكَ في السَّفاه، وإنّما
أمرُ السَّفاهة ما أمرنَكَ أجمعُ(٩)

وتلجأ سمية إلى التقنية الهجومية نفسها في زجر زوجها معاوية بن مالك المشهور بلقب (معوّد الحكماء) عن إنفاق المال، فتصفه بالضلال والغي، راجية من وراء ذلك أن تثنيه عن عزمه على بذل المال للمحتاجين، لكن سرعان ما ينقلب السحر على الساحر، إذ لا يبدي مالك أيّ اكتراث لما ترميه به، بل يعلن أنه لن يقلع عمّا تسميه هي غيّاً وضلالاً ما دام يملك المال:

قالت سُميةُ: قد غويتَ بأنْ رأتْ
حقّاً تناوبَ مالنا ووفودُ

غيٌّ لعَمرك لا أزالُ أعودُه
ما دام مالٌ عندنا موجودُ(١٠)

- تهديد الرجل بالفراق: وهذا ما فعلته زوجة المرقّش الأصغر، إذ يبدو أنها دخلت في خلاف مرير مع زوجها، بسبب إنفاقه المال، ولمّا تبيّن لها أنه لا يلقي إلى لومها بالاً، راحت تشنّ عليه حرباً نفسيّة ضروساً، وتهدّده بالفراق، ولا يملك الزوج إلا أن يتلطف بها ويهدئها، محاولاً جهده كتسويغ إقباله على إنفاق الأموال، فهو امرؤ ذو إرث من المجد عريق، ولا يرضى أن يشوه تاريخه بالبخل، ويجرّ عليه عار الأبد:

آذنتْ جارتي بوشْكِ رحيلِ
باكراً جاهرتْ بخطبٍ جليلِ

أزمعت بالفراق لما رأتني
أتلف المال، لا يذم دخيلي
اربعي، إنما يريبك مني
إرث مجد، وجد لب أصيل
عجباً ما عجبت للعاقد الما...
ل وريب الزمان جم الخبول
أجمل العيش! إن رزقك آت
لا يرد الترقيح شروى فتيل(١١)

(والجارة هنا: الزوجة. والترقيح: إمساك المال والحرص عليه).

- **التهديد بالطلاق:** وهذا شكل آخر من أشكال الضغوط النفسية التي كانت المرأة تمارسها على الرجل بقصد حمله على الاقتصاد في الإنفاق إلى درجة البخل، وهذا هو الأسلوب الذي لجأت إليه (أم محمد) تجاه زوجها حميد بن ثور الهلالي، لكن الشاعر يرفض أن تفرض وصايتها عليه، فلتتوجه بأوامرها إلى ولدها (أحمد)، أما هو فلن يتزحزح قيد أنملة عن عاداته في الكرم، ويؤكد لها أنه ماض في كرمه، وليس لها - إذا ظلّت مصرة على موقفها منه - إلا أن تطلب الطلاق، أو ترحل عنه:

لقد أمرت بالبخل أم محمد
فقلت لها: حثي على البخل أحمدا
فإني امرؤ عودت نفسي عادة
وكل امرئ جار على ما تعودا
أحين بدا في الرأس شيب وأقبلت
إلي بنو عيلان مثنى وموحدا
رجوت سقاطي واعتلالي ونبوتي
وراءك عني طالقاً! وارحلي غدا(١٢)

ويرسم الشاعر الفارس حجية بن المضرب لوحة رائعة لموقفه من حرب الأعصاب التي أعلنتها زوجته عليه، إنها راحت تظهر النفور منه، وباتت غاضبة تتنقب عنه وكأنه غريب عنها، وما ذلك إلا لأنه رأى أبناء أخيه (معدان) اليتامى يتضاغون جوعاً، فهب يرد عنهم عذاب الحرمان، ويأمر راعييه أن يريحا إبله عليهم، حين عودتها من المرعى، ليشربوا من ألبانها قبل أولاده هو، وكيف لا؟! فلقد كان أخوه نعم المعين في الملمات، لذا ما على الزوجة إلا أن تقلع عن الحران، وترجع إلى الصواب، وتعلم أنه ليس بالرجل البليد الذي ينطلي عليه المكر، وإلا فلتذهب حيث شاءت:

لججنا، ولجت هذه في التغضب
ولط الحجاب دوننا والتنقب
تلوم على مال شفاني مكانه
إليك فلومي ما بدا لك، واغضبي
رأيت اليتامى لا تسد فقورهم
هدايا لهم في كل قعب مشعب
فقلت لعبديْنا: أريحا عليهم
سأجعل بيتي مثل آخر معزب
بنيّ أحق أن ينالوا سغابة
وأن يشربوا رنقاً لدى كل مشرب
ذكرت بهم عظام من لو أتيته
حريباً لآساني لدى كل مركب
أخي، والذي إن أدعه لملمة
يجبني، وإن أغضب إلى السيف يغضب
فلا تحسبيني بلدماً إن نكحته
ولكنني حجية بن المضرب
رحمت بني معدان إذ ساف مالهم
وحق لهم مني ورب المحصب
فإن تقعدي فأنت بعض عيالنا
وإن أنت لم ترضي بذلك فاذهبي(١٣)

أين هي الحقيقة؟

حقاً، يبقى أن نتساءل: أين الحقيقة؟! هل هذه الصورة التي رسمها الشعراء للمرأة هي صورة حقيقية؟!

ألا يمكن أن يكون ما يصورونه نوعاً من أنواع تضخيم الذات بتقزيم الآخرين؟! وهل يمكن أن تكون المرأة قاسية القلب إزاء المحتاجين واليتامى إلى هذا الحد؟! ثم إن الرجل والمرأة كليهما ينتميان إلى ثقافة واحدة، ثقافة يحتل فيها الكرم مكانة مرموقة، ولا مكان فيه للبخل إلا الحضيض، فكيف يمكن أن ترضى المرأة لزوجها ولنفسها بالحضيض؟! وكيف لها أن تغامر - دفاعاً عن الاقتصاد في الإنفاق - بمفارقة بيتها، بل بالطلاق في بعض الأحايين؟!

الأمر - فيما يبدو لنا - بعيد عن أن يكون تشويهاً لصورة المرأة أو افتئاتاً عليها، وذلك لأسباب متعددة: منها أن الشعراء كانوا أنبل من أن يسيئوا إلى زوجاتهم، ومن يمت إليهم بصلة القرابة من النساء، ويجعلوهن غرضاً يُرمى، طمعاً في اقتناص الشهرة أو حيازة المجد.

ومنها أن ثمة أخباراً ترد على هوامش هذه الأشعار، يتبين من خلالها أن ما صوره الشعراء لم يكن من اختراع الخيال، ولم يكن ضرباً من الوسائل الفنية (كالنسيب) اتخذها الشعراء مطية لأغراض معينة، وقد جاء في الأخبار أن (ماوية) طلقت نفسها من زوجها الجواد الشهير (حاتم الطائي) لإمعانه في بذل المال للمحتاجين والضيوف، إلى درجة أنه ما كان يبقي على شيء منه لأهله(١٤).

ومنها أيضاً أن هؤلاء الشعراء منهم الجاهلي، ومنهم المخضرم، ومنهم الإسلامي، وما كانوا ليشكوا جميعهم من هم واحد، عبر هذه العصور المختلفة، لو لم يكن الباعث على الهم حقيقة واقعة.

ثم إن التفاصيل التي يرسم الشعراء ملامحها بدقة، والصدق في اللهجة، والاندفاع في تصوير الحدث بحرارة، أمور تزيل الشك، ولا تترك مجالاً للّبس.

رحلة عبر الجذور

إذاً لا مجال إلى الطعن في أن هذه اللوحات الشعرية تشتمل على حقائق اجتماعية ونفسية، وأنها ليست افتراءات أو تشويهاً مما ندعوه اليوم بالتشويه الإعلامي المغرض، ومهما حاولنا تبسيط الأمور فلا سبيل إلى تجاهل أن هذه اللوحات تعبر عن رؤيتين متناقضتين، وعن فلسفتين للحياة متعاكستين، وصحيح أن الطابع الغالب عليهما اقتصادي، إلا أن لهما

جذوراً اجتماعية ووجودية أيضاً.

إن المرأة تنحاز بوضوح إلى صيانة المال وعدم التفريط فيه، ولنا أن نعدّهافي هذا المجال ماديّة النزعة، واقعية الرؤية، ذات منحى عمليّ (براغماتي) في التعامل وتفاصيل الحياة اليومية، على أن نأخذ بالحسبان قسوة الحياة في البيئة العربية قديماً، وأن فقدان المال يعني أولاً وقبل كل شيء فقدان أسباب الحياة نفسها، وعلينا أن نضع في حسابنا أيضاً أن المال الذي يدور الجدل حوله بين الرجل والمرأة لم يكن أوراق (بنكنوت) مدّخرة في البنوك كما هو الأمر اليوم، وإنما كان (المال) هو ما يستفاد منه في الطعام والشراب على نحو مباشر، كالإبل والشاء وغيرها.

هذا، ومن الموضوعية أن ننتبه إلى موقع المرأة في الأسرة قديماً وحديثاً، فهي أكثر فهماً لتفاصيل حاجات الحياة اليومية لأفراد الأسرة، وأقرب إلى الإحساس بما يمكن أن يعانيه الأطفال من عذاب الجوع، وأصدق شعوراً بما يمكن أن يجرّه الحرمان على الأسرة من مآسٍ ومشكلات، وكان موقعها هذا هو الذي رشحها لأن تكون أكثر حرصاً على اقتصاد الأسرة.

ثمّ إن المرأة - حسبما يُفهم من النصوص الشعرية - ما كانت تركض وراء الاكتناز، وإنما كانت تضطر إلى المجاهرة بمعارضتها للرجل حين تجده يأتي على (المال) أو يكاد، وحين كانت تراه يغامر بمستقبل الأسرة كلها طلباً للمجد، إضافة إلى أن وفرة المال كانت تعني السؤدد والمهابة، أما الفقر فإن الذلّة تمشي في ركابه حيثما حل وارتحل، حسبما يذكر عروة بن الورد على لسان زوجته تماضر:

المالُ فيه مهابةٌ وتجلّةٌ
والفقر فيه مذلّةٌ وفضوحُ(١٥)

أما الرجل فقد كان أكثر انحيازاً إلى السلوك المثالي على الصعيد الاقتصادي، وتحديداً في مجال الإنفاق، ومن المفيد هنا الانتباه إلى أن الأجواد من الرجال هم أصحاب هذه النزعة على الدوام، والجواد في كل عصر معروف بنكران الذات، ورفض الأنانية، والرضا باحتمال الآلام في سبيل إسعاد الآخرين.

وفي كلّ الأحوال يرجع إقبال الرجل على الجود إلى دافع رئيس هو الروح الإنسانية، فالأجواد ذوو حسّ إنساني عميق، ينظرون إلى المال على أنه وسيلة إلى إسعاد الناس وليس غاية، وهذا ما أفصح عنه حاتم الطائي في قوله:

إذا كان بعضُ المال ربّاً لأهله
فإنّي، بحمد الله، مالي معبّدُ
يُفَكُّ به العاني، ويؤكلُ طيّباً
ويُعطى، إذا ضنّ البخيلُ المصرّدُ(١٦)

وجملة القول أن رؤية كل من المرأة والرجل إزاء المال تناقض كل واحدة منهما الأخرى من حيث الظاهر، لكنهما متكاملتان في دائرة الحياة من منظورها الشمولي، فالأولى تتصرف إلى ما هو خاص، والثانية تعنى بما هو عام، وإلاّ لاختلّت الحياة، وكانت راحة بعض الناس قائمة على شقاء الآخرين، وقد تنبّه حاتم الطائي نفسه إلى هذه الحقيقة، ويذكر الأصفهاني أن ابنته سفّانة كانت تضاهي أباها في الكرم، فقال لها حاتم:

«يا بنيّة، إن السخيين إذا اجتمعا في مال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكي، أو أمسك وتعطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء»(١٧).

المراجع والهوامش

١. أبو العباس ثعلب: شرح ديوان شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط٣، ١٩٨٢م. ص١١١. والمعتفون: الذين يطلبون العطايا. وما تغب: دائمة. النوافل: العطايا.
٢. السابق ١١٢، ١١٣. والصريم: القطعة من الرمل تنقطع من معظمه. والمخاتل: الأمور التي يخدعنه فيها.
٣. السابق١١٣. ونائله: عطاؤه.
٤. ديوان الحماسة: ٢/٢٤٨ - ٢٤٩. أتنزنز: أتزلزل. وغبّ: بعد. والراكدة: القدر. وصيامها: ركودها على الأثافي لثقلها باللحم. وطروقاً: وقت طروق الضيف. والعافون: طالبو المعروف. والعذور: البخيل السيّئ الخلق.
٥. السابق ٢/٣٤٦. وعلى علاتها. على عسرها وشدّتها. وورد والرقاد: فيلتان.
٦. حاتم الطائي: ديوان حاتم الطائي، دار بيروت، بيروت، ١٩٧٤م، ص٤٤.
٧. السابق ٢/٣٤٤.
٨. المفضليات١١٨. ويطير عفاؤها: يذهب وبرها من السمن. والأدم: الإبل الخالصة البياض. والمشقّر: حصن بالبحرين. والعصم: الوعول.
٩. ديوان الحماسة ٢/٣٠٣. والمراد بالسواد غلس الصبح.
١٠. المفضليات: تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون. دار المعارف - القاهرة، ط٧، ص٣٥٦.
١١. السابق ٢٥٠ - ٢٥١. ودخيلي: ضيفي. اربعي: أمسكي وامسكني. والجدُّ (بفتح الجيم) الحظ أو العظمة. وبكسرها: الاجتهاد في الأمور. والعاقد: الحامع. والخبول: جمع خبل، وهو الفساد.
١٢. ديوان الحماسة ٢/٣٤١.
١٣. السابق ٢/٣٥ - ٣٦. واللطّ: الستر. والفقور: جمع فقر. والقعب: القدح. والمشعّب: المجبور في مواضع منه. وأريحا: ردّ الإبل عليهم رواحاً. والمعزب: الخالي من الإبل. والسغابة: الجوع. والرنق: الماء الكدر. والحريب: المسلوب. والبلدم: البليد الثقيل. وساف: هلك.
١٤. حاتم الطائي: ديوان حاتم الطائي، ص٢٠ - ٢١.
١٥. ابن السكّيت: ديوان عروة بن الورد، وزارة الثقافة، ص٤٣.
١٦. حاتم الطائي: ديوان حاتم الطائي، ص٣٥. والعاني: الأسير. والمصرّد: الذي يبخل بالمال.
١٧. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مؤسسة جمال عبدالناصر، ١٧/٣٨٧.

تاريخ

صفحة من نضال التيار الإصلاحيّ في الشّمال الإفريقي

سلمان إسماعيل

حمص - سورية

قبل أن تدور رحى الحرب الكونيّة الأولى كان الشمال الإفريقي كله قد غدا مستعمرات ومحميّات أوربيّة «فرنسيـة، إسبانية، إيطاليّة». ومع أن البلدان العربية مشرقية ومغربية لم تكن خارج مسببات الصراع الدولي فإنها اندفعت إلى المشاركة في هذه الحرب، إلى جانب الحلفاء موعودة بالخروج منها مستقلة تُسلِّم قياد نفسها، وهي تتفلّت، بفعل الغلبة المرتجاة للحلفاء، من سيطرة السيد القديم الذي جعلها تابعة له بصيغ قرابة مفترضة، عدة قرون.

لقد كانت نخب قليلة تتحفّظ على انحيازات هذه الدول للغرب المناهض لألمانيا وحليفاتها، وكان العثمانيون مجبرين على خيارهم البائس، ولكن تحفّظ هذه النخب العربية على الاتجاه العام لم يستطع أن يعدّل من مسار التوجه الجديد.

ويتحمل العرب «شرقًا وغربًا» ضرائب فاحشة من دوران الحرب الكونية: جوعًا وأوبئة، وموتًا، ونقصًا في الموارد، بالإضافة إلى نصب المشانق للنخب الثقافية والفكرية.

لقد قدمت الجزائر على سبيل المثال، لفرنسا المستعمرة ٩٦ ألفًا من شبابها ليكونوا جنودًا في تلك الحرب الطّاحنة الضروس، وقدمت تونس: ٥٠ ألفًا أيضًا، كل ذلك مقابل وعود أوربية سرعان ما تأكد أنها لم تكن في ذاكرة الواعدين، فاتفاقية سايكس - بيكو المخصصة لاقتسام تركة تركيا في الخريطة الآسيوية وُقِّعت في ١٦ أيار/ مايو ١٩١٦م، والحرب على أشدّها. ومعاهدات صلح «فرساي» في ٧ أيار/ مايو ١٩١٩م، وبعدهما «تريانون وسيفر وسان جرمان»، كل هذه الاتفاقيات فضحت النوايا الأوربية نهائيًا أمام البلدان العربية التي كانت ماتزال تمنّي النفس بالحصول على وثائق الحرية من الدول المنتصرة التي أخلصت لها هذه الدول وساندتها.



عبد الحميد بن باديس

وبعد أن امتحنت كل دولة عربية مصداقية بنود «ويلسون» المعلنة كبشارات إنقاذية، وبعد أن سقطت المراهنة على دولة مثل بريطانيا في المساعدة على بناء دولة عربية نواتيّة مستقلة في المشرق، اتخذت الحركات الوطنية العربية مسالك متنوعة في التعبير عن إصرارها على الاستقلال ورفضها للتبعية: «ثورات شعبية في مصر وسورية والعراق والبحرين وعمان والسودان، ثورة مفاجئة في الريف المغربي الملحق بإسبانيا، لقد تحدت هذه الثورة التي قادها القاضي محمد بن عبد الكريم الخطابي في أكثر مناطق المغرب تخلفًا وصعوبة، الاستعمار الجديد برمّته، وخاصة بعد أن نخطت صيغة المقاومة إلى تشكيل دولة عصرية ذات صيغة جديدة في الحكم، تزاوج بين الموروث المتأصل والحداثة المستعارة بوعي من نظم هذا الغرب الصاعد. لقد حركت ثورة الخطابي سواكن المغرب كله، وبدأ تململه السياسي، حتى بعد سقوط ثورة الريف، يعبر عن جديته في صيغ دبلوماسية وتعبوية واضحة شكلت بداية حقيقية لتكوين أحزاب قومية لعبت دورها الرئيس في إنجاز التحرير وتحصيل الاستقلالات فيما بعد»(١).

السلفية الجديدة: من الدين إلى الوطن

كانت الطرقية المغربية قد استنفدت ثوريتها قبل دخول المنطقة

دائرة النفوذ الأوربي. وغدت في الغالب إرثًا سلبيًا لم يتردد المستعمر في تعهده والنظر إليه بوصفه أحد أسلحته الناجعة في مقاومة الحركة الوطنية، لكن الإطار السلفي البديل الذي وجد من خلال المؤسسات الدينية والتراثية، التي استوعبت الطرقية ورفضتها في آن معًا، غدا في الوقت ذاته، ألد أعدائها وأكبر متحدٍ لها، وإن كانت الصدمة الأوربية قوية، فإنها، من طرف آخر، بقيت تشكل حافزًا من حوافز اليقظة والنهوض القومي، ولم يكن المغرب العربي، في ذلك مختلفًا عن مشرقه، ولئن استطاع هذا المشرق أن يعزز حالة من التنوير والانكفاء التأملي، والمراجعة النقدية، عبر التيارات الإصلاحية التي ولدتها التقابلات الحضارية الحادة بين ما هو غرب وما هو شرق «على نسبية هذين المصطلحين»، إن المغرب، هو الآخر، لم يحرم حتى من نتائج هذه الدعوات والولادات المركبة في مجال الفكر والثقافة والسياسة، لأن هذا المغرب الذي ظل متواصلاً مع المشرق لم يكن غافلاً عما كان يحدث هناك، لقد ظل مشدودًا إلى ما يجري في مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية، ولم يكن يأبه، في حقيقة الأمر، بالقدر ذاته لمجريات السلطنة العثمانية.

وعبر قنوات الحج والدراسة والرحلة، كان مفكروه وأدباؤه وفقهاؤه ورجالاته يحملون وثائق الإصلاح ودعوات النهوض ونزعات تصحيح المفاهيم، وفتاوى العلاقة مع الغرب في المجالين العلمي والتقني خاصة.

كانت مساعي محمد علي باشا التحديثية والإصلاحية في الإدارة والجيش والزراعة، ودعوة الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي في إطار الثورة السلفية تحرك الهمم، وتلقى من بعض المشتغلين في أمور العقيدة والفكر إما تجاوب المثيل أو حماسة التلميذ والمريد، وخاصة في رحاب الصروح الثقافية العريقة ذات التقاليد الأصيلة المؤسسة من قبل كالزيتونة في تونس، والقرويين في فاس. ولم يكن هذا التأثير أو ذاك التأثر آتيين من المكتوب والمنقول عبر الصحيفة والكتاب وحسب، وإنما اتخذ أحيانًا شكل اللقاء الحي المباشر بين رموز الإصلاح في الشرق والباحث عنه في المغرب، وقد تحقق ذلك بشكل خاص عبر زيارات الشيخ محمد عبده إلى كل من تونس والجزائر أواخر القرن التاسع عشر، وقبيل وفاة الشيخ بقليل أوائل القرن العشرين.

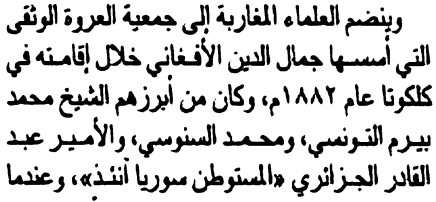
في تونس:

معروف أن المشارقة، في بلاد الشام والعراق ومصر كانوا قد بلغوا، قبيل حملة «بونابرت» النهاية الأخيرة من مسيرة تدهور طويل شامل ومتكامل لحق الفكر والمعرفة والدين والوجدان.. لكن هذا المشرق، وفي أواخر القرن التاسع عشر، ولا سيما بعد لقاء الأفغاني - عبده، عام ١٨٦٩م ظهرت فيه بدايات أو تباشير بدايات تضع هذا الجانب من المنطقة العربية على أعتاب مرحلة جديدة، هي مرحلة النهوض ومرحلة السقوط الاستعماري «الكولونيالي» في آن معًا(٢).

وربما كان المغرب معزولاً عن المشرق في أمور كثيرة، لكنه لم يكن كذلك في مضمار الثقافة والفكر والأدب، فما إن بدأت الثورة الإصلاحية تولد ردود فعلها في المشرق حتى أحس المغاربة بأنهم معنيون بذلك أيضًا؛ يكتب الشيخ محمد السنوسي، وهو الشخصية الفكرية والأدبية الأولى التي تمخضت عنها المدرسة الصادقية التي أسسها الوزير والمصلح والمفكر خير الدين التونسي، إلى الشيخ محمد عبده رسالة تشخص حال بلاده «تونس»، وتبدو هذه الرسالة كأنها منتزعة من سياق فكر الإمام ذاته:

«أمة فؤادها عليل، قد منيت أطوارها بالتبديل، وتلاشت منها القوى، وعظم بها الوجى، فأصبحت رهينة آلام، أوهنت منها قوة الاعتصام، تطرف حدقاتها إلى نبل العز القديم مستكفة نحو شاخط ما شخص من ذلك الأديم، لا تستطيع إليه نهوضًا، وقد رأت حبل اعتصامها به منقوضًا، فعز دواؤها، وأحاط بها أعداؤها»(٣).





عبد القادر الجزائري

وينضم العلماء المغاربة إلى جمعية العروة الوثقى التي أسسها جمال الدين الأفغاني خلال إقامته في كلكوتا عام ١٨٨٢م، وكان من أبرزهم الشيخ محمد بيرم التونسي، ومحمد السنوسي، والأمير عبد القادر الجزائري «المستوطن سوريا آنئذ»، وعندما صدرت مجلة العروة الوثقى في باريس عام ١٨٨٤م واستدعى الشيخ محمد عبده لرئاسة تحريرها «وقد كان منفيًا على إثر الثورة العرابية في بيروت» تم اللقاء المباشر له مع مغرب العرب ومحنه ومخاضاته، وما إن تتوقف الجريدة بعد صدور «١٨ عددًا فقط» حتى يزور الشيخ الإمام تونس في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٨٨٤م، ويقيم فيها نحو «٤٠ يومًا» يحاضر في الزيتونة، ويلتقي رجالات الإصلاح فيها من مدرسة خير الدين، ويتصل بأعضاء العروة الوثقى، وتترك أحاديثه واستنهاضاته تونس على حال مختلفة بعد خروجه منها، وقد بدا ذلك واضحًا في انفجار تلك الظاهرة الاحتجاجية المنبعثة من عمق العاصمة «تونس» والمتجهة إلى ضاحية «المرسى» حيث القصر الملكي لتقدم مطالبها، وتعلن احتجاجاتها على الإجراءات الفرنسية فيما يخص النظم البلدية الجديدة العابثة بتقاليد السكان ومعتقداتهم.

ومع أن هذه التظاهرة انعكست سلبًا على حياة قادة الوعي، أعضاء العروة الوثقى، إلا أنها كانت من طرف آخر، تعميقًا لتمثل روح الإصلاح الديني والاجتماعي البطيء الذي اعتمده الشيخ محمد عبده بعد توقف المجلة، وقد سرت هذه الروح في مقالات

الصحف التي أخذ تأثيرها يقوى في قيادة حركة المقاومة الشعبية للحضور الأجنبي وضبطها.

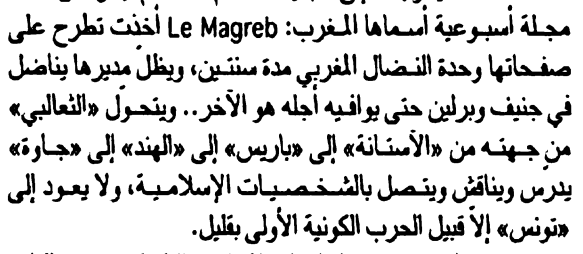
وعندما سنحت فرصة أخرى للشيخ لزيارة تونس في آب/ أغسطس ١٩٠٣م، وقف على هدير تيار الإصلاح، وهو يستجيب لمحاضراته وفتاواه الجريئة، وتظهر الحفاوة التي أحيط بها من رجال الخلدونية، ولا سيما جريدة «الحاضرة»، عظم هذا التيار الذي أخذ يستعيد عافيته، ويضرب جذوره في تربة الأصالة المتفتحة، وأبرزت هذه الزيارات شخصيات إصلاحية محلية لن تكون عابرة في حياة تونس والمنطقة كلها فيما بعد، كالشيخ سالم بوحاجب والطاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلي. ويستمر اللقاء من نبع الإصلاح المشرقي، وينتصر الإصلاحيون المغاربة لمدرسة محمد عبده، وينتقل بعض الرواد من مرحلة الأخذ إلى مرحلة المشاركة وإنتاج الوعي، وغدت مجلة «المنار» لمنشئها السيد الإمام محمد رشيد رضا وثيقة الاتصال بجزئيات ما يجري في تونس «الثعالبي، الطاهر بن عاشور، الخضر حسين»، ومع تنبه الإدارة الفرنسية لخطر تيار التنوير، وملاحقة أعمدته، فإن الهدير ظل يتعاظم، فمن محمد المنوسي الذي نفي إلى الشرق، إلى المكي بن عزوز إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي الشاب الذي جسد فكر محمد عبده، وعمل مع زملائه تلاميذ المدرسة الإصلاحية على اعتماد الصحافة وسيلة لإشاعة الفكر الوطني والتحريري بوسائل متخفية حيناً، وسافرة حيناً آخر، فكانت لهم «المستقبل التونسي» بالفرنسية و«حبيب الأمة» و«سبل الرشاد» بالعربية، وشارك الثعالبي بعض زملائه النابهين «علي كاهية، والشيخ محمد زروق، والهادي السبعي»(٤).


محمد عبده

وعندما أخذ الفرنسيون ينتقلون من مرحلة الاحتلال العسكري إلى مرحلة الاستعمار الاستيطاني لم يترددوا في زحزحة الثقافة الوطنية العربية، وزرع الفرنسية وتعهدها، مما أحدث شرخاً على صلابة الأصالة، في بنية الثقافة التونسية، أخذ يزداد خطراً، كلما تأكد للانتهازيين ولأبناء الفئات المنتفعة من الحضور الاستعماري، ترابط مصالحهم بإماتة العربية وتقوية الفرنسية معاً.

إزاء ذلك كله عبر التيار الإصلاحي عن مقاومته بالوسائل الثقافية، فكانت إسهامات «البشير صفر» الذي عدّ أبا النهضة الثاني بعد خير الدين، وإسهامات عبد العزيز الثعالبي وجرأتهما في الدفاع عن الشخصية العربية، مثار إعجاب من الجماهير، ومبعث غيظ للإدارة الفرنسية، وتحول الإصلاحيون إلى شكل آخر من أشكال المقاومة المنظمة، فكانت جمعية «تونس الفتاة» بزعامة، علي باش حامبة، والتي أسست تحت شعار ثقافي مستغلة الجو الديمقراطي النسبي الذي ادعاه الاشتراكيون. لكن هذه الجمعية الثقافية، سرعان ما نحت منحى سياسياً واضحاً جعل الإدارة العامة تنظر إليها على أنها عميلة لتركيا ومصر.

وفي عام ١٩٠٨م اتخذت الجمعية اسم الحزب «حزب تونس الفتاة» وصار لها جريدتها «التونسي» بالفرنسية، ومثيلتها بالعربية يديرها الشيخ «الثعالبي»، وازداد خطر الحزب على الفرنسيين عندما أخذ يدعو إلى توحيد المغرب العربي بوسائل الكفاح المسلح، وبالفعل انتقل الحزب إلى ممارسة شعاراته الجديدة في أثناء المقاومة الليبية للاحتلال الإيطالي عام ١٩١١م عندما قاد حملة التطوع، وجمع التبرعات، وسهل دخول النجدات العربية والتركية. وأتت حادثة مقبرة الجلاز(٥) التي أدت إلى الاصطدام مع الجالية الإيطالية، وراح ضحيتها عشرات القتلى، مما دفع الإدارة الفرنسية إلى إلغاء الحزب وبعثرة أعضائه الأقوياء بين الشرق والغرب وأبرزهم «الثعالبي» و«علي ومحمد باش حامبة» و«البشير صفر»، لكن أيا من هؤلاء المبعدين لم يتوقف عن النضال من الموقع الذي أتيح له، فعلي باش حامبة عمل، من الآستانة، مع زعماء العرب المبعدين إليها من أقطار متفرقة كالباروني الليبي ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش المصريين وشكيب أرسلان اللبناني السوري، ولم تسمح الظروف لـ«حامبة» أن يعود إلى تونس مرة أخرى، وقد كان يحضر لذلك، لتمكن مرض مفاجئ منه أدى إلى وفاته.. لكن أخاه «محمداً»، الذي كان محامياً، يتوجه إلى «جنيف» عام ١٩١٦م ليؤسس هناك مجلة أسبوعية أسماها المغرب: Le Magreb أخذت تطرح على صفحاتها وحدة النضال المغربي مدة سنتين، ويظل مديرها يناضل في جنيف وبرلين حتى يوافيه أجله هو الآخر.. ويتحول «الثعالبي» من جهته من «الآستانة» إلى «باريس» إلى «الهند» إلى «جاوة» يدرس ويناقش ويتصل بالشخصيات الإسلامية، ولا يعود إلى «تونس» إلا قبيل الحرب الكونية الأولى بقليل.



وفي الجزائر: تستمر المقاومات المسلحة البادئة مع عبد القادر الجزائري حتى أوائل القرن العشرين، ويستمر الفرنسيون في سلب الجزائر حقوقها وحيازاتها بالاغتصاب العسكري والتشريعات الإدارية معاً.

وللوهلة الأولى يخيل للباحث عن حياة الثقافة والفكر أن الأمور تسير بهذا المظهر الاجتماعي الحضاري إلى الموت المحتوم؛ ذلك لأن الإدارة المهيمنة على الحياة ما تزال تنفذ إرادة الجنرالات والمقيمين العسكريين، فالتعليم يكاد يقتصر على الجاليات الأوربية وحدها، والثقافة القومية يطارد حماتها ورموزها، وتحرم القوانين ممارستها، ومع ذلك ما إن تسنح المناسبات المؤاتية حتى تطمئن هذه الثقافة على حضورها ونبضها، ففي العام الذي زار فيه الشيخ محمد عبده تونس

مرة ثانية حل في «الجزائر»، ولقي فيها من يحتفي به ويسد عليه أبهاء المساجد في «قسنطينة» و«الجزائر» العاصمة، ويتأكد الشيخ بذلك أن العربية ماتزال تحيا في «الجزائر»، وأن ما يُطرح في مجلات الشرق ولا سيما «المنار» يذهب في الأرض الجزائرية ويستوعب.

وإذا كانت ظروف الجزائر، وقد كانت تختلف عن ظروف شقيقتيها «تونس والمغرب»، لا تسمح لردود فعل سريعة، فإن فكر مدرسة الإصلاح الشرقية سيكون له ممثلوه الأوفياء الأمناء والمضيفون إليه في ثلاثينيات القرن العشرين على يد الشيخ «عبد الحميد بن باديس» رئيس جمعية العلماء في الجزائر والشيخ «البشير الإبراهيمي» نائبه ورئيس الجمعية من بعده تلميذي «عبد القادر المجاوي» و«حمدان الونيسي» وبقي «عبد الحميد بن باديس» إحدى الشخصيات الممهدة لثورة تشرين الثاني/نوفمبر الجزائرية التحررية.

وفي المغرب الأقصى: حيث الموطن الأعرق للحركات الدينية، كانت الحركة السلفية الإصلاحية أمام خصم له هيمنته وتنظيماته، نعني به الطرقية «الزوايا» التي صارت قبيل الاستعمار الفرنسي إلى وظيفة تهديمية واضحة، عثر فيها الفرنسيون على فصيل نافع ينبغي تزكيته ويحسن تشجيعه، وكان على السلفية المراكشية الجديدة أن تتصدى لكثير من الأوهام والطقسيات الدخيلة كما فعلت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الشرق، فتصدت للتمسح بالقبور، وقطعت أشجار التبرك(٦). وللسلفية جذور واضحة قبل الاستعمار الفرنسي، فالسلطان «حسن الأول ١٢٩٠-١٣١١هـ» كان من مؤيدي الشيخ «عبد الله السنوسي» وحماته، وكانت المراسلات والعلاقات وطيدة بينه وبين أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الحجاز، وإذا كان الشيخ «محمد عبده» لم يزر المغرب الأقصى فإن اتصالاته بقيت مستمرة مع مثقفي السلطنة

كانت الطرقية المغربية قد استنفدت ثوريتها قبل دخول المنطقة دائرة النفوذ الأوربي وغدت في الغالب إرثاً سلبيّاً لم يتردد المستعمر في تعهده والنظر إليه بوصفه أحد أسلحته الناجعة في مقاومة الحركة الوطنية

وعلمائها، وإن فتاواه في مؤاكلة غير المسلمين وتقليد أزيائهم وغير ذلك مما عُرف بالفتوى الترانسفالية لقيت تأييداً من مثل الشيخ المهدي الوزاني، وكان الشيخ أبو شعيب الدكالي الذي زار الشرق واتصل بعلمائه قد حمل روح الحركة الإصلاحية، وبشر بها بعد عودته، ولقي من أنصار «الكتّانية والتيجانية» خاصة الأذية والإهانة، وحمى تيار السلفية الإصلاحية، وبلوره تلميذ الدكالي الشيخ محمد بن العربي العلوي الذي تثقف على يديه نخبةٌ من التلاميذ غدوا فيما بعد زعماء الحركة الوطنية في المغرب الأقصى، من أبرزهم الشيخ علال الفاسي والمختار السوسي وآخرون.

خلاصة اشتمالية:

وهكذا لا يحلّ الاستعمار الغربي الحديث في الشمال الإفريقي وهو منطقة ساكنة مستقبلة، على الرغم من ذلك الانحطاط الطويل المستوطن، وإنما جوبه هذا الاستعمار المقتحم بتيار الأصالة الذي انتقل بفعل الصدمة الأجنبية ذات الصفة التنبيهية، وبفعل حيوية التواصل مع ينابيعه المشرقية المتفجرة من موقع الإصلاح الديني إلى موقع المقاومة السياسية المتدرجة من الكلمات إلى المجابهة المادية بآلية الجهاد المرنة.

لقد أعلنت جمعية علماء المسلمين في الجزائر، على سبيل المثال، أنها ستقتصر على تطهير العقيدة من الأوهام والخرافات.. جاء ذلك في مسوغات التأسيس والتماس السماح بالعمل من الإدارة الفرنسية، لكنها «الجمعية» وجدت نفسها تدخل في المعارك السياسية، وهي تصطدم بسلوك إدارة الاستعمار التي تنفذ برنامج محو المشخصات القومية والوطنية والعقدية، وتمهد لحالة الدمج والاهتضام. وهكذا ينظر إلى جمعية علماء المسلمين برئاسة الشيخ ابن باديس على أنها المحرض الأساسي للثورة الجزائرية التحريرية في الجزائر.

المراجع والهوامش

١. سلمان إسماعيل، جدلية التحرير والمساومة، مسار الحركة الوطنية المغربية من ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢م، دار الوحدة للنشر والطباعة والتأليف دمشق، ١٩٨٧م.
وقد خصص الباب الثاني من الكتاب لثورة الريف بقيادة زعيمها محمد بن عبدالكريم الخطابي، ودرست تحت عنوان رئيس هو: من القبيلة إلى الأمة أو ثورة محمد بن عبدالكريم الخطابي.

٢. لوسجت فالتسي، المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠م.

٣. الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٣م.

٤. الطاهر بن عبدالله، الحركة الوطنية التونسية، ط٢، ١٩٧٨م.

٥. مقبرة «الجلاز» لها مكانة خاصة عند التونسيين لاحتوائها على جبل التوبة المعروف بجبل سيدي أبي الحسن ومغارة أبي الحسن الشاذلي الصوفي المشهور.
عندما قامت بلدية تونس في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١١م بمسح وتسجيل هذه المقبرة التي تدخل في ممتلكات الأحباس «الأوقاف» ثارت ثائرة المواطنين الذين نظروا إلى الإجراء على أنه إساءة للمشاعر الدينية. وقد اتخذت الجماهير من هذا الإجراء ذريعة للتجمهر والتعبير عن رفض الاحتلال، وكانت الحرب الطرابلسية على أشدها. وملامح احتلال المغرب بعد احتلال فاس واضحة، وجاءت حمالة الجالية الطليانية التي انتهزت الموقف وحدثت مواجهة الجماهير مع الأوربيين، ويتدخل الجيش الفرنسي، ويطن الحكم العرفي، وتتحمل الجماهير مسؤوليتها، وتعلن رفضها للمستعمر بإعلان تأييدها ومؤازرتها لنضال كل من ليبيا ومراكش.

٦. يشير علال الفاسي إلى عودة الشيخ أبي شعيب الدكالي من الشرق، وقد التف حوله الشباب التابع يوزعون الكتب التي يطبعها السلفيون بمصر، ويطوفون معه يقطعون أشجار البركة، ويكسرون الأحجار المعتقد بها.
الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، القاهرة، مطبعة الرسالة ١٩٤٨م ص١٥٣.



مستشفى التأمينات

INSURANCE HOSPITAL

برامج المبالغ الشاملة المحددة

الجراحة العامة وجراحة المناظير



- إستئصال الزائدة بالجراحة العادية أو بالمنظار
- إستئصال المراره بالجراحة العادية أو بالمنظار
- إصلاح الفتق بالجراحة العادية
- إستخراج المياه البيضاء وزرع العدسة

قسم الانف والاذن والحنجرة



- إستئصال اللوزتين للبالغين
- إستئصال اللوزتين للاطفال
- إستئصال اللوزتين واللحمية للاطفال
- تصليح الحاجز والأنف

قســم النســاء والولادة



- الولادة الطبيعية
- متابعة الحمل والولادة

التـأهـيل الـطـبـي



- لمدة يوم - لمدة أسبوعان
- لمدة ثلاثة أسابيع - لمدة شهر

الفحوصـات العـامة



- الفحص الشامل للرجال / للنساء
- برنامج الفحص الطبي لمرضى السكر
- برنامج الفحص الطبي لمرضى القلب
- الفحص العام للأطفال

المسـالك البـولـيـة



- أحدث جهاز لتفتيت الحصوات تحت إشراف استشاري المسالك البولية :-
  - بأستخدام نظام الموجات التصادمية
  - بدون تخدير - بدون مغطس ماء
  - بدون إقامة في المستشفى

هاتف ٤٣٢٠٠٠٠ فاكس ٤٩٣٥٤٢٣ الرياض حي الروابي

أعداد وتصميم إدارة التسويق والعلاقات العامة بمستشفى التأمينات

قصر مشيد.. وأطلال تاريخية عمرها ٧٧ سنة

زيارة إلى الأمس في (المويه القديمة) بين نجد والحجاز

حماد بن حامد السالمي
الطائف - السعودية

في قلب الصحراء بين الطائف والرياض، وفي منتصف المسافة بين نجد والحجاز، في ذلك المكان المتطامن بين جبيلات وحرار سود، تقوم بقايا أطلال قصر تاريخي ومستوطنة قديمة، هذه الأطلال، لها دلالات عميقة على حقبة تاريخية مهمة في تاريخ المملكة وجهاد الملك المؤسس عبدالعزيز رحمه الله. هنا في المويه القديم، كان الملك عبدالعزيز - رحمه الله - يقيم عدة أيام من كل عام في قصره الملكي الذي شهد لقاءات ومناسبات كثيرة بين سنة ١٣٤٣ و١٣٦٤هـ، ففي هذا المكان البعيد عن المدن وضجيجها، والمدينة ومظاهرها سواء في الحجاز أو نجد؛ كان الملك عبدالعزيز يستقبل وفود القبائل، ويجتمع بكبار الزوار والوفود من جميع أنحاء العالم، وكان يحكم دولة مترامية الأطراف من مركز صحراوي قائم على مورد ماء لبادية.



إلى متى الصمود في قلب الصحراء؟!

والصحراء والبادية تعنيان في حياة المؤسس الشيء الكثير، فهو الذي مشاهما ليلاً ونهاراً من الكويت إلى الصمّان إلى الرياض سنة ١٣١٩هـ، وهو الذي واصل سيره في مسيرة التأسيس والتوحيد حتى حفاهما بقدميه ولم تحفيا. هاهو ذا يقضي معظم وقته متنقلاً بين ربوع الصحراء، يفترش أديمها، ويلتحف سماءها الصافية. وفي محطاته هذه بين ربوعها يجتمع بأبناء شعبه، ويلتقي الساسة والخبراء والزعماء، ويتخذ من القرارات المصيرية أجسمها وأعظمها في تاريخ الأمم.

يقول خير الدين الزركلي(١): «في ٣ من ذي القعدة سنة ١٣٥٦هـ، الموافق ٤ يناير/كانون الثاني ١٩٣٨م كان الوزير البريطاني المفوض، بين يدي الملك في «المحدثة»(٢)، فشرح له الملك ما رأى أن الموقف في فلسطين قد وصل إليه، ومدى امتعاضه من موقف البريطانيين فيها، ومدى تأثير ذلك في مركز بريطانيا في العالمين العربي والإسلامي..» إلى



بقايا الجانب الجنوبي للقصر

آخر الحوار في هذا الشأن مع المفوض البريطاني(٣).

ومثل «المحدثة»، كان الحال في عشيرة والمويه وغيرهما من المحطات التي اتخذها الملك عبدالعزيز على الطرق والدروب في رحلاته وتنقلاته وسط بلاده الشاسعة، وبين أبناء شعبه.

وبالنظر إلى محطات كثيرة على طريق الطائف الرياض، فإن محطة المويه كانت لافتة لكثير من الاهتمام، بسبب القصر الذي أقيم بها، وما اشتمل عليه من مرافق ومن مظاهر عمرانية وهندسية فنية راقية. وبسبب النمو الذي تلا ذلك حتى أضحت المويه مدينة مصغرة في قلب الصحراء على طريق المسافرين بالسيارات فيما بعد حتى سنة ١٣٨٦هـ.

الرحلة شرقاً

رحلتي هذه إلى المويه تأتي بعد مرور نحو سبع وسبعين سنة على قيامها.. التوجه من الطائف شرقاً عبر طريق سريع حديث يعد من معالم النهضة السعودية في عصرها الحديث. فعلى بعد نحو عشرين كيلاً من الطائف توجد الحوية التي كانت مصيفاً يقيم به الملك عبدالعزيز رحمه الله، ويقيم به الملك سعود رحمه الله. وقد أصبحت اليوم مدينة كبيرة متصلة عمرانياً ومكانياً بالطائف. وبعد الحوية مباشرة يأتي المطار ثم العرفاء، وكلها مناطق مدنية وسكنية، وبعد العرفاء بقليل يأتي مفرق عشيرة إلى الشمال الغربي. وعلى بعد نحو ٥٠ كيلاً تقوم بلدة رضوان، وبها عمران وسكان، ثم بعدها تقوم العطيف، وبعدها يأتي مفرق أم الدوم ودغيبجة ومران ويأخذ من الطريق العام شمالاً. وعلى بعد نحو ٢٠٠ كيل من الطائف تقوم المويه الجديدة، وهي اليوم مدينة تنمو بسرعة كبيرة، وفيها مركز ومرافق كثيرة. وقد قامت المويه الجديدة في المحازة التي اشتهرت بالصيد فيما مضى، وذلك عام ١٣٨٦هـ بعد أن تحول الطريق من المويه القديم شرقاً إلى هذا الموقع. ومن هذا التاريخ تم الانتقال من المويه القديمة، وطويت صفحات من تاريخها المجيد.

إلى المويه القديمة

من المويه الجديدة نأخذ شمالاً، وبعد عدة كيلو مترات في طريق صحراوي متعب؛ غير معروف لكل الناس؛ نرى بوضوح جبلي هكران وكشب، وهكران الأقرب، وكشب الأبعد، وهما جبلان أسودان يقومان في وسط حرات سود لا يميزها سواهما.

في المويه

إذن.. هذه هي المويه، المويه القديمة.. بلدة أو قرية كانت ذات يوم، عامرة تزخر بالناس وبالحياة، هكذا تنطق بقايا آثار وأطلال هنا في طرف واد من شماله، قريباً من آبار صغيرة قليلة الماء، كانت مورداً للبادية، ومنهلاً للمارة من هذه البقعة التي ليس فيها من مظاهر الحياة اليوم، سوى شجيرات قليلة تصارع الجفاف، وتتمنع بشوكها على خشوم الإبل، ومنها نخيلات في زربة قريبة لأحد الملاك، وبعض الآبار القريبة من سطح الأرض الصبخة، وهنا جدران متهدمة وأسقف متهدلة، وقصر لم يبق منه إلا دوارس ورواسم من الماضي تردد مع الشاعر قوله(٤):

أتعرف من أسماء بالجدّ روسماً

محيلاً ونؤياً دارساً متهدماً؟

وقفت على هضبة مطلة على بلدة المويه التي أصبحت خربة، يتوسطها قصر كان مشيداً في عصر مجيد، فرددت قول الشاعر(٥):

هذي منازل أقوام عهدتهمو
يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكي عليهم ديار كان يطربها
ترنم المجد بين الجود والكرم

إن هذه البلدة الخربة كانت غير ذلك قبل سنة ١٣٨٦هـ، ففي هذا العام؛ هجرها الناس ورحلوا عنها جنوباً إلى المحازة «المويه الجديدة»، وبقيت الدور التي حلت ذات يوم محل الخدور قبل سبع وسبعين سنة شاهدة على منهل صحراوي تغلب على الظروف الطبيعية، فتحول إلى بلدة تحفل بكل جديد. قال الشاعر(٦):

أيها الربعُ الذي قد دثرا
كان عيناً ثم أضحى أثراً
أين سكانك ماذا فعلوا؟..
خبِّرنْ عنهم سُقيتَ المطرا
فلقد نادى منادي دارهم
رحلوا واستودعوني عبرا

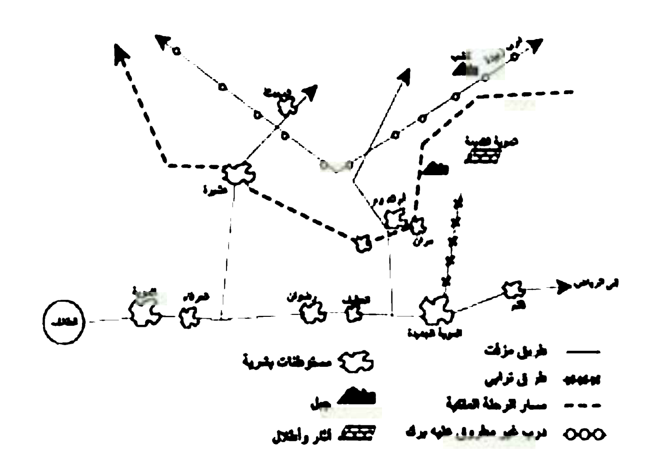
مويه .. لا ماء

والمويه في اللغة؛ تصغير ماء. وفي هذا دلالة على أن هذه البقعة كانت قليلة الماء. والعرب تطلق التسمية بالتصغير للاستضعاف والتحقير والتهوين. والمويه لم تعرف بهذا الاسم قبل سنة ١٣٤٣هـ. فلم يرد لها ذكر في كتب البلدان مثل موضع مُرّان على سبيل المثال. وما عرفت عند العرب منذ زمن بعيد إلا أنها من هكران. ويُنسب ماؤها إلى هذا الجبل فيقال: مويه هكران(٧).

متى برزت المويه؟

هذه البقعة الجرداء بين جبلي كُشب وهكران لم تكن معروفة قبل سنة ١٣٤٣هـ. وهي سنة الرحلة الشهيرة لعاهل الجزيرة من نجد إلى الحجاز، بمناسبة دخول جيوشه الطائف ومكة، وأداء جلالته فريضة الحج.

وحتى نقف على صحة هذا، نتتبع مع الشيخ يوسف ياسين رحمه الله، وكيل وزارة الخارجية، ورئيس تحرير جريدة أم القرى فيما بعد، خط سير هذه الرحلة التي قد تكون مرت بهذه البقعة، ولكنها لم تذكر المويه، وكانت رحلة الملك عبدالعزيز رحمه الله بريّة، على الجمال والخيل قبل السيارات، كانت تسير بمحاذاة درب زبيدة القديم، وذلك لوجود مناهل وبرك وآبار على هذا الدرب. وهذه الرحلة مهمة جداً، ليس في جوانبها السياسية والعسكرية والإنسانية



فحسب؛ ولكن في جوانب أخرى تاريخية وأدبية لم يمط اللثام عن كنهها كله حتى اليوم.

الرحلة الملكية

وهذا هو خط سير الرحلة من الرياض إلى مكة المكرمة، وقد أرخها الشيخ يوسف ياسين(٨). وكان مرافقاً لجلالة السلطان رحمهما الله، وبدأت يوم ٨ جمادى الأولى من سنة ١٣٤٣هـ:

- الرياض - الدرعية ٥ ساعات.
- الدرعية - الجبيلة ٥ ساعات.
- الجبيلة - الغزير ١٤ ساعة.
- الغزير - مرات ٩ ساعات و ١٥ دقيقة.
- مرات - خف ١٥ ساعة.
- خف - الشعراء ١٥ ساعة و ٣٠ دقيقة.
- الشعراء - المصلوم ١٥ ساعة.
- المصلوم - الحنابج ٩ ساعات و ٥ دقائق.
- الحنابج - سجا ١٣ ساعة و ٢٠ دقيقة.
- سجا - الدفينة ١٧ ساعة و ٥٠ دقيقة.
- الدفينة - قبا ٩ ساعات.
- قبا - مران ٧ ساعات.
- مران - عشيرة ٢٠ ساعة.
- عشيرة - السيل ٦ ساعات.
- السيل - مكة المكرمة ٨ ساعات.

ومجموع ساعات السير لهذه الرحلة ١٦٥ ساعة و ١٠ دقائق.

ورأينا أعلاه كيف انتقل الركب من «قبا» إلى «مران» دون ذكر للمويه. أما قبا؛ فهي: «منهل بقرب حرة كشب»(٩).

ونعرف أن حرة كشب هي مما يلي الموية من شمالها. وفي الطريق إلى مران؛ يذكر الشيخ يوسف ياسين درب زبيدة المار بحرة كشب، ويذكر البرك والآبار التي تقع عليه، وقال إنه «عن أيماننا»(١٠)، أي: درب زبيدة. وهذا دليل على أن الرحلة الملكية كانت تسير محاذية لدرب زبيدة، هذا أولا؛ وأنها كانت تسير بين موضع الموية وحرة كشب، ثم يذكر في الطريق إلى مران الحفيرة، ثم بعدها البادرية ووادي الحفا حتى مران. أما مران؛ فهي دون الموية غرباً مما يلي دغيبجة. ومما تقدم نستدل على حداثة الموية كبلدة في واد بين جبلي هكران وكشب، وأنها لم تبرز إلا بعد فتح طريق السيارات بين الطائف والرياض، ومن ثم عمرانها وتشييد قصر الملك عبدالعزيز بها. وسوف نرى ذلك لاحقًا.

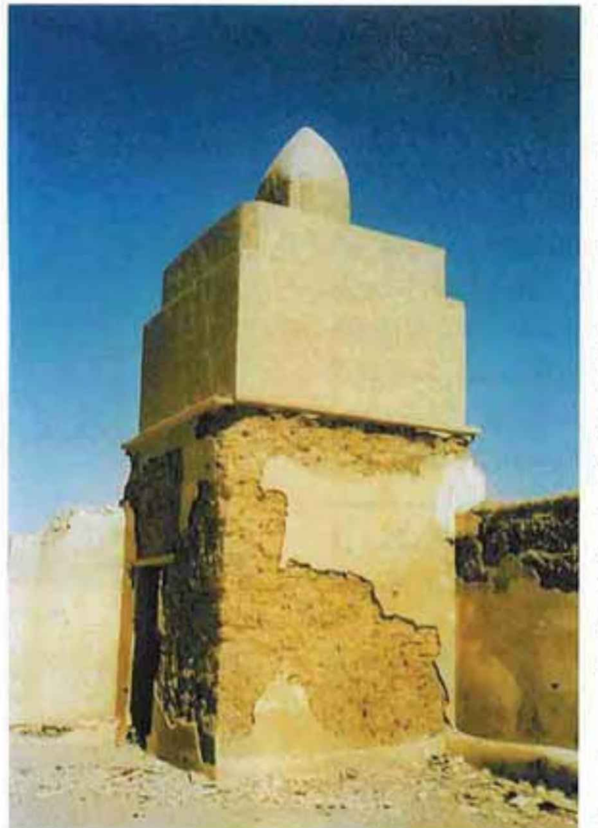
الموية بعد سنة ١٣٤٣هـ

أصبحت الموية بعد سنة ١٣٤٣هـ، سنة الرحلة الملكية إلى الحجاز، بلدة معروفة، بل قرية عامرة، فيها قصر ملكي، وفيها دكاكين ومقاه ومحطة للوقود، والأكثر من ذلك أنها تحولت إلى ملتقى سنوي بين الملك ورعيته من أبناء البادية ما بين نجد والحجاز، وكثرت المساكن والمباني حول قصر الملك، وبنيت أبراج للمراقبة والحراسة حول هذه القرية من جهاتها الأربع.

يقول البلادي(١١): «الموية بلدة قديمة في ديار عتيبة كانت على الطريق القديم للسيارات بين الطائف والرياض. تبعد عن الطائف ٢٣٠ كيلاً شرقًا. كان الاسم على اسم لمنهل ماء صغير في واديها. وفي العهد السعودي؛ أصبح له إمارة ومحكمة ومدارس للبنين والبنات». واشتهرت الموية عند المارين بها من النخب الأدبية والسياسية خاصة وأن الملك عبدالعزيز كان يمكث بها عدة أيام في ذهابه وإيابه من وإلى الحجاز قبل ركوبه الطائرة أول مرة من عفيف إلى الطائف سنة ١٣٦٤هـ.

ذكر الشيخ عبدالله بلخير في سياق حديثه عن رحلة برية من الطائف عام ١٩٤١م قال (١٢): «وصلنا إلى الدوادمي قرب الضحى، ولم يكن اجتياز النفوذ وقتئذ بالأمر الهين، وخاصة في سيارة (بوكس)؛ إذ غرزنا بها أكثر من عشرين مرة، فلم نصل الدوادمي إلا بشق الأنفس، وكان المراد أن نتزود بالوقود، ثم نوالي سيرنا إلى عفيف فالموية فالطائف».

وهذا وصف دقيق للمرحوم فؤاد شاكر، يذكر فيه مشاهداته في الموية، وكان هو ومجموعة من رجالات الحجاز صحبة سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز في طريقهم إلى الرياض سنة ١٣٦٠هـ. قال(١٣): «وصلنا إلى الموية وما أدراك ما الموية!؟ وصلنا إلى قرية صغيرة بما فيها من عشاش وبيوت من الشعر، ولكنها كبيرة بما فيها من مظاهر العمران الفخمة الوثيرة. وتلك حسنة من حسنات هذا العهد السعودي الزاهر المشرق، فقد بنت حكومة جلالة الملك في ذلك المكان النائي المجهول قصراً ملكياً فخماً لاستراحة حضرة صاحب الجلالة في أثناء تنقله في السفر بين مكة والرياض».



مئذنة المسجد - ما تبقى منه

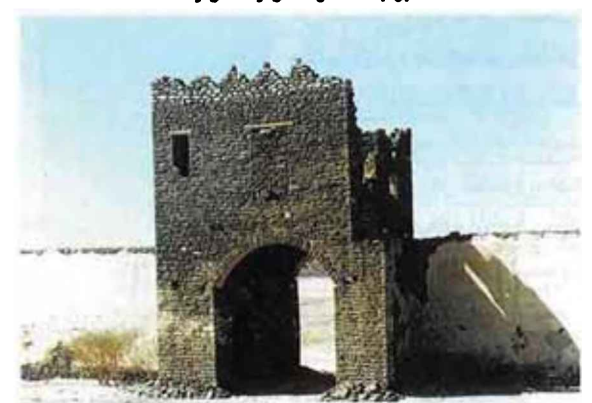
وشيدت إلى جانب ذلك القصر استراحة حكومية مؤلفة من قصر فسيح الجنبات، بسيط المظهر، ولكنه كبير النفع، عظيم الفائدة بالنسبة إلى ما اشتمل عليه من الغرف الفسيحة التي يتلقاها المسافر، أو هي تتلقى المسافر كشربة الماء للظمآن، أو كالواحة في الوادي المجدب المستمر، فالمسافر المقبل من بطن الصحراء يشوقه أن يلقى بعد نصب مثل ذلك البناء الفخم، يأوي إليه بعد جهد جهيد».

ومن أدلة نمو الموية وتطورها في أقل من عشرين عاماً؛ ما ذكره الرحالة الياباني إيجيرو ناكانو وهو في طريقه من الحجاز

إلى الرياض سنة ١٣٥٨هـ. حيث قال(١٤): «نزلنا عند المويه، وهي عبارة عن محطة خدمة للسيارات، وبقايا قلعة مضى على بنائها نحو ١٤ أو ١٥ سنة. وكان الملك عبدالعزيز يتوقف في هذا المكان للتزود بالوقود.. حين وصلنا إلى هذه المنطقة؛ وجدنا حوالي ستين شاحنة توقفت للتزود بالوقود، وكان الوقود قد وضع في حاوية ضخمة في ركن من أركان المحطة. ويعد هذا المكان محطة للذاهبين إلى مكة وجدة والمدينة، كما أنه محطة لسيارات البريد، وكذلك سيارات نقل البضائع.. وفي أيام الحج يقيم العسكر في هذا المكان».



بوابة القصر الشرقية - الرئيسة



بوابة القصر الغربية

وقوفا بها ... وحدي!

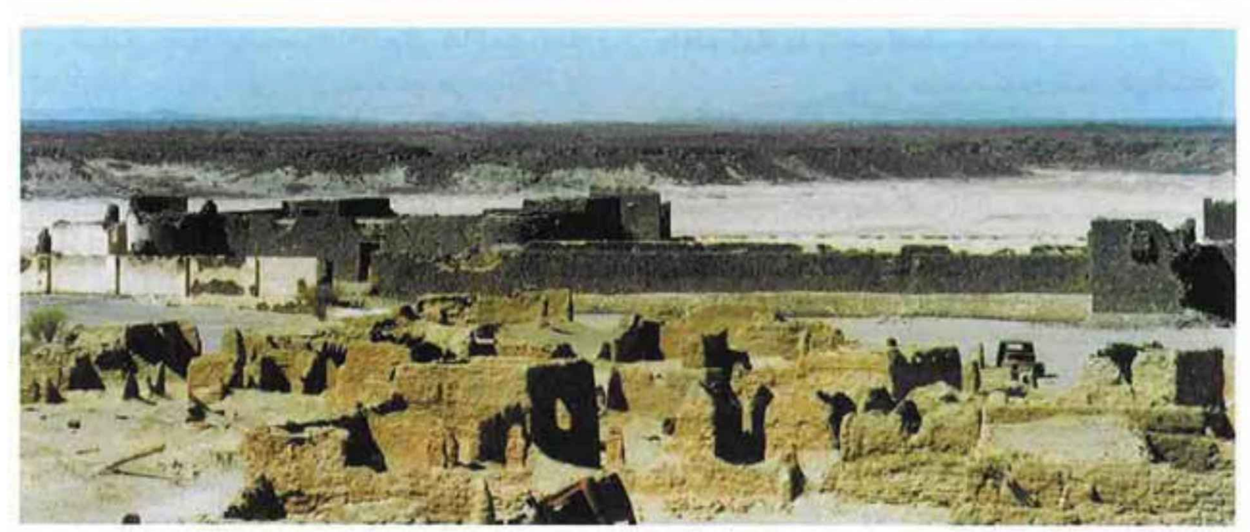
وقفت أتأمل بقايا آثار المويه. نظرت من جهة الشرق فإذا قصر الملك على شكل مستطيل ضلعاه الشرقي والغربي متساويان في حدود - ١٠٠م - طول كل ضلع. وضلعاه الشمالي والجنوبي شبه متساويين، طول كل منهما في حدود ٥٠ متراً. والمباني بالداخل. وفي كل ركن من أركانه تقوم قلعة مبسطة للمراقبة والحراسة. وفي قمة جبيل مرتفع من الجهة الشرقية، قلعة حراسة من دورين مبنية من الحجر الخالص. وفي طرف الجبل المقابل من الغرب هناك أخرى مماثلة لكنها متهدمة. وتأتي من شرق القصر وملاصقة له مبانٍ طينية كانت متاجر ومساكن ومقاهي. وفي طرف هذه المباني من شرقها، مسجد كبير جدرانه قائمة وكذا منذنته، أما سقفه فقد تهاوى وانكشف. وقريب من المسجد مقر محطة الوقود، ومكان المطار، ورسوم الطريق القديم غير المعبد الذي كان مخصصاً للسيارات. وفي طرف المباني الطينية من غربها مقر اللاسلكي والبرقيات، وبعض المراكز والإدارات الرسمية. وللقصر بوابتان كبيرتان، الأولى شرقية وهي الرسمية، وفي سقف مدخلها نقوش حجرية جميلة، ومنها إلى الداخل ممرات، كثير منها مسقوف، وتقود إلى مجالس الاستقبال والضيافة والمطبخ والسجن، وتفضي في النهاية إلى فناء كبير. ومن الجهة الغربية توجد بوابة أكبر من



سقف المدخل الشرقي منقوش بحجارة ملونة



ممر مسقوف داخل القصر



المويه القديمة، وقصر الملك عبدالعزيز المبني بالحجر

الأولى، ولها طراز جميل، وهي أيضاً تفضي إلى الفناء الواسع ذاته للقصر من غربيه، وهذه البوابة كانت لدخول الخاصة. والسور حول القصر يرتفع إلى قرابة ثلاثة أمتار. وفي الطرف الجنوبي من القصر مقر سكن الملك، وسكن خاصته، ومجلس استقبال فريد بنيت مقاعده من الحجر، وطليت بالجير والنورة، وبدت في أحسن صورة، وهي في حدود الخمسة عشر مقعداً في صف واحد يتوسطها مقعد أكبر مميز للملك، وأمامها ديوان كان مسقوفاً يجلس فيه مع الملك خاصته، وبقية المباني في هذه الجهة خصصت فيما بعد لسكن أمير المويه والقاضي، ومدرسة للبنين وأخرى للبنات.

وقصر المويه مبني من حجارة سوداء خالصة، أخذت وقصت من الحرات والجبيلات المجاورة على قلتها، مع استخدام النورة أحياناً. وبدا إنشاء القصر آية في الإتقان والجمال، خاصة ما تميز به من أقواس على الأبواب والنوافذ، وتوزيع البيوت بالداخل، ونقش سقوف المداخل والبوابات المهيأة لحراسة علوية.

أما اليوم فالقصر وما يحيط به من مبان كلها بقايا قرية كانت عامرة. والسقوف الخشبية نُكشت، والجدران أخذت تتهاوى، وتؤخذ حجارتها. والأدهى من هذا؛ أن لا طريق واضحاً جيداً يسهل معه الوصول إلى هذا الموقع الأثري المهم في تاريخ المملكة وتاريخ مسيرتها التأسيسية والتوحيدية.

هكران

إن قدر المويه القديمة أن تظل طللاً بين علمين مشهورين هما هكران وكشب؛ فجبل هكران يطل على المويه من الجنوب، وهو جبل أسود غير مرتفع كثيراً. قال عنه الشيخ عبدالله بن خميس(١٥): بأنه يمر به طريق حاج نجد القديم، وحوله برق تتصل به تسمى العفران جمع أعفر، وهو الأبيض. وهكران معروف قديماً وحديثاً في الشعر العربي. يقول محمد بن بليهد من قصيدة له(١٦):

يوم انصرم كنه على حزم هكران
حر إلى فوز له الرزق مضمون

ويأتي ذكر جبل هكران في شعر لعبد الله بن علي بن دويرج(١٧):

وعلى مويه هكران تجفل من الشجرة
مسيان قدم الشمس تأهل مغيبها

ويقول ناصر بن بندر؛ ولقبه عور المقرن حليف المراشدة الروقة(١٨):

في القيظ طوارق حمره
وعن خشم هكران العفر ما يروح
واليا حدر خشم الينوفي بمره
اليا قام براق الثريا يلوح

وذكر ياقوت في معجمه قال(١٩): هكْران جبل بحذاء مران. وقال الهجري(٢٠): هكران غدير وروضة شرقي كشب عن مران نحو مرحلة.

كشب..

كُشُب.. يرى بوضوح من المويه شمالاً وهو أعلى جبال عالية نجد بعد حضن، ولا يبعد كثيراً عن المويه. وفي وسطه وعبة، وهي حفرة بركانية عظيمة يصل قطرها إلى نحو أربعة أكيال، وعمقها ٢٥٠ متراً. قال عنه عبدالله بن خميس، ومحمد بن بليهد(٢١):

جبل أسود في عالية نجد يحمل هذا الاسم إلى هذا العهد، تحفه الطرق يمنة ويسرة، وطريق المنقى يقسمه نصفين، وهو الطريق الذي يمر على مران. فهذا الجبل العظيم يراه السالك طريق مكة من حين طلوعه على ماءة الدفينة. وهو يشرف على مران ودغيبجة والخوارة والحفر والمشرية وقباء والمويه.

ولهذا الجبل العظيم ذكر كثير في الشعر. من ذلك ما قاله بشامة بن عمرو(٢٢):

فـــمـــرت على كُــشُبٍ غُـــدوةً
وحـــاذت بجنب أريكٍ أصـــيـــلا

وقال العجاج(٢٣):

كـــأن من حـــرة ليلى ضـــربًا
أســود مـــثل كُــشُب أو كُـشُــبـــا

ومن الشعر النبطي قول الشاعرة نافعة المطيرية(٢٤):

ياراكب عـــمليـــة تقطع الخـــوف
عـــمليـــة والســر من تيــه الأحــرار
مسراحها من كشب مع حقة الشوف
والعصر يقهرها من القـور ويسار

وقالت صالحة العيسائية(٢٥):

يا مــرحــبــا يا اللي على بيــتنا مــر
رد الســـلام ولا مـــعي فـــيــــه حــيلة
يا مــرحــبـا عدد حـصـا كـشب وأكثـر
وعـــدد جــراد طاير من مـــقـــيــله
ياحلو زوله يوم لبس المشـــجـــر
ياطي بمصـبـوب القــدم في شليله

أمراء المويه وكبار مسؤوليها حتى سنة ١٣٨٦هـ

بعد ظهور المويه ونماء الحركة السكانية والتجارية بها تم تأسيس إمارة وجهات خدمية أخرى ظلت قائمة حتى سنة ١٣٨٦هـ. وهي السنة التي تحولت فيها الحياة من هذا الموقع إلى المحازة، وأطلق على الأخيرة المويه الجديدة. ومن أمراء المويه القديمة وكبار مسؤوليها في هذه الفترة(٢٦):

ـ الشيخ محمد بن نفيسة، أول أمير للمويه سنة ١٣٦٠هـ لفترة قصيرة، تولى بعده الشيخ سعد بن عبدالعزيز السالم رحمه الله، الذي ظل في إمارة المويه القديمة والجديدة مدة ثلاثين عامًا.

ـ المحكمة: تولى قضاءها أول الأمر معالي الشيخ ناصر بن حمد الراشد، رئيس ديوان المظالم حاليًا.

ـ البرقيات: أسست سنة ١٣٦١هـ، وكان يديرها أول الأمر محمد أبوسليمان، من أهالي مكة المكرمة.

ـ مدرسة المويه الابتدائية، أسست في أوائل السبعينيات الهجرية؛ وكان مديرها محمد أبوالسميح، يحمل شهادة الصف الرابع الابتدائي. ومن خريجي هذه المدرسة الدكتور محمد السالم مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (حاليًا)، والعميد سالم السالم وآخرون.

الهوامش والمراجع

١. شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز، ص١٠٧٩.
٢. المحدثة: بضم الميم وسكون الحاء وفتح الدال. منهل في وادي العقيق شمال منهل عشيرة. المحطة الأولى للخارج من مكة إلى نجد بنحو ٢٠ كيلا.
٣. المفوض البريطاني: هو السيد «ريدر بولارد» وزير بريطانيا المفوض بجدة.
٤. اللسان، مادة (رسم).
٥. المستطرف، ص٣٨٠.
٦. المصدر السابق، ص٣٨١.
٧. انظر معجم جبال الجزيرة، ج٥، ص٢٢٠. قال: «يوجد خلف هكران شماليه ماء يضاف إليه فيقال: مويه هكران».
٨. الرحلة الملكية، ص٨٢. والرحلات الملكية، ص٥١ وص٥٢. والشيخ يوسف ياسين كتب عن هذه الرحلة حلقات نشرها منجمة في جريدة أم القرى بين سنة ١٣١٣هـ و١٣١٦هـ.
٩. الرحلات الملكية، ص٤٣ هامش.
١٠. المصدر السابق، ص٤٤.
١١. معجم معالم الحجاز، مادة مويه.
١٢. كنت مع عبدالعزيز، ص٣٦٣.
١٣. رحلة الربيع، ص٤٦ وص٤٧. وتألف الوفد الملكي المصاحب لسمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز في هذه الرحلة من: «السيد صالح شطا النائب الثاني لرئيس مجلس الشورى، الشريف شرف رضا عضو مجلس الوكلاء، عبدالرؤوف الصبان عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف، الشيخ عبدالله الشيبي عضو مجلس الشورى والسادن الثاني لبيت الله الحرام، السيد عبدالوهاب نائب الحرم ومدير الأوقاف، الشيخ عباس قطان أمين العاصمة المقدسة، السيد عبيد مدني عضو مجلس الشورى، السيد علي فضل عضو مجلس الشورى، وكاتب الرحلة».
١٤. الرحلة اليابانية، ص٣٦.
١٥. معجم جبال الجزيرة، وصحيح الأخبار، مادة هكران.
١٦. المصدران السابقان، مادة هكران.
١٧. المصدران السابقان، مادة هكران.
١٨. المصدران السابقان، مادة هكران.
١٩. معجم البلدان، مادة هكران.
٢٠. المجاز بين اليمامة والحجاز، ومعجم جبال الجزيرة، مادة هكران.
٢١. معجم جبال الجزيرة، وصحيح الأخبار، ومعجم ما استعجم، مادة كشب.
٢٢. المصادر السابقة، مادة كشب.
٢٣. المصادر السابقة، مادة كشب.
٢٤. شاعرات من البادية، ص٣٦ و٣٧.
٢٥. المصدر السابق، ص٢٤٩.
٢٦. سليمان بن عبدالله السالم رئيس مركز المويه الجديدة الحالي.

ـ الرحلات الملكية، يوسف ياسين، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
ـ الرحلة الملكية، يوسف ياسين، المكتبة المكية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
ـ الرحلة اليابانية، إيجيرو ناكانو، ترجمة: سارة تاكاهاشي، دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
ـ رحلة الربيع، فؤاد شاكر، مطبوعات تهامة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
ـ شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن رداس، دار اليمامة، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ.
ـ شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
ـ صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، محمد بن عبدالله بن بليهد، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
ـ المجاز بين اليمامة والحجاز، عبدالله بن محمد بن خميس، دار اليمامة، ١٣٩٠هـ معجم جبال الجزيرة، عبدالله بن محمد بن خميس، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
ـ معجم معالم الحجاز، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار بيروت، ١٩٥٧م.
ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت.
ـ ملحمة عيد الرياض، بولس سلامة.
ـ المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيهي، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٧م.
ـ كنت مع عبدالعزيز. مجموعة دار مبين للنشر، ١٤١٥هـ.
ـ لسان العرب، ابن منظور الأفريقي.

طيور الفراعنة

أحمد كمال زكي
القاهرة - مصر

انبهر الفراعنة بالطيور، وتمنوا - بلا شك - أن يحاكوها في الطيران والارتفاع بشموخ في السماء حيث تسكن الآلهة العظيمة.. لكنهم عندما أخفقوا في تحقيق هذه الأمنية لجؤوا إلى عوالمهم الغريبة المدهشة، فتصوروا أن هذه الطيور - ولا سيما المتميزة منها - هي الصورة الأرضية للآلهة، أي إنها مجرد أجسام يحل فيها الإله بجبروته وعنفوانه؛ ليكون بين أتباعه المخلصين، يرعاهم ويحميهم..

وانطلاقًا من هذه الفكرة، قدّس المصريون القدماء بعض الطيور وعبدوها، وأقاموا لها المعابد ونحتوا لها التماثيل والتمائم وقدموا لها القرابين بسخاء، ولكن هذه المكانة الراقية لم يحظ بها سوى أربعة طيور فقط: الإوزة والعنقاء، وهما ارتبطا بأساطير بدء خلق العالم.. ثم الصقر الذي حظي بمكانة لم يحظ بها طائر أو إله آخر عند الفراعنة، وأخيراً يأتي أبو منجل المقدس، هذا الإله الذي يحمي الدولة من الثعابين والحيات المجنحة، ويصاحب ظهوره قدوم الفيضان.

أما الطيور الأخرى، فقد عوملت على أنها من «الصعاليك».. فطوردت، ونصبت لها الفخاخ لصيدها، إما للتمتع بريشها الجميل كالنعام، وإما للتمتع بلحمها الشهي. وهذه الأخيرة لم ينجُ منها حتى تلك الطيور المقدسة، فأنت ترى - مثلاً - أكثر من لوحة قديمة تصور عمليات صيد الإوز ورعايته تمهيداً لذبحه، ثم ترى بوضوح رجلاً يجلس مطمئناً وهو يمسك سفود الشيّ الذي وضعت به إوزة تشوى على النار، استعداداً لالتهام هذه الإلهة الجليلة، المعروفة في العقيدة المصرية القديمة باسم «الصائحة الكبرى».. تلك التي خرجت من البيضة الأزلية، فبدد نورها العبقري، دياجير الظلام السرمدي الذي كان جاثماً على أركان الدنيا، وأطلقت أول صيحة مزّقت الصمت الأزلي الذي خيّم فوق العالم في اللانهائية، والعدم، والظلام، واللاشكل!.

وقد اهتم الفراعنة بالحيوانات بشكل عام، وبالطيور بشكل خاص، وتخيلوا أن هذه الكائنات المدهشة، والمبدعة ببساطة عبقرية، أسمى مما هي عليه، ومن ثم بدؤوا في توقير بعض



تقديس الفراعنة للطيور يعود إلى أزمنة موغلة في القدم

الحيوانات وتقديسها، لكونها مجرد جسد يحل فيه الإله إذا ما أراد أن يهبط إلى الأرض بين عباده المخلصين. لم تحظ كل الحيوانات طبعاً بهذه المكانة الإلهية السامية، وإنما فازت بها الحيوانات المتميزة فقط.. المتميزة بشكلها، أو بأسلوب حياتها، أو بقوتها وشراستها التي تهدد حياة البشر، أو بذكائها وشموخها الذي لفت نظر المصري القديم، ولا شك أن الطيور استحوذت على اهتمام الفراعنة، فدخلت في الأبجدية الهيروغليفية، وزيّنت رسومها جدران المعابد والمقابر وأوراق البردي، ودخلت العقيدة المصرية

القديمة بعض الطيور التي حظيت باهتمام المصري القديم وإعجابه، حتى إن بداية خلق العالم، وظهور أول ضوء وانطلاق أول صوت في الكون، كلها تنسب إلى طائر قدسه المصريون، وعبدوه على مر السنين.

وتكفي نظرة سريعة إلى النقوش الهيروغليفية لنرى الكثير من الطيور واضحة المعالم، فقد كان قدماء المصريين كلما رسموا صورة مستنقع، رسموا مجموعة كبيرة من الطيور تطير فوق أعواد البردي، وبين جذوعها أعشاش بها طيور جاثمة، أو أفراخ طيور مذعورة، وقد كان المصري القديم يجيد رسم خصائص كل نوع في مهارة بالغة، ويوضح ريشها الزاهي الألوان، ولم تكن هذه الألوان من وحي خياله، ولكنها كانت مطابقة تماماً للواقع.



نقش على إحدى الجداريات لبعض طرق الصيد

وقد كانت العلامات المستعملة في اللغة المصرية القديمة تحتوي على أكثر من عشرين علامة تمثل الطيور، وهناك إفريز لأحد قبور الدولة الوسطى نقش عليه تسعة وعشرون نوعاً مختلفاً من الطيور المرسومة ببراعة مدهشة.

وفي هذه الفترة كان ينتشر كثير من الطيور التي نراها حتى الآن، وكذلك بعض الطيور التي انقرضت تماماً ولم يعد لها وجود إلا على جدران المعابد أو أوراق البردى، أو في المتاحف محنطة.

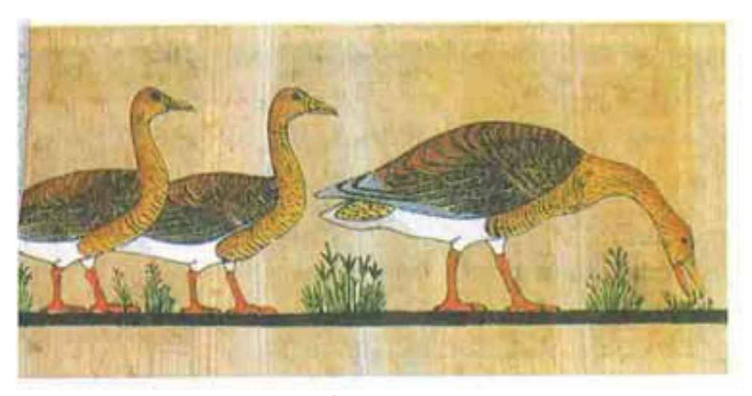
فقد كان المصري القديم يرى الصقر الملكي، الذي حظي بقداسة فائقة، يطير أمامه برشاقة وقوة باهرتين، وكذلك العقاب والحدأة، وفي الليل كان يرى البومة العادية، وبومة الأجران، كما كان ينتشر في هذا الوقت الغراب العادي، والغراب الأسحم، والهدهد والحمام، والخطاف، وفي زمن الشتاء الصفير وغيره من الطيور المهاجرة، وفي البرك والمستنقعات كان يرى القاوند، وأبو قردان، والنباح، وأبو ملعقة، والنكات، والدشنيق، وأنواع كثيرة من مالك الحزين منها: أبو شوشة، والعنقاء ذات الريش الأحمر الناري، وأنواع عدة من البط، والإوز، والطيور الأخرى ذات النسيج بين الأصابع، منها: الشرشير، والبجع، والغطاس، وغيرها.. وقد جرت عادة قدماء المصريين على أن يصوروا البط والإوز والحمام كثيراً، فصوروها معلقة وهي مربوطة في حزم، أو مشوية، وصوروا بعضها الآخر مأخوذاً من الشبكة وهو مضطرب مذهول، وقد ربطت أجنحته، أو وضع في قفص.

الصيد

وقد كان المصريون القدماء الأوائل بارعين في الصيد، وهذا ما تدل عليه الرسوم المنقوشة على الصخور.. أما في عصور الفراعنة البالغي الحضارة، فقد استمر المصريون في صيد الحيوانات، ليس بقصد التسلية، ولكن دفاعاً عن أنفسهم ضد الأسد، وفرس النهر، أو كوسيلة للحصول على أدوات يتحلون بها كريش النعام، أو للحصول على ما ينوعون به طعامهم.

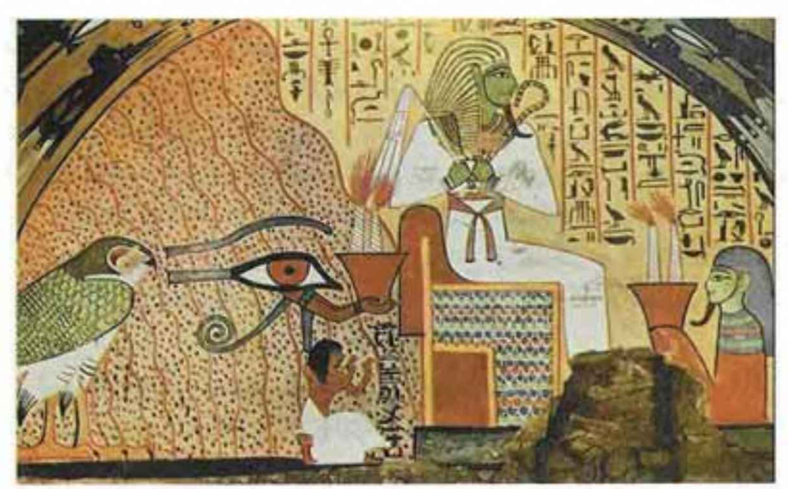
وكان كل فرد يتمتع بصيد السمك يصيد بطة من أمام باب كوخه، إلى الحاكم الذي «يطعم ذئاب الصحراء، وجميع الطيور الجارحة مما يصيد».

وتوضح المناظر المنقوشة على جدران المقابر، والتي تمثل الصيد في المناقع، الرجال وقد تجردوا من ملابسهم، واستخدموا القط العادي، وقط الزباد للصيد في الأحراش، فيرتفع البط ذعراً،



لوحة «الإوزات الست» الشهيرة.. وهي منقوشـ

ويصبح هدفًا لعصيهم المعقوفة، المعروفة باسم «البومرانج».. كما كانوا يصيدون بالشباك، عن طريق نصب الشباك المزدوجة بقرب الشاطئ، ويمسكون طرفها بحبل طويل، ويجلس شخص لمراقبة طيور الصيد، ممسكًا بقطعة طويلة من القماش في يديه، بينما يختبئ أربعة أو خمسة من زملائه على مسافة منه، وهم يراقبون قطعة القماش في سكون، فإذا ما طار إلى الشبكة عدد من البط، ورفرف بأجنحته، لوح المراقب بقطعة القماش، وعندئذ يشد زملاؤه الحبل، فتطبق الشبكة على الصيد.



الصقر طائر مقدس يحمي الفرعون

الطيور المقدسة

احتلت بعض الطيور مكانة عظيمة من القدسية عند المصري القديم، وأهم هذه الطيور: الصقر، والعنقاء، وأبو منجل المقدس، والإوزة.

وهذه الطيور الأربعة ارتبطت بأساطير بدء الخلق عند المصريين القدماء، وبمرور السنين ترسخت قدسية هذه الطيور، وأقيمت لها المعابد، والتماثيل، وانتشرت رسومها على جدران المعابد، والمقابر، وصنعت على هيئتها التمائم الحامية.

وقد حدث كل هذا في إطار عبادة المصريين القدماء للحيوانات، تلك التي عدّوها رموزًا لآبائهم قبل سنة ٣٠٠٠ق.م، ثم تطور الأمر فعدوا هذه الحيوانات أكثر من مجرد شعارات أو رموز، فقد رأوا أن هذه المخلوقات جديرة بالعناية والعبادة؛ لأنها تحوي شيئًا إلهيًا في نفسها، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسد نفسه للبشر، فإنه يختار حيوانًا ترمز بعض صفاته إلى صفات هذا الإله.. وكثيرًا ما اختار المصري القديم بعض الحيوانات المفزعة مثل التمساح والثعبان، كما اختار - أحيانًا - بعض الحيوانات



ى جدران مقبرة «نفرمعات» في ميدوم

النافعة، مثل التيس، والثور، والبقرة، وكثيرًا ما اختار أنواعًا أخرى من الحيوانات شغلت تفكير الرجل الساذج بحركاتها وأعمالها العجيبة، مثل ابن آوى الذي يتسلل ليلاً من الصحراء متجهًا نحو الأماكن التي اختارها المصري لدفن موتاه.

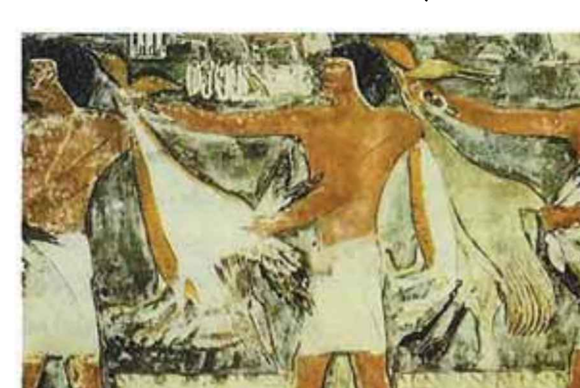
وعلى الرغم من تقديس المصريين لهذه الحيوانات، إلا أنه كان من المعروف أن الإله لا يكون مجسدًا في كل صقر، أو بقرة، أو تمساح، ومع كل الاحترام الذي يحيط به المتعبد تلك الحيوانات، فإنه يمكن أن يأتي يوم يذبح فيه البقرة أو يقتل التمساح، أو يصطاد صقرًا، ولا يرى في هذا عملاً إجراميًا، وفي بعض الأحيان كانت تحتفظ مدينة ما بنموذج واحد من هذه الحيوانات، كممثل للإله، معتقدة أن جزءًا من الشخصية الإلهية تسكن فيه بصفة مستمرة.. ولكن كان الاعتناء بالأرض المخصصة لدفن الحيوانات من كل نوع: المقدسة، والمدللة، والمشردة.. واجبًا يفخر به كل مصري، فيقول: «أعطيت خبزًا للجائع، وماءً للظمآن، وثيابًا لمن ليس لديه ثياب، واعتنيت بأبي قردان، والصقور، والقطط، والكلاب المقدسة، ودفنتها تبعًا لما تقضي به الطقوس الدينية، فدهنتها بالزيت، ولففتها في أكفان من الكتان المنسوج».

وقد واجهت المصري القديم مشكلة، تغلب عليها ببراعة مذهلة.. إذ إن الإله يحب ويكره، ويحمي ويعاقب، ويعطي ويأخذ؛ لذلك كان من الواجب أن يظهر على هيئة آدمي؛ لأن هذه الصفات لا يمكن أن تنطبق على تمساح أو كبش أو صقر، ولكن في الوقت نفسه كان هناك ما يلزم على إبقاء التقليد القديم ذي المظهر الحيواني.. فاختاروا الوسط بين الحالتين، ومن ثم أعطوا للإله جسدًا آدميًا حتى يستطيع التقبيل والإعطاء والحماية، واحتفظوا له برأس الحيوان، باستثناء «حورس» و«خنوم» اللذين

بقيا على هيئتي الصقر والكبش، ولكنهما مع ذلك استطاعا أن يقوما بكل الأعمال الآدمية إشباعاً لرغبة المؤمنين بهما. وقد برع المصريون القدماء في ذلك الدمج إلى حد أذهل الدارسين للديانة المصرية القديمة، حتى إن «أدولف إرمان» قال في كتابه «ديانة مصر القديمة»: «إنه من العجب حقًا بأية مهارة استطاع المصريون أن يوجدوا هذا المزج بين الإنسان والحيوان إلى حد لا نرى نحن فيه أي تناقض!».

جذور قديمة

تعود جذور تقديس المصريين القدماء للطيور إلى سنوات موغلة في القدم، ففي مطلع التاريخ لم يكن الإله الأعلى عند المصريين سوى صقر يمثل جاثمًا على مبنى، أو خارجًا من المياه الأزلية، وكانت عينه اليمنى هي الشمس، وعينه اليسرى هي القمر، وهناك أسطورة عين الإله الأعلى، التي بعث بها في المياه قبل بدء العالم، وهو تمثيل بدائي للرحلة الليلية التي تقوم بها الشمس عبر مياه العالم السفلي، التي تعد جزءاً من اللجة الأبدية، ولما كان المصريون قد تخيلوا الإله الأعلى في هيئته الأولى في صورة صقر عملاق، فتلك العين تمثل بعين صقر، وتحميها روح المياه السرمدية في رحلتها الخطيرة في جوف الظلام.



تقديس الفراعنة للطيور لم يمنعهم من صيدها وأكلها

وقد كوّن المصريون القدماء فكرتين عن أصل الحياة، تزعم الأولى أنها انبثقت في الإله من المياه الأزلية، أما الأخرى فتقول: إن الجوهر الفعال «حكا» جاء من مصدر سحري بعيد هو «جزيرة اللهب» التي تقع خلف أطراف الدنيا حيث يسود الليل السرمدي، وفيها ولدت الآلهة جميعاً، أو عادت إلى الحياة، وكان طائر العنقاء هو الرسول الرئيس لتلك الأرض المقدسة التي يتعذر الوصول إليها.

ومع تعدد أساطير بدء الخلق عند قدماء المصريين بشكل كبير جداً، إلا أنك ستجد الطيور دائمًا موجودة كإرهاصات أولى لظهور النور الذي بدد الظلام المخيم على الكون، فقد قالوا: إن الأرض ظهرت أول ما ظهرت كتلٌ خرج من الماء، أو المحيط الأزلي، أو ذلك الخضم القديم الذي أطلقوا عليه اسم «نون».. وكان هذا المكان بمنزلة بدء العالم، فهو التل الموغل في القدم، أو كما قالوا: «التل المزدهر الذي ظهر في أول العصور». وفوق هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة، فقد كان هناك بيضة طائر مائي، هذه البيضة الأزلية خرجت منها إوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار واضح، فهي الشمس التي طارت صائحة فوق سطح الماء، فكان ذلك بمنزلة الضوء الأول الذي أضاء الظلام الدامس، والصوت الأول الذي انطلق في ذلك الصمت الأزلي الذي خيم فوق العالم.. ومن أساطير الخلق أيضاً - وهي كثيرة جداً - أن البيضة الأزلية قد خلقت قبل انبلاج النور، فلم تكن مرئية، وأن طائر النور خرج منها؛ لأن البيضة تكونت في وقت سابق للخليقة.. وهناك رواية أخرى للأسطورة تزعم أن إوزة وضعت البيضة، وهذه الإوزة، أو الروح الأزلي، تُعرف باسم «الصائحة الكبرى».. وقد شق صوتها الصمت المخيم «حينما كان السكون ما يزال يلف العالم».

ويبدأ الفصل ٦٠٠ من نصوص الأهرام بمناجاة للإله الأعلى يقول: «أي آتوم، عندما جئت إلى الوجود، خرجت في صورة تلٍ عالٍ، وأشرقت في هيئة حجر البن بن* في معبد العنقاء في هليوبوليس»..

فعند أهل هليوبوليس - عين شمس حاليا - كان الصباح يبدأ عندما يرون شعاعاً من النور يخرج من عمود منتصب، أو من هُريم قائم على ركيزة، أُعدَّ بشكل يسمح له بأن يعكس أشعة الشمس عند شروقها، وكانت العنقاء (طائر النور) قد هبطت على ركيزة مقدسة تعرف باسم «بنْ بن» وذلك عند بدء الخليقة، مستهلة العصر العظيم للإله المرئي، ولم يكن صعود التل، وظهور العنقاء حدثين متتاليين، بل كانا متوازيين يمثلان مظهرين للحظة الخلق العظمى.

وهكذا نرى النظرة الموقرة من المصري القديم، لبعض الطيور التي ارتبطت لديه بأسطورة بدء الخلق، وفي أسطورة إيزيس

وأوزوريس الشهيرة، نقرأ أنشودة من الدولة الحديثة تقول: «إن إيزيس الماهرة، التي صانت أخاها وبحثت عنه، ولم تدخر وسعاً حتى وجدته، قد ظللته بريشها، ومنحته الهواء بجناحيها، وصاحت من فرط سعادتها، وعادت بأخيها إلى الوطن».

وكما يبدو من الأنشودة فإن إيزيس تقمصت هيئة طائر؛ لتعثر على حبيبها أوزوريس، الذي كان قد اغتاله شقيقه «ست» إله الشر، وألقى أشلاءه في أماكن متفرقة من البلاد.

ولم يقتصر حضور الطيور المذهل في العقيدة المصرية القديمة على هذا القدر، ولكنه امتد إلى كثير من مناحي الحياة، والموت أيضاً.. فالمصريون القدماء اعتقدوا أن روح الميت تأتي على شكل طائر ينزل إلى غرفة دفن الميت بالمقبرة، ليتحد مع الجسم الراقد هناك، وتوجد في كتاب «الموتى» مناظر كثيرة تمثل هذا الاعتقاد القديم، حيث كانت تمثل الروح على هيئة طائر يجثم فوق الجثة.

وفي متون الأهرام ورد وصف لرحلة روح الفرعون الميت - أو غيره من الشخصيات النبيلة - إلى السماء بجوار الآلهة العظام، وذلك بألفاظ حادة وموحية:

«إنه يغدو إلى السماء كالصقور، وريشه كريش الإوز، إنه يندفع إلى السماء كالكركي، ويقبّل السماء كالصقر، ويقفز إلى السماء كالجرادة، وهكذا يطير من بينكم أيها الناس، إنه لم يعد على الأرض، إنه في السماء إلى جانب إخوته الآلهة».. ولا ينتهي الأمر إلى هنا، فلا تلبث إلهة السماء أن تمدّ إلى الفرعون الميت يدها قائلة: «أي رع، إنه عندما يصعد نحو السماء إليك برأس صقر، وجناحي إوزة، فإنه يحرك الذراعين كالإوزة، ويضرب بجناحيه كالطائر».



استطاع الفراعنة المزج بين صورة الإنسان والحيوان بمهارة فائقة

وكما لم ينس المصري القديم يوماً تقديسه وإجلاله لآلهته التي تعينه على تسيير أموره الحياتية، كذلك ظل على ولائه وتوقيره لممثلي هذه الآلهة من الطيور والحيوانات، وظلت نظرته للإوزة على أنها «الصائحة الكبرى» التي أشرقت بنورها الفذ على الكون بعد أن خرجت من البيضة الأزلية، والصقر هو الإله الأعلى الذي يعينه على تحقيق النصر على أعدائه، والعنقاء هي طائر النور.. «هذا الذي بظهوره يتحقق كل شيء جميل».. وظل أبو منجل المقدس على صورته الباهرة، يصاحب ظهوره البهي الفيضان المدهش الذي يغمر الأرض بالمياه، ولا تبقى بعيدة عن المياه سوى البيوت والتلال، فيعيد هذا المشهد إلى ذهن المصري القديم أسطورة بدء الخلق من جديد.

الطيور الإلهية

إذا كان المصريون القدماء قد اهتموا بالطيور جميعاً - بدرجات متفاوتة - فإن أربعة طيور فقط - كما سبق وذكرت - هي التي حظيت بمكانة شديدة القداسة، وعبدت في أنحاء متفرقة من البلاد، ويمكننا أن نسميها «الطيور الإلهية» فقد قدسها الشعب على مدار السنين، وأقيمت لها المعابد، ونحرت لها الذبائح، وانتشرت رسومها على جدران المقابر والمعابد، وحفظت تماثيلها كتمائم، واستقرت بجلال وخيلاء في عقيدة كل مصري ومصرية.

وفي السطور القادمة نتناول كل واحد من هذه الطيور ببعض التفصيل، محاولين وضع أيدينا على سر تقديس المصريين لهذه الطيور بالذات، مع إلقاء نظرة من قرب على أهم صفاتها، وسنبدأ بطائرين ارتبطا دائماً بأساطير بدء خلق العالم هما: الإوزة، والعنقاء.. ولعل القارئ لا يعجب إذا ما رأى أن كلا من الطائرين تطلق عليهما صفة واحدة، أو فعل واحد، هو إطلاق أول صيحة تشق جدار الصمت السرمدي الذي خيم قبل خلق العالم، وإشراق أول ضوء يبدد الظلام السرمدي الذي كان منتشراً وقتها، فهذا طبيعي ومنطقي في ظل تعدد أساطير بدء الخلق بشكل مذهل، فكل إقليم قوي كانت له أساطيره الخاصة وآلهته الخاصة أيضاً، التي قد تتفق أو تختلف مع سائر الأقاليم، ولكنها في النهاية تنبع من أسطورة عظيمة واحدة.. هي المصري القديم نفسه!

الإوزة: الصائحة الكبرى

مع أن حضور الإوزة لم يكن طاغياً في العقيدة المصرية القديمة، كما هو الحال مع العنقاء أو الصقر مثلاً، إلا أنها كانت تحتفظ بجلالها وسطوتها لأنها «الصائحة الكبرى» التي خرجت من البيضة الأزلية، فغمر النور الكون، ثم صاحت بعد ذلك فكان أول صوت يمزق أستار الصمت الرهيب الجاثم فوق أركان الأرض، وإذا تركنا الأساطير الفرعونية قليلاً، واقتربنا من الإوز

أحمد كمال زكي

المصري ـ الموجود في بيوت الفلاحين حتى الآن ـ نجد أنه طائر من أوابد الطيور المصرية التي تمتد مواطنها الطبيعية إلى فلسطين وسورية، والإوز يحسن المشي، ويتقن السباحة والغوص والطيران، وهو طائر حذر، يطلق ذكره صيحات تحذير عند اقتراب الخطر، ومن أجل ذلك استخدمه العرب للحراسة، فكانوا يضعونه إذا ما هبط الليل داخل أقفاص في حجرة يلحقونها بغرف الخزائن والودائع، فإذا اقترب منها غريب علا صوت الإوز بالصياح.

والإوز المصري: قزحيته برتقالية أو قرمزية، والمنقار والقدم لونهما أحمر، أما الرأس والعنق والذيل فأقرب إلى السواد، والأجزاء العلوية رمادية وعليها خطوط متعرجة والأجزاء السفلية بيضاء اللون، وعلى الصدر بقعة كستنائية.

وقد اهتم المصري القديم برسم الإوزة بصورة فيها الكثير من الشموخ والعنفوان، لإبراز إجلالهم للإوزة الأزلية، ومن أجمل الصور الفريدة التي خلفها لنا الفراعنة، تلك اللوحة الملونة الرائعة التي تصور قطيعاً من الإوز ـ ست إوزات ـ والمنقوشة على جدران مقبرة «نفرمعات» في ميدوم ـ إحدى قرى محافظة بني سويف ـ وهذه اللوحة المدهشة تعدّ من أقدم لوحات العالم الفنية؛ إذ يرجع تاريخها إلى عام ٤٤٠٠ ق.م، وهي محفوظة في المتحف المصري بالقاهرة، وتعدّ من أكثر النقوش الأثرية انتشاراً بالخارج، وقد طبعت وصورت آلاف المرات.



الملك «سيتي» بين «حورس» و«أوزوريس».. لاحظ النسر في أعلى النقش

«حورس» بن «إيزيس» مع «نفرتاري».. و«حورس» هو الأكثر شهرة من بين آلهة كثيرة صورت على شكل صقر

العنقاء: طائر النور

حظي هذا الطائر بمكانة شديدة الخصوصية لدى قدماء المصريين، ونسج حوله كثير من الأساطير، وكان طائر العنقاء الذي عرفه الفراعنة باسم «البنو» واحداً من الأشكال الأزلية للإله الأعلى، وعليك أن تتصور حاملاً يبرز من مياه اللجة، وعليه يستقر طائر رمادي من طيور البلشون؛ ليبشر بمجيء كل ما سيقدر له الوجود، فيفتح منقاره ليكسر الصمت المخيم على الليل الأزلي، ويطلق صيحة الحياة والقدر التي تحدد ما يكون وما لا يكون.

والبلشون طائر قزحيته صفراء، ومنقاره وقدمه لونهما بني «واللون الغالب فيه هو الرمادي أو السنجابي، وعلى مؤخر الرأس ريشتان كبيرتان.

ولنا أن نتخيل المشهد التالي لنعرف ـ إلى حد ما ـ كيف رفع المصريون القدماء هذا الطائر إلى مرتبة التقديس والعبادة: مياه الفيضان تغمر الوادي أول مرة، فلا تترك سوى القرى والمرتفعات بينما يقف المصري القديم مشدوهاً، وفي مخيلته أسطورة بدء الخلق، حيث برزت الأرض من المحيط الأزلي «نون».. في هذه الأثناء يشاهد طائر جميل يخوض في الماء أحياناً، ويجثم على الآكام في أحيان أخرى، إنه بحق ملك العالم المائي.. إنه مالك الحزين، ذو المنقار الطويل المستقيم والذي تزين رأسه ريشتان تمتدان إلى الخلف ببهاء.

وعند الفجر الوردي، يقفز من الماء، كما فعلت الشمس عند الصباح الأول.. وهكذا ربط المصري القديم بين هذا الطائر المدهش، وإله الشمس، ولاسيما العنقاء ذات الريش الأحمر الناري، والتي لا تظهر كثيراً.. ففي هليوبوليس، كان هذا الطائر إذا ما جثم على شجرة الصفصاف المقدسة، دل هذا على الفرح والأمل، وأصبحت عبارة: «عادت العنقاء» من العبارات المفعمة بالتفاؤل والسعادة، وكل طفل يولد في ذلك اليوم يحتفظ في اسمه بذكرى تلك اللحظة المدهشة.

أما في الصباح، فتظهر العنقاء وهي تتألق في مجدها، أشبه بالشمس الفنية التي هي صورتها، وهي كالشمس ـ طبقاً للأساطير القديمة ـ لأنها خلقت نفسها وسط المياه الأولى لخلق العالم، وكالشمس أيضاً في كونها تحكم على دورات من ثلاثين سنة، وأعياد إعادة الشباب؛ فقد كان المصريون القدماء يعتقدون أن الزمن يتألف من دورات متكررة حددها الإله، فاليوم أو الأسبوع الذي يتكون من عشرة أيام، أو الشهر أو السنة، أو حتى الفترات

الأطول، كل هذا متوقف على دورات الشمس والقمر والنجوم والفيضان.. بمعنى أنه عندما أطلق طائر العنقاء صيحته الأولى، بدأت كل هذه الدورات، مما جعله ربًا لكل التقسيمات الزمنية، وبذلك صار معبده في هليوبوليس مركزًا لتحديد النظام التقويمي، لما كان المصريون يرون فيه المبشر بقيام كل نظام جديد، فقد بات يبعث التفاؤل في نفوسهم لأنه بشير بالأنباء الطيبة.. كذلك فقد عُدّ هذا الإله من أهم الأشياء التي تتمم المعبد في هليوبوليس واعتبر العلماء الكهنة أنه هو «أوزوريس»، أو هو روح الإله «رع».. وتشير التعويذة ٧٥ من نصوص الأهرام إلى خروج «نفس الحياة» من حنجرة العنقاء، وذلك في إطار الحديث عن ميلاد «شو» إله الفراغ، حيث يتحدث عن نفسه بألفاظ منتقاة وعميقة، إذ يقول:

«أنا شو الذي خلقه «أتوم» في اليوم الذي ظهر فيه
لم يصورني في رحم أو يشكلني في بيضة،
ولم أولد من أي نوع من أنواع الحمل،
لكن أبي آتوم بصقني مع لعاب فمه،
أنا وأختي تفنوت،
وقد خرجت من بعدي، حينما تسربلت بنفس الحياة
الذي خرج من حنجرة العنقاء،
في اليوم الذي تجلى فيه آتوم
في اللانهائية والعدم والظلام واللاشكل».

وربما اكتسب هذا الطائر الإلهي صفاته العظيمة، وقدسيته الشديدة؛ لأنه لا يظهر كثيراً - خاصة هذا الذي يتألق بريشه الأحمر الذهبي - فقد كان يلقب بـ «سيد الأعياد الفضية» أي رب الحقب الطويلة من الزمن، فقد كان هذا الطائر الباهر من بين الأشياء التي يتعذر على الناس رؤيتها في المعبد، ولعل ذلك ما يفسر الاعتقاد عند الإغريق القدماء بأنه لا يعود إلا بعد مدة طويلة من الزمن كما يقول «هيرودوت» في إطار حديثه عن طائر العنقاء: يوجد طائر يدعى العنقاء، لم أشاهده أبداً إلا في الصور؛ نظراً لندرته الشديدة، وهو لا يظهر كما يقول أهل هليوبوليس إلا مرة كل خمسمئة عام، حينما يهل بعد وفاة والده، ولو صدقت الصور فإن حجمه ومظهره على النحو التالي: يتفاوت ريشه بين الأحمر والذهبي، ويشبه في الحجم والشكل النسر إلى حد بعيد، ويروي أهل هليوبوليس قصة عن هذا الطائر، التي أجدها شخصياً صعبة التصديق، فهم يقولون إنه يأتي من الإقليم العربي حاملاً أباه مغطى بالمر، ويمضي إلى معبد الشمس حيث يدفن جثته، وحتى يقوم بذلك يقولون: إنه يضع أولاً كرة كبيرة بقدر ما يستطيع أن يحمل، ثم يجوفها ويضع فيها أباه المتوفى، ثم يغطي الفتحة بمر جديد، فيصبح وزن الكرة مماثلاً بالضبط لوزنها الأول، ويحمل هذه الكرة إلى مصر مغطاة كما قلت، ويضعها في معبد الشمس، وهذه هي أسطورتهم عن هذا الطائر!

الصقر: حامي الفرعون

لاشك أن الصقر من أهم الطيور التي حظيت بالتقديس والإعجاب من المصري القديم، وربما كان لأسطورة إيزيس وأوزوريس التراجيدية الشهيرة الفضل الأكبر في نظرة المصريين العاطفية للصقر، هذا الابن الصغير الذي كان مطلوباً منه أن يثأر لأبيه الإله الطيب، من عمه «ست»، وما أدراك ما «ست».. إنه إله الشر، الذي اغتال والد «حورس» بمؤامرة دنيئة.

والصقر طائر جارح، متوسط الحجم على الرغم من امتلاء جسمه، ويمتاز بالنشاط الجم، وبحدة البصر، وبالبأس الشديد، وقد كان معروفاً لقدماء المصريين أكثر مما هو معروف الآن، وكثيراً ما قيل إن العدو يصيبه الشلل أمام فرعون، مثلما «يصيب الشلل سائر الطيور أمام الصقر».. ولأنه أهم طيور السماء، فقد كان ملك طيور مصر يتمتع بهيئة إله.. وقد دهش المصريون من العلامة الغريبة التي ترى تحت عين الصقر، تلك العين التي ترى كل شيء».. ونشأ حول عين حورس رمز كامل للخصوبة العالمية.


ربط المصري القديم بين مالك الحزين وطائر العنقاء

ومع أن «حورس» هو أشهر إله تمثل في هيئة الصقر، إلا أنه لم يكن الإله الوحيد الذي ظهر بهذه الهيئة، فقد كانت هناك آلهة أخرى، أقل شهرة منه، لكنها كانت تعبد، وتقام لها المعابد في أطراف متفرقة من البلاد؛ لذلك يجب أن نميز بين كثير من الآلهة التي ظهرت بصورة الصقر، ومنها الإله «مُنتو» إله الحرب الذي اتخذه الفراعنة رمزاً للانتصار في الحروب، والإله «سوكر» إله الموتى، والإله «دون عنوى» أو الكائن ذو المخالب الممدودة.. أما الإله «حورس» فقد كان أولاً إلهاً للسماء مثل الطائر الجميل: الصقر، الذي يرمز له، وظل بعض الوقت إلهاً للفضاء متخذاً

الشمس والقمر عينيه، وفي أحيان أخرى صار هو الشمس، ولكن باسم «درع حور أختي».. وفي الحالتين الأخيرتين ظل حورس إلهًا يحكم على السماء والنجوم، ولما كان ذا صلة بالفراعنة الذين وحدوا مصر العليا ومصر السفلى، فقد عينته الأقدار إلهًا ملكيًا بالامتياز، وعند انتصارهم في بداية الأسرة الأولى صار الصقر حورس الإلهي هو حامي الفرعون، وإلى حد معين صار هو الفرعون نفسه، واعتاد المصري القديم في لوحاته الجدارية الرائعة، إذا ما أراد أن يظهر انتصار الفرعون على أعدائه، أن يصوره صقرًا يقف فوق العلامة الهيروغليفية الخاصة بالذهب.



توت عنخ أمون يصطاد الطيور في المستنقعات

أبو منجل: قاهر الثعابين

هيب.. أبو منجل.. أبو قردان.. إيبيس.. هذه كلها مترادفات لطائر بجّله وقدسه المصريون القدماء، لما له من فائدة عظيمة يؤديها بكرم فائق لصديقه الفلاح، وكذلك لأن ظهوره كان يُصاحبُ بفيضان النيل، وقد حنطه المصريون في معابدهم، ونقشوا صوره عليها في مختلف الأوضاع، ومن المناظر التي تكرر تصويرها على توابيتهم، والتي اقترنت بعقيدة البعث، مشهد المحكمة التي سيمثل أمامها الإنسان يوم الدينونة، حيث نرى الربة إيزيس مستوية على عرشها، بينما يقوم أبو منجل المقدس بتسجيل ما ستنطق به.

ويجب ألا نخلط بين أبي منجل الذي قدسه قدماء المصريين، وبين أبي حُديج الطائر الصغير الذي يطير في الحقول، فوق قطعان الماشية ومجاري المياه، ويلتقط الحشرات من على ظهور الجاموس والأبقار، ولا شك أن المصريين القدماء كانوا يعرفون هذا الطائر الذي يطلق عليه أحيانًا اسم: «أبو شوشة».. ولكننا إذا أردنا أن نرى أبا منجل الحقيقي الذي حظي بتقديس الفراعنة، فسنجده مرسومًا بدقة على قبورهم، وقد كانت توجد منه ثلاثة أنواع تسكن مستنقعات النيل، وهي:

- أبو منجل ذو العرف البرونزي الريش، الذي لا يوجد في مصر حاليًا، وإنما نراه في النقوش الحجرية حيث كان الرمز الهيروغليفي لكلمة «يضيء» ومشتقاتها.
- أبو منجل الكاذب، وهو طائر مهاجر بُنّي الريش، لا يزال يزور تلك المنطقة سنويًا، وتبعًا للقصة الأسطورية فإنه يحمي الدولة من غزو الحيات المجنحة.
- أبو منجل المقدس، ذو الجسم الأبيض والرأس والذيل الأسودين، وهو الطائر الجميل الذي تجسد فيه الإله «تحوت» رب الحكمة، ولا يزال اسمه الذي عرف به أيام الفراعنة، وهو «هيب» HIB.. لا يزال هذا الاسم مستعملاً في اللغات الحديثة بالإضافة إلى الاسم الأكثر شيوعًا وهو إيبيس IBIS.

وقد اقترن أبو منجل المقدس دائمًا بأساطير مصر القديمة كقاهر للثعابين والحيات المجنحة، فقد ذكر «هيرودت» أنه رأى أبا منجل المقدس وهو يقتل الثعابين، وقيل إن الإله عطارد اتخذ لذاته شكل هذا الطائر، وإن موسى عليه السلام حمله معه وهو في هجرته داخل أقفاص من نبات البردى، كي يدفع عن أتباعه شرور أفاعي الطريق.. وقيل إن التمساح يموت من فوره إذا مسته ريشة من أبي منجل المقدس، كما اعتقد القدماء أنه يعمر مئات السنين، ثم بالغوا في هذا الاعتقاد الأسطوري فقالوا إنه خالد لا يموت!

المراجع والهوامش

١- ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان - ترجمة د. عبدالمنعم أبو بكر، و د. محمد أنور شكري، مكتبة الأسرة ١٩٩٧م.
٢- معجم الحضارة المصرية القديمة: جورج بوزنر وآخرون، ترجمة أمين سلامة، مكتبة الأسرة ١٩٩٦م، الطبعة الثانية.
٣- الرمز والأسطورة في مصر القديمة، رندل كلارك، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.
٤- آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية، محرم كمال، مكتبة الأسرة ١٩٩٧م.
٥- تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، د. سمير يحيى الجمل، سلسلة تاريخ المصريين (٧٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.
٦- طيور الوطن العربي، د. صبحي كامل، و د. رؤوف سلامة، دار مطابع المستقبل، بلا تاريخ.

- حجر هرمي الشكل يرتبط بعبادة الشمس ويعلو قمة المسلات

الأسطورة

إشكالية المصطلح ومقاربة تعريف

لوليدي يونس
فاس - المغرب

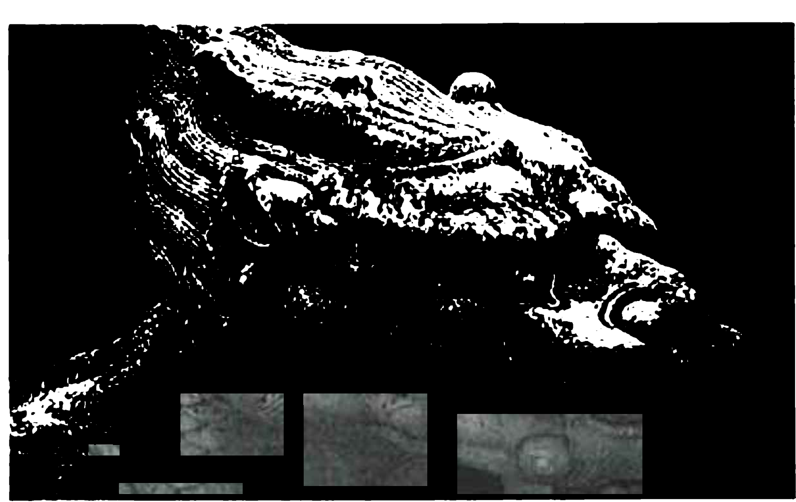
ليس من السهل إيجاد تعريف للأسطورة يمكن أن يقبله كل العلماء، ويفهمه، في الوقت نفسه، غير المختصين. حتى وإن كان كلود ليفي ستروس Claude Levis-Strauss يؤكد أن الأسطورة «ينظر إليها كأسطورة من طرف كل قارئ في العالم بأسره»(١) فإن هذا التأكيد يجب أن ينظر إليه بحذر شديد، لأن المتخصصين هم أبعد ما يكونون عن الاتفاق حول طبيعة الأسطورة ووظيفتها.

صحيح أن للأسطورة طابعها المميز عن الشعر والخرافة والحكاية، كما يلاحظ ذلك كلود ليفي ستروس نفسه: «جوهر الأسطورة لا يوجد لا في الأسلوب، ولا في طريقة السرد ولا في التركيب، ولكن في الحكاية التي تحكيها هذه الأسطورة»(٢). ولكن على الرغم من ذلك فإنه ليس من السهل العثور على تعريف واحد للأسطورة قادر على تغطية كل أنواع الأسطورة ووظائفها في كل المجتمعات القديمة. ذلك لأن الأسطورة، كما يقول ميرسيا إلياد Mircea Eliade: «واقع ثقافي مركب جداً، يمكن تناوله وتأويله من وجهات نظر متعددة ومتكاملة»(٣). وأسوق فيما يلي، على سبيل المثال لا الحصر، مجموعة من التعريفات المتعلقة بالأسطورة، والمستمدة من مدارس ومذاهب مختلفة، تبين إلى أي حد يصعب العثور على تعريف واحد ومتكامل للأسطورة.

إشكالية التعريف

يرى ألكسندر كراب Alexandre Krappe أن مصطلح أسطورة يعني: «حكاية تلعب فيها الآلهة - بالمعنى الواسع للكلمة - دوراً أو عدة أدوار»(٤).

ويقول بول ريكور Paul Ricoeur إن الأسطورة: «حكاية تقليدية تتعلق بأحداث وقعت في الزمن الأول، ومخصصة لتأسيس الفعل الشعائري... وبشكل عام، تأسيس كل أشكال الفعل والفكر اللذين من خلالهما يفهم الإنسان داخل عالمه»(٥).



لا يوجد تعريف واحد ونهائي للأسطورة!

ويرى برونيسلاف مالينوفسكي Bronislaw Malinowski أن الأسطورة «حدث وقع في فترة قديمة جداً، ولا يزال يمارس تأثيره في العالم وعلى المصائر البشرية. إنها تمثل بالنسبة إلى البدائي ما تمثله حكايات الخلق في التوراة... بالنسبة إلى المسيحي»(٦).

أما فريديرك ماكس - موليرFrederic Max-Muller فيرى أن الأساطير هي «الظل المظلم الذي تلقيه اللغة على الفكر»(٧).

ويرى فان دير لاو Van Der Leeuw أن الأسطورة «شكل أساسي للتوجه، وشكل أساسي للفكر، بل أكثر من ذلك، إنها شكل للحياة»(٨).

ويؤكد موريس لينهاردت Maurice Leenhardt من جهته أن الأسطورة تشكل «عنصراً بدائياً وبنوياً للعقل... إنها الكلام،

والصورة، والحركة التي تحصر الحدث في قلب الإنسان - الحساس كطفل - قبل أن يصبح هذا الحدث حكاية محددة»(٩)

أما ماري ديلكور Marie Delcourt فترى أن الأسطورة «حكاية تسوغ ممارسة ما. وكثيراً ما تندثر الممارسة وتظل الحكاية»(١٠).

ويذهب شيلينغ Schelling إلى أن الأسطورة «نتاج مسار - مستقل - للفكر والإرادة. لقد كانت بالنسبة إلى الوعي الذي يتحملها ثمرة واقع لا يقبل الجدل ولا يمكن نقضه. إن الشعوب والأفراد ليسوا إلا أدوات لهذا المسار الذي يتجاوز أفقهم، الذي يخدمونه دون أن يفهموه»(١١).

بينما يرى مارسيل غريول Marcel Griaule أن الأسطورة «تتحرك داخل الزمن الأصلي، والأبدي والثابت، والحالي في الوقت نفسه. والأسطورة من جهة أخرى موضوع عقيدة»(١٢).

ويرى بروهيي Brehier أن الإنسان عارض الكون - الذي يتجزأ إلى عناصر قارة وأبدية - يكون يمكن لقدر الإنسان أن يتحرك فيه، وله فعلاً حكاية. هذا الكون، هو عالم الأسطورة. «الأسطورة إذن لها علاقة أساسية بالزمن، إنها مفهوم تاريخي للأشياء». ويضيف قائلاً: «إن الأسطورة حلم، إنها تمديد للتجربة في الماضي وفي المستقبل الذي لا يوجد إلا في الخيال»(١٣).

أما ميرسيا إلياد Mircea Eliade فإنه يرى أن «الأسطورة تحكي حكاية قدسية، إنها تحكي حدثاً وقع في الزمن الأول، زمن - البدايات - الخارق. وبعبارة أخرى، الأسطورة تحكي - بفضل منجزات الكائنات الخارقة - كيف أن واقعاً ما جاء إلى الوجود، سواء، كان واقعاً كلياً: الكون، أو مجرد جزء: جزيرة أو نوع نباتي أو تصرف إنساني أو مؤسسة. إنها دائماً حكاية - خلق -، تحمل إلينا كيف حدث شيء ما أو كيف بدأ وجوده، والأسطورة لا تتحدث عما حدث فعلاً»(١٤).

ويرى إيرك فروم Erich Fromm أن الأساطير تشبه، من حيث الشكل والمضمون، الأحلام. «فنحن، الذين، في حياة اليقظة، نجد هذه الأساطير غريبة وبعيدة، لنا القدرة، في حياة النوم، على خلق هذه الإنتاجات الشبيهة بالأساطير. وفي الأساطير تقع أحداث مأساوية لا يمكن تحقيقها في عالم تتحكم في دفته قوى المكان والزمان... بطبيعة الحال شعوب مختلفة خلقت أساطير مختلفة، كما أن أشخاصاً مختلفين يحملون أحلاماً مختلفة. لكن، بغض النظر عن هذه الفروق، فالأساطير والأحلام تمتلك ميزة مشتركة: هي أن كلاً منهما مكتوب «بلغة واحدة هي اللغة الرمزية»(١٥).

ويذهب جورج غوسدورف Georges Gusdorf إلى أنه بالنسبة إلى إنسان عصر الأساطير، الأسطورة لا تعتبر أسطورة «وإنما هي الحقيقة نفسها. ذلك لأنها، ترتبط بالمعرفة الأولى التي اكتسبها الإنسان عن نفسه وعن محيطه؛ بل أكثر من ذلك، إنها بنية هذه المعرفة، فالإنسان البدائي ليست له صورتان عن العالم: إحداهما - موضوعية -، والأخرى - أسطورية -، وإنما هناك قراءة واحدة للطبيعة»(١٦).

> جوهر الأسطورة لا يوجد لا في الأسلوب، ولا في طريقة السرد ولا في التركيب، ولكن في الحكاية التي تحكيها هذه الأسطورة

ويتبنى مارسيل ديتيان Marcel Detienne رأياً آخر حيث يقول: «إن الأسطورة استعمال من الدرجة الثانية للغة، إنها ليست فقط حكاية تحمل دلالة لسانية عادية، وإنما هي موجودة في اللغة، وفي الوقت نفسه فوق اللغة العادية»(١٧).

أما جلبير دوران Gilbert Durand فيرى أن «الأسطورة تطرح مجموعة من الأسئلة التي لا يستطيع العلم أن يجيب عنها» ويضيف أن كانت Kant قد صنف هذه الأسئلة ضمن الأنظمة ذات الأجوبة - التناقضية -. ومن بين الأسئلة التي تطرحها الأسطورة: من أين أتينا؟ ما مصيرنا بعد الموت؟ لماذا العالم ونظام العالم؟ لماذا المعاناة؟ إلخ...(١٨).

من خلال هذه التعريفات التي سقتها والتي لا تشكل إلا جزءاً من مجموع الدراسات والأبحاث المتعلقة بالأسطورة يتضح أن الأسطورة ذات دلالات متعددة. إنها، بالنسبة إلى الإنسان البدائي، دين وعلم وفن وفلسفة. إنها مجموع الحكمة التي اكتسبها وصاغها في قالب سردي يتحدث عن الخلق والموت، والبعث. وفي هذه الأساطير نجد الكائنات الخارقة والعجيبة، التي هي مزيج في الوقت نفسه من الألوهية، والإنسانية، والحيوانية. كما أننا نجد الإنسان في مواجهة مع الطبيعة كالأنهار، والجبال، والبحار، والأشجار... فكل هذه العناصر لم تعد مجرد أشكال مادية، وإنما صارت لها أرواح. فمن خلال التعريفات السالفة الذكر، تظهر الأسطورة كأنها الدائرة الأساسية التي تنطلق منها الفلسفات، والعلوم، والصناعات، والفنون، والأحلام، والممارسات الاجتماعية والشعائرية عند إنسان الحضارات القديمة. وإذا كان بعض الباحثين يرى أن الأسطورة مرض لغوي، وخيال جامح، وحكايات لا تصدق، فإن بعضهم الآخر يرى أنها لا تخرج عن الواقع، وإنما تقوم داخله، حيث تكون مجموعة قواعد تضبط الفكر والعمل. وبذلك لا يمكن التفريق بين الأسطورة والعالم، ولا يمكن عزل أحدهما عن الآخر، لأن الأمر لا يتعلق بقراءة بسيطة للطبيعة وللعالم، وإنما يتعلق بفهم الإنسان لنفسه داخل هذه الطبيعة، وهذا العالم. والأسطورة إذ تعطي فكرة عن نظام العالم، فإنها في الوقت نفسه تعطي فكرة عن مكان الإنسان داخل العالم.

فإذا كان بعض الباحثين يرى أن الأسطورة مجرد «خرافة» أو «اختراع»، أو «خيال»، فإن فريقاً آخر يفهمها كما كانت تفهم في المجتمعات البدائية، أي حكاية «حقيقية»، و«قدسية»، وذات دلالة.

ولا يحكم في الأسطورة الآلهة والبشر وحدهم العالم، وإنما يشاركهم في الحكم الحيوان، والنبات، والماء، حيث يؤدي كل واحد دوره داخل الكون، وداخل هذه الحكاية التي تنقل إلينا الحوار القائم بين الأحياء وسر الحياة الأساسي. هذا السر الذي لن تسمح أية معرفة عقلانية بتوضيحه، والذي تظهر تجسيداته الأساسية في: الميلاد، والحلم، والحب، والموت.

وهكذا، إذا كانت الفلسفة ترى أن الأساطير تستمد مادتها من الصور والرموز، ومن الحلم والذاكرة، وتعكس محيطاً اجتماعياً ودينياً، وأن لها

لغتها الخاصة ورسالتها المتميزة، وأن جوهرها يحمل «قولاً» لا ينفذ عن أصل الإنسان ونهايته، فإن علم النفس يرى أن الأساطير تبحث في الخوف من أسرار الطبيعة وأسرار الجنس. هذا الخوف الذي يهاجم العقل البشري، فتأتي الأساطير لتسكين مخاوف الإنسان أمام المجهول. وخلق الأساطير يساعد على حصول المرء على اللذة من أعماله ورغباته وأفكاره المقدر لها أن تصد وتكبت. كما أن الأساطير تساعد أيضاً على إنكار تأثيرات الاختبارات المؤلمة التي يفرضها الواقع على الإنسان وإبطالها. ويرى علم النفس كذلك أنه على الرغم من أن الأسطورة والحلم يشتركان في كثير من الصفات، فإنهما لا يتماثلان، لأن الأسطورة تشغل مركزاً وسطاً بين الحلم واليقظة. إنها تشبه إلى حد ما أحلام اليقظة. وإذا كان علم اللغة يرى أن الأسطورة «مرض لغوي»، وحالة مرضية تصيب العقل البشري نتيجة اعتماده على الاستعارات، وأن هذا المرض اللغوي أدى إلى أن تكون للشيء الواحد أسماء متعددة، كما أن الاسم الواحد كثيراً ما يطلق على أشياء مختلفة، فإن المقاربة الإنسانية «الأنثروبولوجية» ترى أن تاريخ الحضارة بدأ بظهور جنس بشري على الأرض، متحضر نصف حضارة. ومن هذه النقطة تطورت الحضارة في اتجاهين: إلى الخلف لتعطي رجالاً بدائيين، وإلى الأمام لتعطي رجالاً متحضرين.

كما أن هذه المقاربة آمنت بوحدة العقل البشري، وبوحدة قوانين تطور الثقافة البشرية، وبالجوهر الروحي - المتفرد - للمعتقدات الدينية، وبوجود «رواسب» ثقافية في حياة الشعوب القديمة وفي إبداعاتها.

وإذا كان علماء الاجتماع يرون أن الأسطورة يمكنها أن تكون بمنزلة شاهد على «وظيفة قديمة»، ضرورية لكل إنسان، وظيفة عاطفية وسحرية ودينية. وإذا كانت أبحاثهم تحاول أن تجعل من الأسطورة قنطرة بين «الطبيعة» و«ما فوق الطبيعة»، مع الإقرار بأن كل الدوافع الأساسية للأسطورة هي انعكاسات للحياة الاجتماعية بكل ملامحها، ومؤسساتها، وأنظمتها وبنياتها، فإن عدداً من العلماء الذين يبحثون في أصل الإنسان يقرون بأن الأسطورة ظاهرة بسيطة جداً لا تحتاج إلى تفسير نفسي «سيكولوجي» أو فلسفي معقد، لأنها تمثل بساطة الجنس البشري، فهي ليست نتاج تأمل أو فكر، وإن وصفت بأنها نتاج الخيال البشري، فإن هذا الخيال نفسه لا يستطيع تفسير قصورها ولا الوهم الذي يعتريها. إذن، فبالنسبة إلى هؤلاء العلماء، قصور العقل البشري في مراحله الأولى كان سبباً في ظهور الحماقات والتفاهات الموجودة في الأساطير، كما أنه لولا «الغباء البدائي» لما ظهرت الأساطير.

وإذا كان الموقف الوظيفي يرى أن الأسطورة ليست مطالبة بالتفسير، وبإعطاء أجوبة، كالأجوبة المخصصة للأسئلة ذات الطابع العلمي، وإنما هي مطالبة بتقوية الممارسات الثقافية، والعقائد الدينية لجماعة ما، إذ الأسطورة هي العمود الفقري للمجتمع البدائي، انطلاقاً من أنها تضمن تلاحم هذا المجتمع، إنها تعبر عن العقيدة وتسجلها، إنها وصف سردي لحدث أصلي يستجيب لحاجيات دينية عميقة أو لنماذج أخلاقية تخدم المجتمع، فإن الاتجاه التاريخي يولي اهتمامه للخلفية التاريخية للأسطورة، مادامت الأسطورة حدثاً وقع في قديم الزمان، ومع ذلك لا يزال يمارس تأثيره في العالم وفي الأقدار البشرية. وهذا الاتجاه يرى أن الأساطير ليست في واقع الأمر إلا تاريخ البشرية الأولى مضخماً من طرف الخيال. لذلك صار الاتجاه التاريخي يبحث في الأساطير عن «أين؟» و«متى؟» و«على أساس أي الوقائع التاريخية؟» و«بمساعدة أي المصادر الأدبية؟».

وهكذا يمكن أن نخرج من هذه التعريفات بمجموعة من الملاحظات الأولية التي ستتم بلورتها فيما بعد:

- إن واقعاً ثقافياً مركباً كالأسطورة لا يمكن أن يكون موضوع تعريف واحد.

- إن ما يكتشفه كل عالم في الأسطورة - كما يقول إرنيست كاسيرر - هي الموضوعات التي يألفها كل الألفة. فالمذاهب المختلفة لم تر أساساً، في المرآة السحرية للأسطورة، غير وجهها، إذ يكتشف فيها اللغوي عالماً من الكلمات والأسماء، وتبدو في نظر الفيلسوف في صورة «فلسفة بدائية». أما عالم النفس فإنه يرى فيها ظواهر مرضية نفسية معقدة، ومثيرة للاهتمام(١٩).

- إن هذه التعاريف وإن كانت في أغلبها مختلفة شكلاً ومضموناً، فإن لها، مع ذلك، قاسماً مشتركاً، لأن أغلبها مؤسس على علم الأساطير «الميثولوجيا» الإغريقية.

- بما أن ما نستخلصه من الأسطورة لا يتوقف على ما تحكيه بقدر ما يتوقف على رؤيتنا للعالم، فإن هذه التعاريف تنطلق عموماً - كما يقول فلاديمير غريغورييف Vladimir Grigorieff - من أربع وجهات نظر:

- وجهة نظر ملحدة لا دينية: حيث ينطلق أصحابها من رأيين: رأي يرى أن الأساطير تشهد على العبقرية الخلاقة للإنسان والحضارات الشفاهية؛ هذه الحضارات التي لم تكن تسعى على الإطلاق إلى السيطرة على الطبيعة. ورأي يرى أن الأساطير ليست إلا حكايات بلا أهمية، تنتمي إلى حقبة ولت تمثل «طفولة الإنسانية»، حقبة كان الإنسان فيها يصنع لنفسه آلهة أو قوى بحجم جهله وضعفه.

- وجهة نظر ملحدة لا دينية ولكنها علمية «علوم إنسانية»: وهي بدورها تنقسم قسمين: قسم يقوم على آراء وأفكار متجاوزة، كتلك التي تقول: إن الأسطورة نتاج خيال إنسان ما قبل - المنطق، ونتاج خيال ورمزية إنسان ما قبل - العقل، ونتاج خيال لم يعد صالحاً بعد أن اكتسب الإنسان الفكر العقلاني.

وقسم آراؤه معاصرة، ترى في الأساطير عقائد مشتركة تنظم حياة جماعة قديمة. وترى فيها أيضاً حكايات عقلانية تدفع إلى فهم المنطق «البري» للعقل الإنساني، وتتعامل بطريقة مركبة مع العلاقات القائمة بين الطبيعة والحضارة؛ إنها حكايات يجب فك رموزها، لا تأويلها.

- وجهة نظر دينية توحيدية: ترى أن بعض الحكايات الأسطورية تتعرض لمعنى العلاقات الإنسانية الإلهية، علاقات الخالق والمخلوق، إلا أنها، في الغالب، في حاجة إلى إعادة تأويل لكي تتماشى مع الإيمان بإله واحد، خالق، ومشرع ومنقذ. ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن هناك مجموعة كبيرة أخرى من هذه الأساطير هي بطبيعتها الوثنية حلولية، ولا أخلاقية، و«صبيانية» و«شيطانية» يجب حذفها من الدين الحقيقي، ومن العقائد.

- وجهة نظر دينية لا توحيدية «عامة»: ترى أن الأساطير تبعث على التفكير في العالم الرمزي،

والتأويلي «المنفتح والحر»، وفي معنى الألوهية، ومعنى القدسي. وهي لا تشكل العمود القدسي للديانات فقط، ولكنها أيضاً منبع للتحولات الفعالة(٢٠).

٥- إن الاختلاف في وجهات النظر التي ننطلق منها لتعريف الأسطورة يؤدي إلى اختلاف في مستويات قراءة هذه الأسطورة. حيث يرى جاك فيدال Jacques Vidal أن للأسطورة أربعة مستويات للقراءة تبدو ضرورية:

- المستوى السردي: ويتعلق الأمر هنا بتحليل النظام النصي لأسطورة ما. وهي مهمة اللسانيين، والبنويين، والأنثربولوجيين «أرباب علم الإنسان».

- المستوى السببي: ويتعلق الأمر هنا بوصف العمل التفسيري والتأسيسي لأسطورة ما، في مجتمع ما، أو في ثقافة ما، أو في ديانة ما. وهذه مهمة علماء الاجتماع، وعلماء الأجناس ومؤرخي الأديان.

- المستوى الرمزي: ويتعلق الأمر هنا بتعرف الصور والرموز، وتتبع منطقية تطورها، مع الفضاءات والطاقات الموجودة في أسطورة ما. وهي مهمة الفلاسفة، وعلماء النفس.

- المستوى الديني: ويتعلق الأمر هنا بالعلاقة الحتمية الموجودة بين الأسطورة والدين، وبين الأسطورة والممارسات الشعائرية، وهي مهمة علماء الأديان(٢١).

وتجدر الإشارة إلى أن الخلاف القائم بين مختلف الاتجاهات والمدارس التي تعرضت للأسطورة، لا يقف عند حدود تعاريف الأسطورة فقط، وإنما يتجاوزها إلى وظائف الأسطورة؛ لأن الأسئلة التي تشغل - دون شك - بال الدارسين هي: «من أين تأتي الأساطير؟» - «كيف يعمل عقل مبتكرها؟» و«لأي شيء تصلح؟».

فإذا كان السؤال الأول - «من أين تأتي الأساطير؟» - ينتمي إلى ذلك النوع من الأسئلة الموجودة في الحكايات السببية: من أين جاء الإنسان؟ من أين جاءت الأرض؟ من أين جاءت الخطيئة؟ فإن السؤال الثاني - «كيف يعمل عقل مبتكر الأساطير؟» - قد أظهر أن الإنسان البدائي كان يبتكر الأسطورة في مرحلة أولى، وهو يحس بالرعب تجاه سر الطبيعة الغاضبة، وفي مرحلة ثانية، عوض هذا الرعب «بخوف وجودي»، وفي مرحلة ثالثة، كان يسعى، بواسطة الخيالات، إلى المحافظة على المجتمع عن طريق تحقيق نوع من التوازن بين مختلف العناصر المتعارضة. أما السؤال الثالث - «لأي شيء تصلح الأسطورة؟» - فإنه قد أبان أن الخلاف إن كان قائماً حول تعريف الأسطورة، فإنه قائم، وبالحدة نفسها، حول وظيفتها.

إشكالية الوظيفة

وهكذا، فإذا كان ألكسندر كراب يرى أن وظيفة الأسطورة تكمن في أنها «تحاول دائماً تفسير شيء ما، سواء كان سبب ظاهرة طبيعية، أو أصل مؤسسة أو عادة، إنها بالأساس حكاية مفسرة»(٢٢)، فإن كرنيي Kerenyi يرى أن وظيفة الأسطورة هي أن تقول «كيف؟» أكثر مما تقول «لماذا؟».

«خلف السؤال الظاهر» لماذا؟ نجد السؤال الآخر: «نتيجة ماذا؟»(٢٣).

أما ماريت Marett فيرى أن وظيفة الأسطورة ليست تفسيرية. إن هدفها «ليس إشباع الفضول، ولكن تأكيد العقيدة. إنها توجد من أجل ضمان هذه الأخيرة، ليس بالنسبة إلى العقل السائل صاحب «لماذا؟» ولكن بالنسبة إلى العقل المتدين صاحب «كيف؟» أو «وهكذا»(٢٤).

ويبين برونيسلاف مالينوفسكي وظيفة الأسطورة في المجتمعات البدائية، قائلاً: «تقوم الأسطورة في المجتمعات البدائية بوظيفة ضرورية، هي التعبير عن العقائد وتقويتها وتدوينها، إنها تحافظ على المبادئ الأخلاقية وتفرضها، إنها تضمن فعالية الممارسات الشعائرية، وتعطي القواعد الصالحة لممارسة الإنسان»(٢٥).

أما موريس لينهاردت فيرى أن وظيفة الأسطورة تكمن في أنها تضمن «تكرار الأفعال والأحداث الأولية، وتضمن التوازن الاجتماعي، وكذا التوازن البشري»(٢٦).

ويرى إرنست كاسيرر أن وظيفة الأسطورة هي مساعدة الإنسان على «تعلم فن جديد، غريب هو فن التعبير، وهذا يعني اكتسابه القدرة على تنظيم غرائزه البعيدة الغور، وآماله ومخاوفه، وتظهر هذه القدرة التنظيمية في أقوى صورها عندما تواجه الإنسان أعظم مشكلاته، أي مشكلة الموت»(٢٧).

ويرى جورج غوسدروف أن وظيفة الأسطورة في العالم البدائي هي أن «تعكس مباشرة، وتؤرخ في عبارات إنسانية، المتطلبات الأساسية للكائن داخل العالم». ويرى أيضاً أن وظيفة الأسطورة ليست مغايرة لوظيفة الفلسفة. فالإنسان التائه في العالم، وداخل الزمن يكتشف ضرورة صنع فجوة بين الظروف المحيطة به، وأن يقيم مكانه الخاص داخل هذا الكون الفسيح، فالأسطورة تسمح بقراءة أولية للعالم، وتسمح للإنسان، أيضاً، أن يأخذ موضعه داخل الفضاء والزمان(٢٨).

أما ميرسيا إلياد، فيذهب إلى أن الأسطورة لها أكثر من وظيفة. «فمن بين الوظائف الأساسية للأسطورة، هذا التفتح على الزمن الكبير، والتغطية الدورية لزمن أولي. وهذا يترجم بالميل نحو إهمال الزمن الحاضر، أو ما نسميه باللحظة التاريخية»(٢٩). أما الوظيفة الأساسية للأسطورة، في نظره، فهي «كشف النماذج المثالية لكل الشعائر، ولكل الأفعال البشرية الدالة: سواء الطعام، أو الزواج، أو العمل، أو التربية، أو الفن، أو الحكمة»(٣٠).

ويعتقد جاك فيدال أن وظيفة الأسطورة تكمن في أنها «مرآة يبحث كل الناس فيها عن صورتهم، كما أن الأسطورة تمنح نماذج يجب اتباعها. إنها مثالية، وتصويرية، وإقناعية»(٣١).

وهكذا نلاحظ أن محاولات العلوم الإنسانية الرامية إلى تحديد طبيعة الأسطورة وتحديد وظائفها كثيرة ومتنوعة، حيث تسعى إلى معرفة: هل الأسطورة جانب من العقل أم جانب من اللغة أم هي خطاب اللاوعي؟ هل هي معرفة وهمية، أم إنها ذاكرة تسجل الماضي؟ أم إنها وجه للإبداع والخلق في كل الثقافات والحضارات؟ وهل من الممكن أن تندثر أمام الفكر العقلاني.

وتجدر الإشارة إلى أن عدداً من الدراسات والأبحاث التي أشرنا إليها يدخل في إطار ما اصطلح عليه بعلم الأساطير أو الميثولوجيا. والميثولوجيا خطاب بخصوص الأساطير، أو هي معرفة تسعى إلى الحديث عن الأساطير بصفة عامة: عن أصلها وعن جوهرها وعن طبيعتها. إنها معرفة تدعي أنها تتحول إلى علم. ولئن كان مارسيل

ديتيان Marcel Detienne يرى أن الميثولوجيا حقل دلالي «سيميائي» يتداخل فيه خطابان، ثانيهما يتحدث عن الأول، وينتمي إلى التأويل(٣٢). وقد حاول أولئك الذين اشتغلوا، بين عام ١٨٥٠ و١٨٩٠م بتاريخ الأديان، وبعلم الأساطير، وبالميثولوجيا المقارنة؛ أن يوضحوا الأسباب التي دفعتهم خلال أربعين سنة إلى أن يقيموا خطاباً علمياً بخصوص الأساطير. وهكذا، أعلن المتحدث باسمهم «أندرو لانج» Andreuw Lang عن المهمة الموكولة إلى هذا العلم الجديد، التي تكمن في تفسير بعض النقط اللامعقولة الموجودة في الأساطير ، وهي: «الحكايات المتوحشة واللامعقولة حول بداية الأشياء، وأصل البشر والشمس، والنجوم، والحيوانات، والموت، والعالم بصفة عامة، والمغامرات الشائنة والتافهة للآلهة: لماذا ينظر إلى بعض الآلهة على أنها تعشق المحارم، وأنها مراهقة، وقاتلة، وسارقة وقاسية وآكلة لحوم البشر؟ لماذا تأخذ أشكال الحيوانات؟ وكذلك أساطير التحول إلى نباتات، وحيوانات ونجوم. والحكايات المنفرة عن مملكة الأموات: نزول الآلهة إلى عالم الأموات، وعودتهم من تلك الأمكنة»(٣٣).

إذن، حتى لما صار للأساطير علم يدرسها، فإن هذا العلم كان يتصيد الحكايات المتوحشة، واللامعقولة، والمغامرات الشائنة والتافهة، وعشق المحارم، والقتل، والسرقة، وأعمال القسوة، والحكايات المنفرة. والشيء نفسه يؤكده ماكس مولير Max Muller الذي يرى أن هدف الميثولوجيا المقارنة - وهي شعبة تنتمي في نظره إلى علم اللغة - هو شرح العنصر الغبي، والمتوحش واللامعقول في الأساطير. كما أن بول دوشارم Paul Decharme يؤكد أن هدف الميثولوجيا هو الحكايات الفظيعة، والكريهة واللاأخلاقية(٣٤). وهذا موقف يجب ألا ندهش منه، خصوصاً إذا علمنا أن العلم كان يريد، في مرحلة أولى، موت الأسطورة؛ لأنه كان يرى فيها عقبة أمام الفهم الحقيقي للعالم.

لقد كان العلم يعتقد أن الأسطورة ستسقط أمام قليل من الدقة، وأنها ستموت تحت وطأة الأسئلة والاستفسارات التي يتسلح بها العقل المتيقظ، لكن العلم تنبه بعد ذلك إلى أن الأسطورة لها حياة صلبة وجذور قوية، كما أن تغيراتها وتحولاتها تجعلها موجودة في كل مكان؛ وبذلك صار العلم الحديث يبحث عن احتضانها أكثر مما يبحث عن استئصالها. فعندما يرسم العلم حدوده الخاصة، ويرسم حدود الواقع، فإنه يترك للأسطورة وللحلم، الحقل الخاص بهما. إنه يتخلى لهما - كما يقول جورج بالانديي Georges Balandier - عما يعجز عن المطالبة به: إعطاء معنى واقتراح مسوغات أخلاقية وعرض رؤية للعالم. إن الفكر العلمي يطرح أسئلة، والفكر الأسطوري يحمل أجوبة، وتفسيرات، وتسويغات(٣٥). إن العلم والأسطورة وسيلتان يملكهما العقل البشري، ويستطيع بوساطتهما أن يحقق نوعاً من النظام في الكون. صحيح أن الأسطورة تختلف عن العلم بحكاياتها، وطرق إنتاج هذه الحكايات، وبمنطقها وبساطتها، وبانخراطها في الفترة الزمنية الخاصة بها، إلا أنه

لا يمكن التفريق بين الأسطورة والعالم، ولا يمكن عزل أحدهما عن الآخر، لأن الأمر لا يتعلق بقراءة بسيطة للطبيعة وللعالم، وإنما يتعلق بفهم الإنسان لنفسه داخل هذه الطبيعة، وهذا العالم

مع ذلك فكلاهما يتمتع بالمشروعية، وهما معاً وسيلتان للمعرفة، يؤديان إلى نتائج مختلفة.

وقد لاحظت إيزابيل ستينجر Isabelle Stengers التقارب والخلاف الموجود في الوقت نفسه بين العلم والأسطورة: «العلم - تماماً كالأساطير وعلوم نشأة الكون - يبدو وكأنه يبحث عن فهم طبيعة العالم، والطريقة التي تنظم بها والمكانة التي يحتلها الإنسان فيه». إلا أن الفكر العلمي يبتعد عن التساؤل الأسطوري بخضوعه «لطرق المراقبة، والمناقشة النقدية»(٣٦).

وإذا كان شيلينغ Schelling يعطي للأسطورة قيمة رفيعة، ويعدها فوق العقل حيث يصفها بأنها حكاية معلقة في الذاكرة، وفي اللغة، وفي الإبداع. كما أنها تحيل، بواسطة الرموز، على الحقب والظواهر الأصلية، وعلى حقيقة أولية تترجم بواسطة علامات وصور وانعكاسات في عالمنا، فتجمع بذلك بين عالمين، حيث تظهر الخفي، وتوصل جزءاً من الحقيقة(٣٧)، فإن جورج غوسدورف Georges Gusdorf يرى أن التعارض بين الأسطورة والعقل ليس جذرياً، بل إن المصالحة بينهما تبدو ممكنة، مما قد يسمح بفهم شكل رفيع من المعرفة الإنسانية. صحيح أن اللقاء الأول بين العقل والأسطورة يأخذ شكل معركة، لأن العقل يمارس الرقابة عليها في شذوذها، ويمنعها من أن تكون لا معقولة، والأسطورة تشير بالضرورة إلى حدود العقل، وبذلك تسمح بوضع العقل في مكانه داخل الوجود، لذلك يؤكد جورج غوسدورف Georges Gusdorf أن الأسطورة ليست نهاية العقل، وإنما هي بدايته. وأنه يجب على العقل ألا يعلن موت الأساطير، وإنما عليه أن يقوم بمهمة إعادة تناول الأساطير وإعطائها مشروعيتها(٣٨).

ومع كل ما قد يكون بين العقل والأسطورة من تعارض، فإنه يقف دائماً أمامها حائراً، يسعى إلى اكتشاف كنهها، وإظهار أسرارها، والوصول إلى أعماقها. إلا أنها تستعصي عليه، وترفض أن تسجن داخل تعريف واحد، وأن توضع داخل خانة محددة.

وإذا لم يفلح العقل في فهم المعنى الحقيقي للأسطورة، فإنه يجد نفسه وجهاً لوجه أمام هذا الخيار: إما أن الأسطورة صورة، كما قيل من قبل، علمية وساذجة للعالم والتاريخ، وفي أحسن الحالات نتاج الخيال الشعري الجميل. وإما - وهذا موقف المؤمن التقليدي - أن القصة الظاهرة للأسطورة حقيقية، وعلى المرء أن يؤمن بأنها وصف مطابق للأحداث التي جرت فعلاً في الواقع(٣٩).

مقاربة تعريف

بعد أن تعرضت لكثير من الأبحاث والدراسات المتعلقة بالأسطورة، سأحاول في نهاية هذه الدراسة إعطاء تعريف لها. على أنني سأعمل على توسيع هذا التعريف حتى لا أسقط في تلك الرؤية الضيقة التي قد يفرضها تخصص ما، أو الانتماء إلى مدرسة ما. وإن كنت، في حقيقة الأمر، لا أخفي

ميلي إلى كثير مما جاء في نظرية ميرسيا إلياد Mircea Eliade، إلا أنني مع ذلك سأركز على نقط الالتقاء الموجودة بين أغلب المذاهب، وسأتجاوز نقط الاختلاف الموجودة بينها. لأن نقط الالتقاء هاته كامنة في جوهر الأسطورة، أما نقط الاختلاف فهي موجودة في جوهر تلك المذاهب والاتجاهات.

وهكذا، فالأسطورة هي: حكاية حقيقة، مقدسة، وقعت في بداية الزمن، تصلح نموذجاً للتصرفات الإنسانية. حيث إن مهمة الإنسان تكمن في إعادة القيام بالتصرف النموذجي الذي قام به الأبطال الأسطوريون. وأبطال الأسطورة ليسوا بالضرورة آلهة، وإن كانت الآلهة تؤدي عادة دوراً مهماً في الأسطورة. وأبطال الأساطير يتمتعون في الغالب بقوة كبيرة يستطيعون بفضلها إنجاز أشياء خارقة. وهذه الشخصيات الأسطورية هي التي علمت الناس ممارساتهم الشعائرية الأكثر أهمية، كما علمتهم مختلف التقنيات والمؤسسات. وبذلك، فالأسطورة «تشرح» أصل التقنيات والمؤسسات وسرها، وتعلل بعض مظاهر الطبيعة، وتعلل كذلك الممارسات الشعائرية. وعلى الرغم من أن الأسطورة تحكي عن الزمن الأول، وعن الأحداث الأصلية، إلا أننا نعاين، من خلالها، نقلاً للعالم الإنساني بآماله، ومخاوفه، ورغباته وصراعاته. وفي الوقت نفسه تسعى إلى وضع نظام أولي للعالم، وللأشياء، والإنسان. فالمجتمع والأسطورة مرتبطان إلى درجة أن الذي يخرج نفسه من الأسطورة يخرج من ثم من المجتمع. إن الأسطورة تعانق، عن قرب، الواقع الإنساني وتسعى إلى تحقيق مقاصده ورغباته ومتطلباته. إنها نوع من الجرد للإمكانات والمتطلبات الإنسانية. وإذا كانت الأسطورة تعرض صوراً غنية بالمواقف التي توجد في كل مجتمع إنساني، فإنها تعرض أيضاً صوراً مثالية لأشخاص يواجهون هذه المواقف، ويحاولون التغلب عليها: إنهم الأبطال. فالأسطورة - من خلال هؤلاء الأبطال - تؤسس كل أشكال الفعل والفكر التي بواسطتها يفهم الإنسان نفسه داخل العالم. وبذلك، تشرح الأسطورة الفهم الذي يشكله الإنسان عن العالم. والأسطورة، وإن كانت تساعد الإنسان على تجاوز حدوده الخاصة والمشروطة، وتدفعه إلى أن يرتفع إلى مصاف العظماء، فإنها مع ذلك تكشف عن خوفه أمام الظواهر الطبيعية، وعن خوفه أمام الحقيقة الجنسية الخالصة، والرغبات المحرمة، ثم بعد ذلك تسعى الأسطورة إلى أن تطمئن العقل البشري عن طريق تصريف هذا الخوف. وهكذا تكون غاية الأسطورة إقامة الاستقرار والنظام في الطبيعة والمجتمع، وتأكيد العقيدة، وضمان فعالية الشعيرة، والحفاظ على التصرفات والقوانين التقليدية، والتعبير بلغة رمزية عن أفكار دينية وفلسفية، وعن تجارب الروح، وشرح وجود العالم والإنسان والأشياء. ومن أجل أن تحقق الأسطورة كل هذه الغايات، فإنها تتحدث إلى كل إنسان بلغته الخاصة، لتبين، في نهاية الأمر، أنه ليس للإنسان مفتاح إلا الإنسان نفسه.

إن هذا التعريف لا يدعي الإحاطة بكل مفاهيم الأسطورة ووظائفها، في كل المجتمعات، ولكنه على الأقل يحاول رفع اللبس الذي يكتنف عادة تعاريف الأسطورة.

الهوامش والمراجع

* Adalbert Kuhn (1812-1882), Paul Decharme (1839-1905), Frederic Max-Muller (1823-1900), Andreuw Lang (1844-1912), Edward Burnett Tylor (1832-1917).
1- Claude levi-Strauss: Anthropologie Structurale. AGORA. Plon, Paris, 1974, P:232.
2- Ibid, P:232.
3- Mircea Eliade: Aspects du mythe. Collection Folio, essais, Ed. Gallimard, Paris, 1989, P.16.
4- Alexandre Krappe: La genese des mythes. Payot, Paris, 1952, P.15.
5- Paul Ricoeur: Cite in: Dictionnaire des religions. Directuer de la Publication: Paul Poupard, 2eme edition, corrigee P.U.F, Paris, 1985, P.1172.
6- Bronislaw Malinowski, cite par E.O., James in: Mythes et rites dans le proche. Orient ancien. Traduit de l'anglais par Rene' Jouan. Biblithe'que Historique, Payot, 1965, P.15.
7- Frederic Max-Muller, cite' par Ernest Cassirer in: Langage et mythe. A propos des Noms de Dieux. Traduit de l'allemand par Ole hansen-Love. Editions de Minuit, Paris, 1973, P.13.
8- Van Der Leeuw: L'homme primitif et la religion. Alcan, 1940, P.134.
9- Maurice Leenhardt: Dokamo. N.R.F. 1974, PP.247-248.
10- Marie Delcourt: Legendes et cultures de heros en grece. P.U.F, Paris, 1942, P.4.
11- Schelling: Introduction a' la philosophie de la mythologie. Traduction: Jankelevitch. Aubier. 1945, Tome1, P.235.
12- Marcel Gnaule: Arts de l'Afrique. Editions Dechene, Paris, 1947, P.108.
13- M. Brehier, cite' par Georges Gusdorf in: Mythe et metaphysique. Introduction a' la Philosophie. Flammarion, Paris, P.305.
14- Mircea Eliade: Aspects du mythe. PP.16-17.
15- Erich Fromm: Le langage oublie': (Introduction a' la comprehension des reves, des contes et des mythes). Tr[illegible] de l'anglais par Simone Fabre. Petite Bibliotheque Payot, Paris, P.10.
16- Georges Gusdorf: Mythe et metaphysique. Introduction a' la Philosophie. P.57.
17- Marcel Detienne: Theories de l'interpretations des mythes XIXe' et XXe' siecle. Dictionaire des mythologies. Sous la direction de Yves Bonnefoy Flammarion, 1981, tome (A-J), P.562.
18- Gilbert Durand: Figures mythiques et visages de l'oeuvre. L'ile Verte. Berg-international, Paris, 1979, P.35.
١٩. إرنست كاسيرر، الدولة والأسطورة، ترجمة أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٢١.
20 Vladimir Grigorieff: Mythologies du monde entier. Collection Marabout Universite'-Alleur-Belgique. 1987, P.24.
21- Jacques Vidal: Mythe, in Dictionnaire des religions. Directeur de la publication Paul Poupard. P.U.F, Paris, 1985, 2eme edition, corrigee, P.1173.
22- Alexandre Krappe: La Genese des mythes. P.27.
23- C.G. Jung et CH. Kerenyi: Introduction a' l'essence de la mythologie. Payot, Paris, 1953, P.16.
24- Marett, cite' par E.O. James. in Mythes et rites dans le Proche-Orient ancien- P.15.
25- Bronislaw Malinowski, cite' par Mircea Eliade in: Aspects du mythe. P.34.
26- Maurice Leenhardt: Dokamo. P.269.
٢٧. إرنست كاسيرر: الدولة والأسطورة، ص ٣٢
28- Georges Gusdorf: Mythe et metaphysique. Introduction a' la Philosophie. PP. 83 et 338.
29- Mircea Eliade. Mythes, reves et mysteres. Collection Folio-essais. Gallimard, Paris, 1989, P.34.
30- Mircea Eliade: Mythe, approche d'une definition. in Dictionnaire des mythologies. Sous la direction de Yves Bonnefoy, Flammarion, tome (K-Z), P.139.
31- Jacques Vidal: Mythe. In Dictionnaire des religions. P.1173.
32- Marcel Detienne: L'invention de la mythologie. Bibliotheque des sciences humaines. N.R.F. Editions Gallimard, 1987, Paris, P.16
33- Andreuw Lang, cite' par Marcel Detienne in: L'invention de la mythologie. P.17.
34- Ibid, P.17.
35- Georges Balandier: Le desordre. Eloge du mouvement. Fayard, Paris, 1988, P.17
36- Isabelle Stengers, cite' par Georges Balandier in: Le desordre P.18.
37- Schelling, cite' par Georges Balandier in: Le desordre. P.19.
38- Georges Gusdorf: Mythe et metaphysique. Introduction a' la Philosophie. PP.335-336.
39- Erich Fromm: Le langage oublie' (Introduction a' la comprehension des reves, des contes et des mythes). P.158

لغة



محمد حسان الطيان
دمشق - سورية

حكى السيوطي في (البغية) أن أبا حاتم السجستاني(١) دخل بغداد فسئل عن قوله تعالى: *قوا أنفسكم وأهليكم*. التحريم:٦. ما يقال منه للواحد؟ فقال قِ، فقال: فالاثنين؟ فقال: قيا. قال: فالجمع؟ قال: قوا، قال: فاجمع لي الثلاثة، قال: قِ، قيا، قوا.

قال وفي ناحية المسجد رجل جالس معه قماش، فقال لواحد: احتفظ بثيابي حتى أجيء، ومضى إلى صاحب الشُّرطة، وقال: إني ظفرت بقوم زنادقة يقرؤون القرآن على صياح الديك. فما شعرنا حتى هجم علينا الأعوان والشُّرطة فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشُّرطة، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر وقد اجتمع خلق من خلق الله، ينظرون ما يكون، فعنّفني وقال: مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا! وعمد إلى أصحابي فضربهم عشرة عشرة، وقال لا تعودوا إلى مثل هذا، فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً، ولم يُقِم ببغداد ولم يأخذ عنه أهلها(٢).

فعل وقى وأمثاله عند الإسناد

سقت هذه القصة لأتوقف عند فعل وقى وما لفّ لفّه مما يسمّى في العربية باللّفيف المفروق إذ تحذف منه فاؤه لدى تصرّفه في المضارع كما تحذف من المثال الواوي (كوعد يعد، وورد يرد) لوقوعها بين عدوتيها الياء والكسرة فيصير: (يقي) ثم يُبنى على حذف حرف العلة من آخره لدى تصرفه في الأمر كما يُبنى كل معتل ناقص كـ (اسعَ، وامشِ، وادنُ) فيصير (قِ) أي إنه يبقى على حرف واحد هو عين الكلمة.

وقد جمع هذه الأفعال ابن مالك صاحب الألفية مبيّناً كيفية إسنادها للواحد المذكر، ثم المثنى مطلقًا، ثم الجمع المذكر، ثم الواحدة ثم جمعها. وذلك في عشرة أبيات طريفة - ليست من الألفية - يقول فيها:

إنّي أقولُ لمنْ تُرجى مودّتُهُ ... قِ المستجير قِياهْ قُوهْ قِي قِين

وإنْ صرفتَ لوالٍ شُغلَ آخرَ قُلْ ... لِ شُغْلَ هذا لِياهْ لُوهْ لِي لِين

وإنْ وشَى ثوبَ غيري قلتَ في ضجرٍ ... شِ الثوبَ ويكَ شِياهْ شُوهْ شِي شِين

وقُلْ لقاتل إنسانٍ على خطأ ... دِ منْ قتلْتَ دِياهْ دُوهْ دِي دِين

وإنْ همْ لمْ يروا رأيي أقولُ لهمْ ... رَ الرأيَ ويكَ رَياه رَوْه رَيْ رَيْن

وإنْ همْ لمْ يعُوا قولي أقولُ لهمْ ... عِ القولَ منّي عِياهْ عُوهْ عِي عِين

وإن أمرْتَ للمُحبِّ بوأيٍ للمُحبِّ فقلْ ... إِ منْ تُحبُّ إِياهْ أُوهْ إِي إِين

وإنْ أردتَ الونَى وهْوَ الفتُورُ فقلْ ... نِ يا خليلِي نِياهْ نُوهْ نِي نِين

وإنْ أبى أن يفي بالعهدِ قلتَ لهُ ... فِ يا فلانُ فِياهْ فُوهْ فِي فِين

وقُلْ لساكنِ قلبِي إنْ سِواكَ بِهِ ... جِ القلبَ منّي جِياهْ جُوهْ جِي جِين(٣)

ذكر هذه الأبيات الشيخ الخضري في حاشيته على ابن عقيل ثم أردفها بالقول: «فهذه عشرة أفعال كلها بالكسر إلا (رَ) فيفتح في جميع أمثلته لفتح عين مضارعه، وكلها متعدية إلا (نِ) فلازم لأنه بمعنى تأنَّ. فالهاء في نِياه هاء المصدر لا المفعول به(٤).

والحقُّ أن هذه الأبيات لا تحيط بكل ما في العربية من أفعال اللفيف المفروق وإنما تقتصر على تسعة منها هي كل ما جاء مكسوراً فيها، أمّا (رَ) وهو المفتوح الوحيد

فيها فليس من هذا الضرب، وإنما هو ناقص مهموز العين، إذ إن أصله (رأى) ومضارعه (يرأى) إلا أنَّ همزته تسقط تخفيفاً فيبقى على (يرى) ثم يبنى على حذف حرف العلة من آخره في صيغة الأمر فيبقى على (ر) ووزنه (فـ) لأن ما سقط منه هو العين واللام خلافاً لسائر الأفعال المذكورة في الأبيات إذ إنَّ وزنها (ع) لأن ما سقط منها هو الفاء واللام.

شواهد على اللفيف المفروق

وأما مبلغ عدة اللفيف المفروق في العربية فهو ثمانية عشر فعلاً وفق ما دلَّ عليه إحصاؤنا للأفعال العربية في المعجم الحاسوبي(٥). يضاف إليها أربعة أفعال لم نثبتها في معجمنا لضعف روايتها وانفراد بعض المعجمات بها. ويبلغ المجموع بها اثنين وعشرين فعلاً، فإذا استثنينا ما جاء في الأبيات السالفة منها، بقي لدينا ثلاثة عشر فعلاً تحتاج إلى مزيد بيان وإيضاح. وسأسردها فيما يلي مشفوعة بأبوابها الصرفية، ومصادرها، ومعانيها المختلفة، مع شواهد لها، محيلاً على أشهر المعجمات التي وردت فيها:

ـ وثى: أورد صاحب اللسان هذا الفعل بمعنى وشى في رواية ـ انفرد بها ابن الأعرابي وهو مولع بالنوادر ـ هذا نصها:

«وثى به إلى السلطان: وشى، عن ابن الأعرابي، وأنشد:

يجمع للرِّعاء في ثلاث
طول الصَّوى وقلة الإرغاث
بينما جمعك للمخاصم المواثي

كأنه جاء على واثاه، والمعروف عندنا أثى»(٦).

بينما عدَّ صاحب القاموس الوثي لغة في الوثء(٧)، وهو وصمٌ يصيب اللحم.

ولا يبلغ العظم فيرم(٨)، قال: «الوثْيُ الوثْءُ ووُثِيَتْ يده بالضم فهي موثيَّة»(٩).

وزاد صاحب التاج «ونصُّ الليث وُثِيَتْ يدُه كرُميت»(١٠).

ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا الحاسوبي السالف الذكر لضعف روايته.

ـ وحى: وحى يحي وحياً. وقد ورد هذا الفعل بعدة معانٍ أشهرها:

أ ـ الإشارة والإلهام: يقال وحَيْتُ إليه الكلام وأوحَيْتُ(١١).

ب ـ الكتابة: يقال وحَيْتُ الكتاب أحيه وحْياً أي كتبتُه. قال العجاج:

حتَّى نحاهم جدُّنا والنَّاحي
لقَدَرٍ كان وحاه الواحي
بثرمداء جهرة الفضاح

جـ ـ الإسراع: وحى وتوحّى بالشيء أسرع(١٢).

ـ وخى: وخى يخي وخْياً إذا توجه لوجه، ووخى الأمرَ: قصده.

أنشد الأصمعي:

قالتْ ولم تقصدْ له ولم تخهْ
ما بالُ شيخ آضَ من تشيُّخهْ
كالكُرَّز المربوط بين أفرخهْ(١٣)؟

وقال الشاعر:

لو أبصرتْ أبكمَ أعمى أضلَّخا
إذا لسمَّى واهتدى أنَّى وخى

أي أنَّى توجَّه(١٤).

ـ وذي: جاء في اللسان: «ابن الأعرابي: هو الوذْيُ والوذِيُّ، وقد أوذى ووذِي(١٥). وهذا الفعل مما استدركه الزبيدي في التاج على القاموس، قال: «ومما يستدرك عليه الوذْيُ.. هو الودي، لما يخرج من الذكر بعد البول، لغة فيه عن ابن الأعرابي، ويشدد أيضاً، وقد وذى وواذى. ونقل ابن القطاع عن ابن دريد وذي الحمار: أدْلى(١٦)

بالدال المهملة، وشهوة وذيَّة كغنيَّة أي حقيرة(١٧)». ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا أيضاً.

ـ وري: ورى يري وريْاً. ووري يري ويورى وريْاً ووريَاً وريةً. وله معانٍ أشهرها:

أ ـ ورى القيحُ جوفه يريه وريْاً أكله، وفي الحديث: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريَهُ خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً».

وتقول منه: رِ يا رجل، وريا للاثنين، ورُوا للجماعة، وللمرأة ري، وللمرأتين ريا، وللنسوة رين، والاسم الورى بالتحريك(١٨).

ب ـ ورت النارُ تري وريْاً وريةً حسنة، ووري الزَّند يري وورى يري ويورى وريْاً ووريَاً وريةً، وهو وارٍ ووريٌّ: اتَّقد. قال الشاعر:

وجدنا زنْدَ جدِّهم وريّاً
وزنْدَ بني هوازن غير واري(١٩)

جـ ـ وري المخُّ كولي: اكتنز(٢٠).

ـ وزى: وزى يزي. وقد عدَّه صاحب القاموس(٢١) واوياً إذ رسم واواً قبله فتعقَّبه الزبيدي بقوله: «(و) هكذا في النسخ وكأنه اغترَّ بما في نسخ الصحاح من كتابة الوزا بالألف فحسب أنه واوي، وقد صرَّح ابن عديس وغيره من الأئمة نقلاً عن البطليوسي أن الوزى يكتب بالياء لأن الفاء واللام لا يكونان واواً في حرف واحد، كما كرهوا أن تكون العين واللام واواً في مثل قووت من القوَّة فردُّوه إلى فعلت فقالوا قويت فتأمل ذلك»(٢٢). ولهذا الفعل معنيان:

أ ـ وزى الشيءُ يزي: اجتمع وتقبَّض(٢٣).

ب ـ وزى فلاناً الأمرُ أي غاظه، ووزاه

الحمدُ: قال يزيد بن الحكم:

إذا ساف من أعْيار صَيْف مصامةٌ

وزاهُ نشيجٌ عندها وشهيقُ(٢٤).

ـ وسى: وسى رأسَهُ وأوساهُ إذا حلقه بالموسى(٢٥)، وهو مما استدركه صاحب التاج على القاموس أيضاً، قال: «ومما يستدرك عليه الوسيُ الحلقُ، وقد وسى رأسَهُ كأوسى(٢٦)».

ـ وصى: وصى يصي وصْياً: وصل واتصل. جاء في اللسان:

ووصى الرجل وصْياً: وصلهُ، ووصى الشيء بغيره وصياً: وصله. أبو عبيد: وصيتُ الشيء ووصلتُه سواء: قال ذو الرمة:

نصي الليل بالأيام، حتى صلاتنا

مُقاسمةٌ يشتقُّ أنصافها السَّفْرُ(٢٧)

ثم قال: «قال الأصمعي: وصى الشيءُ يصي إذا اتّصل، ووصّاه غيره يصيه وصله(٢٨)». وقد انفرد صاحب القاموس بإيراد معنى لهذا الفعل بجعله في زمرة الأضداد، قال: «ووصى كوعى: خسّ بعد رفْعة واتّزن بعد خفّة»(٢٩). إلا أن الزبيدي تعقبه بقوله: «قلت لم أر هذا لأحد من الأئمة وقد مرّ هذا المعنى بعينه في (لشا) عن ابن الأعرابي»(٣٠).

ـ وطى: نصّ عليه صاحب اللسان بقوله: «وطيتُهُ وطاً: لغة في وطئتُهُ»(٣١).

وهو مما استدركه الزبيدي على القاموس حيث قال: «ومما يستدرك عليه: وطيتُه لغة في وطئتُهُ عن سيبويه، وقد تقدّم»(٣٢).

وجاء في مادة (وطأ): «وقرأ بعضهم: طَهْ *ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى*. طه: ١ـ ٢ بتسكين الهاء وقالوا أراد: طأ الأرض بقدميك جميعاً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع إحدى رجليه في صلاته.

قال ابن جني: فالهاء على هذا بدل من همزة طأ»(٣٣).

قلت: وهذه القراءة تنسب إلى الحسن كما جاء في مختصر شواذ القرآن لابن خالويه(٣٤). بينما نسبها أبو حيان في البحر إلى فرقة؛ منهم الحسن وعكرمة وأبو حنيفة وورش في اختياره(٣٥).

وقد أورد أبو حيان في تفسير (طه) على قراءة الجمهور ـ أي طاها ـ قولا يلتقي مع ما جاء في اللسان، قال: «وقيل طا فعل أمر، وأصله طأ الأرض، أي طأ الأرض بقدميك ولا تراوح، إذ كان يراوح حتى تورّمت قدماه»(٣٦).

ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا لأننا استبعدنا اللغات.

ـ وكى: وكى القربةَ وأوكاها وأوكى عليها إذا شدَّ وكاءها أي رباطها(٣٧)، جاء في التاج: «..قال وأوكى رباعيا أفصحُ من الثلاثي كما في الفصيح وغيره. قلت ولذا اقتصر عليه الجوهري(٣٨)».

ـ ومى: ومى يمي. أورده صاحب اللسان بقوله: «الفرّاء: أومى يومي وومى يمي مثل أوحى ووحى»(٣٩). والإيماء الإشارة بالأعضاء. وهو مما استدركه الزبيدي على القاموس في التاج. ولم يرد هذا الفعل في إحصائنا.

ـ وهى: وهى يهي: ووهي يهي وهْياً، كوعى وولي: تخرّق وانشقّ واسترخى رباطُه. قال ابن هرْمة:

فإنْ الغيثَ قد وهيتْ كُلاهُ

ببطحاء السّيالة فالنظيم(٤٠)

ـ يدي: يدي يدي، ويدي ييْدى. ينصرف من بابين ولكل منهما معنى أو أكثر:

أـ يدي فلانٌ من يده كرضي: ذهبت يده ويبستْ، ومنه قول الكميت:

فأيُّ ما يكنْ يكُ وهْو منّا

بأيدٍ ما وبطْنَ ولا يدينا(٤١)

ب ـ يَدَيْتُ الرجل يدْياً: أصبت يده أو ضربتها فهو ميْديُّ.

ويديتُ الرجل: اتخذت عنده يداً، كأيديت عنده يداً فأنا مودٍ وهو مودىً إليه.

قال بعض بني أسد:

يديتُ على ابن حسحاس بن وهْبٍ

بأسفلِ ذي الجِذاةِ، يدَ الكريمِ

وأنشد شمر لابن أحمر:

يدٌ ما قد يديتُ على سكَينٍ

وعبدِ الله، إذ نهشَ الكُفوفُ(٤٢)

أفعال أخرى تبقى على حرف واحد

وبعد فليس هذا الضرب من الأفعال ـ أعني ما يبقى على حرف واحد في صيغة الأمر ـ مقصوراً على اللفيف المفروق، بل تدخل فيه أنواع صرفية أخرى كما رأينا في (رأى) التي تصبح على (ر) وكما ذكر ابن جني في (بأى) التي تخفف في الأمر فتغدو (ب). وعليه فإن معظم حروف العربية يمكن أن تستعمل على هذا النحو، وقد أفرد لها ابن جني فصلاً من كتاب سر الصناعة عنونه بقوله: «وهذا فصل لإفراد الحروف في الأمر ونظمها على المألوف من استعمال حروف المعجم» أتى فيه على حروف العربية حرفاً حرفاً، ونصّ على إغفال ما أغفل منها ـ أي لم يستعمل منه فعل أمر. وهي سبعة أحرف: (الضاد والطاء، والظاء، والغين والواو، والمدّة، والياء). وكل هذه الحروف مهمل في المعجمات أيضاً عدا الطاء، فقد ورد لغة في وطئ كما تقدّم.

إن إنعام النظر في جملة ما ورد من هذه الأفعال في العربية يفضي بنا إلى ملاحظة جملة من الأمور أهمها:

ـ كل هذه الأفعال واوي الفاء، عدا

الأخير وهو (يدي) فيائيٌّ، ولم يمنع ذلك من وجود (ودي) الواوي.

- جل هذه الأفعال يتصرف من باب ضرب (الباب الثاني: فتح كسر) وبعضها يجمع إليه باب حسب (الباب السادس: كسرتان) فيتصرف من بابين (كوري ووهي) وبعضها يقتصر على الباب السادس (كولي). وفي جميع ذلك ينبغي حذف الفاء لوقوعها بين عدوتيها كما سلف بيانه، غير أن هناك فعلاً واحدًا اقتصر تصرفه على باب علِم (الباب الرابع: كسر فتح) وهو: (وجي يوجى) بمعنى حفي، مما يقتضي ثبوت الفاء فيه في صيغتي المضارع والأمر لعدم وقوعها بين عدوتيها؛ إذ انفتح ما بعدها. على أن ابن مالك لم يستعمل هذا الفعل في أبياته السالفة بهذا المعنى، وإنما استعمله بمعنى اللكز والقطع، مما يدل على أنه تسهيل لفعل (وجأ يجأ)(٤٣). وهو أيضًا مفتوح العين، وإن حذفت فاؤه كما حذفت من يهب ويضع، مما يقتضي فتح العين في صيغة الأمر أيضًا، فنقول منه (جَ) يا فلان وليس (جِ) كما ورد في الأبيات، وعليه فثمة فعلان مفتوحان لا فعل واحد كما جاء في حاشية الخضري في النقل المتقدم. إلا أن ابن جني حكى لغةً لبعض العرب جا يجي) بغير همز ثم قال: «فإذا أمرت قلت: جِ يا رجلُ، وجِيا، وجُوا، وجِي يا امرأة، وجِيا، وجِينَ، ، فاعرفه»(٤٤).

وقبل أن أختم القول عنَّ لي أن أنظم ما فات ابن مالك رحمه الله نظمُهُ من هذه الأفعال، فقلت محاكيًا نظمه:

إنّي أقولُ لمنْ طالت قطيعتُهُ
صِ الرَّحْمَ ويكَ صِياهْ صُوهْ صي صِينَ
وإنْ وشَيْتَ بقومٍ مفسدين فقلْ
شِ بالمسيء شِياهْ شُوهْ شي شِينَ
وإنْ أمرتَ بكَتْبٍ للكتاب فقلْ
حِ يا صديقي حِياهْ حُوهْ حِي حِينَ
كذا تقولُ من الإيماء في خفرٍ
مِ يا خليلي مِياهْ مُوهْ مِي مِينَ
وإنْ أشرتَ بقصدٍ للمسيرِ فقلْ
غِ الدربَ نهجًا غِياهْ غُوهْ غِي غِينَ
وإن فرغتَ من الإحرامِ نُودي بي
سِ الرأسَ حالاً سِياهْ سُوهْ سِي سِينَ
وإنْ قصدتَ اتّقادَ الزَّنْد قلتَ له
رِ يا زُنَيْدُ رِياهْ رُوهْ رِي رِينَ
وقلْ لمن يُكثرُ الإسرافَ في بَطَرٍ
كِ الكيسَ ويكَ كِياهْ كُوهْ كِي كِينَ
وقلْ للابسِ ثوبٍ بعدَ طولِ بِلى
هِ الثوبَ ويكَ هِياهْ هُوهْ هِي هِينَ
وإنْ أمرتَ بغيظٍ للعدوّ فقلْ
زِ القومَ جمعًا زِياهْ زُوهْ زِي زِينَ
وقلْ لمن يزدهي كبرًا وعجرفةً
طِ التُّربَ ويكَ طِياهْ طُوهْ طِي طِينَ

الهوامش والمراجع

١. الإمام العلامة سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ثم البصري مقرئ نحوي لغوي أخذ عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي ويعقوب الحضرمي، وتصدر للإقراء والحديث والعربية. حدث عنه أبو داود النسائي وعدد كثير، وتخرج به أئمة منهم المبرد. وله باع طويل في اللغات والشعر والعروض واستخراج المعمى. خلف آثارًا كثيرة منها: إعراب القرآن، والمقصور والممدود، وما يلحن فيه العامة، والقراءات، واختلاف المصاحف. وكان يقول قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين. توفي سنة ٢٥٥هـ. سير أعلام النبلاء ١٢/٢٦٨ - ٢٧٠. وانظر طبقات النحويين واللغويين للزُّبيدي ٩٤ - ٩٦، وبغية الوعاة ١/٦٠٦.
٢. بغية الوعاة ١/٦٠٦.
٣. حاشية الخضري على ابن عقيل ٣١، وحاشية تشويق الخلان على شرح الأجرومية ٩٤. والفضل في تنبيهي على مصدر هذه الأبيات ينصرف إلى شيخنا العلامة محمد صالح الفرفور رحمه الله تعالى وجزاه الجزاء الأوفى.
٤. حاشية الخضري ٣١.
٥. انظر «إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي» ص٢٤.
٦. اللسان (وني).
٧. القاموس (ولي).
٨. اللسان (وثا).
٩. القاموس (وني).
١٠. التاج (وني).
١١. اللسان والتاج (وحى).
١٢. اللسان والقاموس (وحى).
١٣. اللسان (وخى). وفي القاموس: «وتوخَّى رضاه: تحرَّاه، كوخاه».
١٤. اللسان (وخى وصلخ) والتاج (وخى).
١٥. اللسان (وذي).
١٦. أدلى الفرس وغيره: أخرج جردانه ليبول أو يضرب. اللسان (دلا).
١٧. التاج (وذي).
١٨. اللسان (وري).
١٩. القاموس (وري).
٢٠ القاموس (وزا).
٢١. التاج (وزي).
٢٢. اللسان (وزي).
٢٣. اللسان (وسي).
٢٤. التاج (وسى).
٢٥. اللسان (وصي).
٢٦. اللسان (وصي).
٢٧. القاموس (وصي).
٢٨. التاج (وصى).
٢٩. اللسان (وطي).
٣٠. التاج (وطى).
٣١. اللسان والتاج (وطأ).
٣٢. مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ٨٧.
٣٣. البحر المحيط ٦/٢٢٤.
٣٤. اللسان والقاموس (وكي)
٣٥. التاج (وكى).
٣٦. اللسان (ومي)
٣٧. التاج (ومي).
٣٨. اللسان والقاموس (وهى).
٣٩. وبطن: ضعف، وبدن: شخلن. اللسان والتاج (يدي).
٤٠. اللسان (يدي).
٤١. سر الصناعة ٢/٨٢٢.
٤٢. سر الصناعة ٢/٨٣١.
٤٣. جاء في اللسان (وجأ) تعليقًا على حديث: «فيه ضحى بكبشين موجوءين». «ومنهم من يرويه موجيين بغير همز على التخفيف، فيكون من وجيته وجيًا فهو موجي».
٤٤. سر الصناعة ٢/٨٢٣ - ٨٢٤.

دور البيئة الإسلامية في تطوير علم الفلك

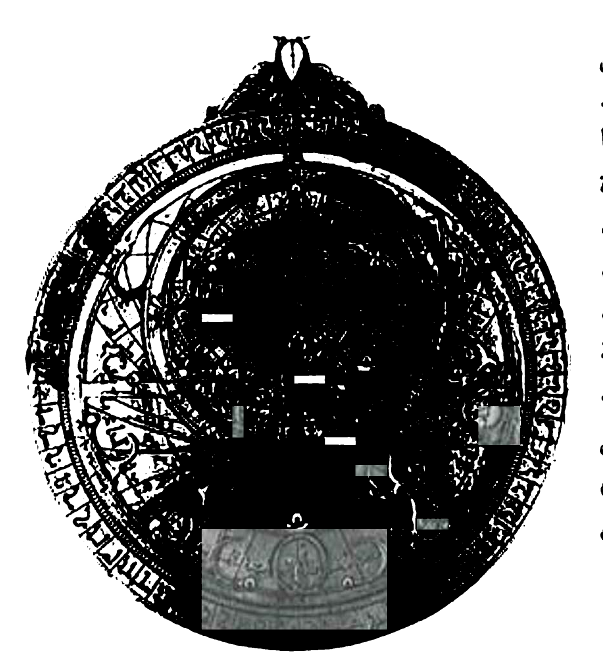
عبدالأمير المؤمن
قم - إيران

أفرزت حضارتنا الإسلاميه عدداً من العلوم التي كانت لها السيادة المطلقة في العصور الوسطى، ومن بين تلك العلوم ميَّز الباحثون والمتخصصون «علم الفلك الإسلامي»، وعدّوه في طليعة علوم الحضارة الإسلامية. ونحن لا نشك أن البيئة - وهي بيئة خاصة إذا قيست بالبيئات الأخرى - أدّت دوراً مهماً وكبيراً في تلك السيادة، ولاسيما السيادة العظمى التي حظي بها علم الفلك عند المسلمين.

والمستقرئ للتراث الفلكي الإسلامي ستأخذه الدهشة للعدد الكبير من المصادر التي خلّفها لنا الأجداد، والكمية والنوعية المثيرة للإنجازات التي أبدعها علماء الفلك المسلمون، وسيقرأ الآراء الكثيرة - ولاسيما آراء المستشرقين - التي تؤكد قيمة الفلك الإسلامي ومضامينه العلمية الإبداعية، ودورها في تطوير علم الفلك الحديث الذي قام أساساً على علم الفلك العربي الإسلامي.

البيئة المعرفية خارج الحضارة الإسلامية

كانت هناك عدة بيئات معرفية خارج الحضارة الإسلامية، عاش فيها الفلك، سواء أكان علماً أم معارف لم تنتظم في إطار علمي، ولكنها على عمومها لم تكن بيئات صالحة لتطور علم الفلك كما ينبغي أن يتطور.



فقد عُرف الفلك أو الملاحظات الفلكية البدائية (معرفة الشمس والقمر والكواكب والنجوم وبعض الظواهر الكونية) منذ الأقوام البدائية الأولى، عُرف معرفة بدائية، لم تتجاوز كثيراً التمييز بين هذا الكوكب وذاك، أو بين هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر، وكانت تلك المعرفة البسيطة ممتزجة بشكل متشابك مع الخرافة والوهم وما شاكلهما من خزعبلات.

وعُرف بشكل مفصّل نسبياً في البيئات الحضارية اللاحقة، عرف في الحضارة الهندية والفارسية والصينية وحضارة أمريكا الوسطى، ولكنه كذلك كان مزيجاً ومركباً من أفكار خرافية أسطورية غريبة عن العلم، أما في البيئتين البابلية والمصرية القديمة، فكان أكثر تطوراً، فقد عرفت هاتان الحضارتان كثيراً من الأسس والأوليات الرياضية والفلكية، فعرف المصريون حركات الكواكب ومواقعها، وعرفوا التقويم وبعض الآلات الفلكية، وكان البابليون أبرع من المصريين في هذا الحقل، فقد

أنجزوا قياسات دقيقة للنجوم والكواكب، وقدموا معلومات فلكية كثيرة. تقول مرجريت روثن: «يمكننا القول اليوم: إنه من بين سائر العلوم التي أنشأها البابليون واستخدمها الكلدانيون يحتل علم الهيئة مكانة مرموقة لا تعلو فوقها سوى الرياضيات»(١). ومع كل ذلك كان الفلك البابلي ممزوجاً بشكل كبير بأفكار غير علمية طقوسية تنجيمية(٢).

ولم تكن البيئة الإغريقية اليونانية بيئة علمية خصبة ملائمة لتطور علم الفلك، على الرغم من التطور النوعي الذي حدث في المنهج قياساً بالمعارف الفلكية السابقة (الحضارات القديمة المذكورة). لقد قدم اليونانيون مادة فلكية جيدة، بنوها فوق تراكم المادة الفلكية الموروثة من البيئات السابقة، ولا سيما البيئتين البابلية والمصرية. وكان لديهم مفكرون وفلكيون ممتازون من أمثال أفلاطون، وأرسطو، وأرسطرخس، وهيبارخوس، وبطليموس، وغيرهم. إلاّ أن بيئتهم اليونانية لم تكن صالحة كذلك لنمو فلك علمي قائم على الأرصاد والملاحظات الميدانية وتطوره.

لقد قدم اليونانيون مادة فلكية جيدة، بنوها فوق تراكم المادة الفلكية الموروثة من البيئات السابقة، إلاّ أن بيئتهم اليونانية لم تكن صالحة كذلك لنمو فلك علمي قائم على الأرصاد والملاحظات الميدانية وتطوره

كانت بيئتهم فكرية، رياضية، نظرية مجرّدة تهتم أكثر ما تهتم بالجمال والكمال والتناسق والآلهة المتعددة والقوى الخفية البعيدة كل البعد عن الميدان والمرصد والملاحظات والأرصاد. وكان فلكهم مزيجاً من العلم وغيره. كان في الحقيقة فلكاً تنجيمياً، على الرغم من العناصر العلمية الممتازة الموجودة فيه. يقول سارطون في وصف البيئة اليونانية: «فعرفوا قوى الطبيعة المخبأة في جميع مظاهرها حق المعرفة (الشمس والقمر والرياح والمطر والرعد والزلازل) وشغفوا باجتلاب رضاها بالطقوس والتعاويذ المناسبة، وابتكروا احتفالات خاصة لنجاح النسل والصحة وطول العمر والاتصال بالآلهة»(٣).

في هذه البيئة عاش الفلك، فمثلاً كان أفلاطون يعتقد أن كل روح تنتمي إلى نجم معين(٤) واعترف أرسطو بالتأثيرات النجمية في الحياة اليومية(٥).

وكان هيبارخوس، الملهم الحقيقي لبطليموس، يعتقد بوجود صلة بين الأرواح والنجوم(٦)، أما بطليموس الذي انتهت إليه النظرية الفلكية القديمة وعرفت باسم (نظرية بطليموس) فقد درس الفلك دراسة نظرية مجردة، بعيدة عن الميدان والمرصد، والمنهج الحقيقي المناسب لدراسة الفلك متأثراً في ذلك بأسلافه، مما جمّد الفلك قروناً طويلة. وقد تحدثنا عنه في عدد سابق من «مجلة الفيصل»(٧).

إن بيئة يغلب عليها الطابع النظري المشوب بالخرافة والآلهة المزيفة لا تناسب علم الفلك. إن حياة الفلك هي الأرصاد والملاحظات والمتابعات الميدانية، ولا تعيش هذه الأمور في غير الميدان والمرصد. وهذا لا يعني أن اليونانيين لم يمارسوا الأرصاد والمتابعات بشكل كامل، بل مارسوها ولكن بشكل جزئي، فضاعت في ظل الرياضة والفكر المجرد والاهتمام بالجمال والكمال، مما جعلهم يدورون في حلقة مفرغة، ولم يستطيعوا أن ينقلوا الفلك إلى مرحلة تطور هذا العلم.

البيئة الإسلامية
مرحلة معرفية جديدة

كان ظهور الإسلام على مسرح الحياة نقطة حاسمة وجديدة على مستوى التاريخ كله، فهو حد فاصل بين زمنين مختلفين: زمن ما قبل الإسلام بما يحتويه من حضارات وأمم مختلفة وزمن الإسلام وما بعده.

فعلى مستوى الحياة المعرفية، كان عالم ما قبل الإسلام - كما ذكرنا - مملوءاً بالقيم السلبية والتقليد الأعمى والخرافات والشعوذات والقوى والأرواح والأشباح الوهمية وكانت تلك القيم السلبية حجر عثرة في وجه العلم، أعاقته عن التطور اللازم ووقفت في سبيل مسيرته الاستقرائية والتجريبية.

وجاء الإسلام فتغير الحال، بدأ يحارب الخرافة وتقليد الآباء، والقول بالظن، قال تعالى في ذم التقليد الأعمى: *وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون*. البقرة: ١٧٠.

وقال عزّ من قائل في أهمية مسؤولية الحواس والفؤاد: *ولا تقفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولا*. الإسراء: ٣٦.

وقال عز وجل في إنكار الظن: *قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتّبعون إلاّ الظنّ وإن أنتم إلاّ تخرصون*. الأنعام: ١٤٨.

لقد جاءت هذه الآيات وأشباه لها كثيرة في القرآن الكريم بمنزلة جرس إلهي أيقظ العقول من نومها العميق على خرافات العالم القديم وأوهامه. ونبهتها على عالم آخر، عالم خال من الشوائب والمكدرات.

وجاءت آيات أخرى من نوع آخر،

فأكدت الجانب الإيجابي من المعرفة، جاءت لتؤكد تكامل اليقظة المعرفية التي حملها القرآن الكريم، فأكبرت أكثر ما أكبرت العلم والعلماء وقيمتهم العالية، والحث على طلب العلم وتقدير العلماء.

قال تعالى في العلم: *وقل رب زدني علماً*. **طه: ١١٤.**

وقال في العلماء: *يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات*. **المجادلة: ١١.**

وقال أيضاً: *هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون*. **الزمر: ٩.**

بمثل تلك التأكيدات والحث على العلم، كانت تأكيدات الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم قال: «لا بورك لي في صبيحة يوم لا أزداد فيها علماً»(٨).

وقال أيضاً: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء»(٩).

ولن نسترسل في ذكر المزيد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تحث على العلم، وتؤكد أهمية العلماء، ففي القرآن المجيد والحديث الشريف المزيد من تلك المعاني القيمة.

لقد تميز ديننا الإسلامي الحنيف بميزة فريدة لا تجدها في الديانات السماوية الأخرى، وإذا وجدتها فهي ضعيفة لا تشكل ظاهرة صميمية كما في ديننا الحنيف. ففي بيئتنا الإسلامية امتزج الدين بالعلم امتزاجاً محكماً، امتزج الدين الصافي المستمد من القرآن الكريم والصحيح من الحديث الشريف (وكلها نصوص ومعان مقدسة) بالمعرفة الصافية أيضاً، البعيدة عن تقليد الآباء وظنون الظانين وأوهام المتوهمين، وقد وفرت هذه الحالة (وأساسها الإيمان المطلق بكتاب الله وأقوال رسوله) بيئة صالحة لنشوء منظومة من العلوم والمعارف ونموها، على درجة عالية من الدقة والإتقان. كانت بدايتها تلك العلوم الإسلامية الأصيلة (العلوم النقلية)، ثم كانت (العلوم العقلية)(١٠).

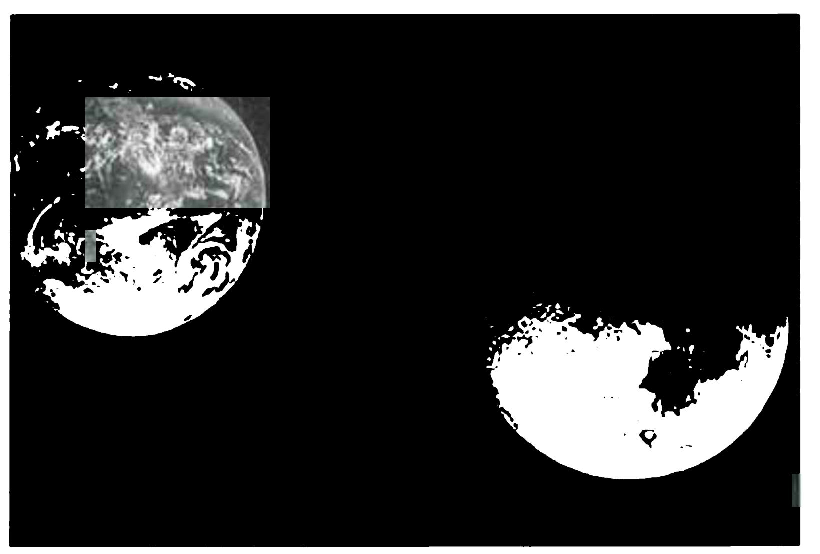
إن ظهور هذه المنظومة من العلوم، وبشكلها المتقن والسريع، دليل على حضور البيئة المعرفية الصالحة لنمو العلم وتطوره. وهذه الحالة الجديدة لم تكن متوافرة قبل الإسلام.

البيئة الإسلامية تفعّل الموروث الفلكي

العملية التغييرية الكبرى التي جاء بها الإسلام أدت على المستوى الثقافي - كما ألمحنا - إلى ظهور منظومة معرفية من نوع جديد؛ فمن ناحية انبثق من صميم الإسلام عدد من العلوم اللازمة لتفعيل الدين وإغنائه بالتفاصيل الضرورية، فمن خلال فهم المسلمين القرآن والحديث الشريف أنشؤوا علوماً خاصة بهم، أصيلة لم يأخذوها من غيرهم، كعلم الفقه والأصول والتفسير والقراءات والحديث وأصول الدين وغيرها، إضافة إلى لواحقها من علوم لغة وبلاغة وعروض ونحو وصرف.

ومن وحي المنهج القرآني المحكم تميزت هذه العلوم بالدقة والتثبت ودراسة السند والمتن، والاستناد إلى الأدلة والبراهين، مما رسخ في عقول المسلمين قواعد أساسية (إيمانية وعلمية) كانت أساساً متيناً استند إليه المسلمون في نقلهم النوع الثاني من العلوم (العلوم العقلية) (علوم الأجانب).

فحين أخذوا من علوم الأجانب ما احتاجوا إليه في بناء حضارتهم، أخذوه وفق أصولهم وقواعدهم الإيمانية والعلمية. فأخذوا - مثلاً - الفلك والهندسة والطب وغيرها من العلوم المباحة، ورفضوا - مثلاً: الأداب والتاريخ، وخاصة من اليونانيين، وذلك بسبب ذكرهم الآلهة والأوثان كما يقول جرجي زيدان(١١).



ارتباط بعض الأحكام الشرعية بالشمس والقمر زاد من اهتمام المسلمين بعلم الفلك

لقد دفعهم الدين الجديد إلى مزيد من المعرفة، بشرط ألا تتعارض مع عقيدتهم وأسسهم الإيمانية، فاندفعوا إلى التقاطها من مظانها.

فعلى مستوى الفلك كان لدى المسلمين موروث فلكي عاشوه ومارسوه في جزيرتهم العربية، لكنه قليل محدود لا يرضي طموحاتهم وما يحتاجون إليه في بنائهم الحضاري، فراحوا يسعون

وراء المزيد على ما خلّفه الأولون مما كان في المنطقة والجوار الجغرافي في الإسكندرية، وأنطاكية، وجنديسابور، وحرّان، وغيرها، وما وفد إليهم حين استتب الوضع أيام العباسيين.

وعندما حثّ القرآن على العلم، ولاسيما النافع منه، اندفع المسلمون، بتشجيع من الخلفاء، وراء كل علم يساهم في بناء مستقبلهم الصاعد، وقد كان للفلك حصة الأسد في الترجمة، إذ تُرجم عدد من الكتب الفلكية من الهند وبلاد فارس واليونان، ويذكر نالينو أن أول كتاب فلكي تنجيمي ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب (عرض مفتاح النجوم) المنسوب إلى هرمس الحكيم، وكان ذلك قبل انقراض الدولة الأموية بسبع سنين(١٢)، ثم تتالت الترجمات. فيذكر المؤرخون أنه قدم على المنصور سنة ١٥٦هـ رجل من الهند عالم بالحساب والنجوم، ومعه كتاب فلكي تنجيمي يحتوي على اثني عشر باباً، فأمر المنصور بترجمته إلى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري (ت: نحو ١٨٠هـ) وعمل كتاباً سماه المنجمون «بالسندهند»(١٣). ثم ترجمت كتب فلكية وتنجيمية أخرى فارسية ويونانية، وأشهر الكتب المترجمة كتاب «المجسطي» لبطليموس الفلوذي الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، وبذا كانت هذه الترجمات، إضافة إلى الموروث العربي، مادة أولية لبناء فلك إسلامي.

وعلى الرغم مما في تلك الترجمات من شوائب تنجيمية وروح غريبة فإن المسلمين حين نقلوها واستخدموها، طبعوها بطابعهم أو هذّبوها؛ فالكتاب الهندي الفلكي الوافد لم يبق نفسه، وإنما اختصره الفزاري وألف منه كتاباً آخر كما ذكرنا، وحين أدخل الفلكي مسلمة المجريطي الأندلسي زيج الخوارزمي إلى الأندلس صرف تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، ووضع فيه أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة(١٤).

وهنا لا بد أن نذكر أن الفلك الذي أخذه المسلمون كان ممزوجاً بالتنجيم غير المقبول إسلامياً، ففي البداية ترجم المسلمون ما توافر لديهم من مادة فلكية، حيث لم تكن العلوم قد أخذت استقلالها بعد؛ بل كل واحد له خطه الخاص، ولكن حين انتظمت العلوم ونضجت، بدأ المسلمون يميّزون بين هذا العلم وذاك، فأكدوا الفلك وناصروه لتأكيد القرآن عليه، وعارضوا التنجيم وحاربوه استناداً إلى رفض القرآن للخرافة، وما ورد في حقه من الأحاديث وأقوال العلماء كما بينا في كتاب لنا(١٥)، وأخذ كل علم خطه الخاص به، فنما الفلك وخاصة زمن الخليفة المأمون المتوفى سنة ٢١٨هـ، حيث أنشأ المراصد، وأمر الفلكيين بإعادة النظر في الجداول الفلكية الوافدة، فقاموا بأرصاد كثيرة، وبدؤوا بكتابة أزياج (جداول) جديدة، فيها كثير من الدقة، وتراكمت المعلومات والملاحظات مما جعله فلكاً علمياً رصدياً، على الرغم من وجود التنجيم - المرفوض قرآنياً وإسلامياً - في الخط الآخر.

عوامل جديدة تدفع الفلك

لماذا اندفع علم الفلك عند المسلمين تلك الاندفاعة النوعية، حتى عُدّ أهم فلك قبل العصر الحديث؟ يمكن أن نجمل الجواب ونختصره بعبارة: (الوضع الجديد) أو (الدين الإسلامي) من قرآن كريم وحديث شريف. وقد ولّد هذا الدين مرتعاً خصباً لنمو علم الفلك وتطوره، لم يكن متوافراً من قبل قطعاً، كما ذكرنا.

ومن خلال هذا الوضع الجديد يمكن أن نسجل عاملين أساسيين جديدين دفعا علم الفلك إلى النمو والتطور ولولاهما لما وصل، في اعتقادنا، إلى تلك المرحلة العلمية المتقدمة. وهذان العاملان - إضافة إلى الجو العلمي العام الذي وفّره القرآن - هما:

- الآيات الشريفة التي حثت وبشكل مكثف على النظر في السماء والأرض والأجرام السماوية والظواهر الكونية الكثيرة. ويلحق بالآيات أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم الداعمة لتلك الآيات.

- علاقة بعض الأحكام الشرعية الإسلامية ببعض الظواهر الفلكية؛ فعلى مستوى العامل الأول، نجد آيات كثيرة جداً تحث على النظر في السماء والاعتبار بتلك الأجرام الجميلة والمثيرة. وبعض تلك الآيات يعطي أهمية للسماء أكبر من تلك التي يحظى بها الإنسان، قال تعالى: *أأنتم أشدّ خلقاً أم السماءُ بناها*. النازعات:٢٧، وفي آية مشابهة قال تعالى: *لَخلقُ السموات والأرض أكبرُ من خَلق الناس، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون*. غافر:٥٧.

أما الآيات الكونية التي تحث على النظر في السماء والتفكّر في أجرامها وظواهرها فأكثر من أن تحصى، ويمكن أن نذكر منها قوله تعالى: *أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فُروج*. ق:٦، وقوله أيضاً: *تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً*. الفرقان: ٦١، وقوله عز وجل: *خلق السموات والأرض بالحق يُكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمى*. الزمر:٥.

وقوله أيضاً: *وآية لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهار فإذا هم مُظلمون، والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم. والقمرَ قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرجون*

القديم، لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌ في فلك يسبحون. يس: ٣٧ـ٤٠.

وهناك أخرى غيرها، والآيات التي تتحدث عن السماء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والظواهر الكونية كثيرة جداً، وقد كتبت فيها كتب عدة تحت عنوان: الآيات العلمية أو الكونية أو الفلكية أو ما شابهها.

أما أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقد قدمت لنا أيضاً معلومات وحقائق فلكية، وحثتنا على النظر في السماء، منها: قول الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه وكانوا يتفكرون في الخالق: «تفكروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق، فإنه لا يحيط به الفكر، تفكروا في خلق السماوات سبعاً والأرضين سبعاً وثخانة كل أرض خمسمئة عام وثخانة كل سماء خمسمئة عام، ومابين كل سماءين خمسمئة عام..»(١٦).

وقد أدّت تلك الآيات وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم دوراً مهماً في تقريب الفلك إلى النفوس والعقول، وقد عد بعضهم أن الفلك كله هو تفسير لبعض الآيات الفلكية.

أورد الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ): «أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الأبهري (وقراءة المجسطي تعني دراسة فلك بطليموس مؤلف المجسطي)، فقال بعض الفقهاء يوماً: ما الذي تقرأ منه فقال: أفسر آية من القرآن، وهي قوله تعالى: *أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها*. ق: ٦. فأنا أفسر كيفية بنيانها، ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلاً في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علماً بجلال الله تعالى وعظمته»(١٧).

إنّ حبّ المسلمين لقرآنهم، واهتمامهم به قراءة وحفظاً وتتبعاً لمعانيه وأسراره كانا من دون شك عاملين مهمين جداً في التأثر بمعانيه المختلفة ولا سيما تلك الواضحة القريبة إلى العقول والقلوب، كالآيات الفلكية المتنوعة، وهذا الحب والصلة الحميمة بالقرآن ساعدا على المضي قدماً في البحث الفلكي وتطوره.

أما على مستوى العامل الثاني (علاقة بعض الأحكام بالفلك) فيمكن القول إنّ هناك ولادة جديدة ساهمت بشكل مباشر في تطوير علم الفلك، تلك الولادة انبثقت من رحم الدين الإسلامي الحنيف. فمن خلال ضبط بعض المسائل الشرعية المتعلقة بالفلك، اندفع المسلمون إلى البحث عن حلول فلكية لمسائل عويصة لم يستطع الفلك اليوناني حلّها؛ فقد أصبح المسلم، من حيث يريد أو لا يريد، مضطراً لمتابعة كثير من الإشكالات الفلكية، فهناك عددٌ من الأحكام الشرعية ترتبط بشكل مباشر بالشمس أو بالقمر، أو بظواهر فلكية أخرى، سيتعرض المسلم دون التحري الكافي لضبطها إلى الوقوع في الحرام.

إنّ الصلاة فريضة تتكرر خمس مرات في اليوم، وترتبط بشكل مباشر بطلوع الشمس وغروبها، وتختلف أوقاتها من بلد إلى آخر ومن يوم إلى يوم، وعلى أساس ذلك يجب أن يعرف المسلم عرض البلد الجغرافي، وحركة الشمس في دائرة البروج وأحوال الشفق الأساسية، إضافة إلى ذلك يجب على المصلي أن يتجه إلى القبلة في مكة المكرمة، وهذا يستدعي أن يعرف المسلم سمْتَ القبلة، ولا يحصل ذلك إلا بحل مسألة من مسائل علم الهيئة الكروي، قائمة على حساب المثلثات، إضافة إلى ذلك أيضاً، هناك صلوات أخرى وهي صلاة الخسوف والكسوف وصلاة الخوف (الآيات) ومن وجوبها يحصل حسن التأهب لها قبيل الكسوف والخسوف، ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة حساب حركة هذين الجرمين واستخدام الجداول الكافية، وهناك الصوم ومشكلة رؤية هلالي رمضان وشوال، ومشكلة عيد الفطر وعيد الأضحى، كل هذه الأمور تستدعي رؤية الهلال ومتابعته(١٨).

وفي هذه العلاقة بين الأحكام الشرعية والمسائل الفلكية وأثرها في اهتمام المسلمين بالفلك، يقول المستشرق نالينو: «إن ارتباط بعض أحكام الشريعة بالمسائل الفلكية زاد المسلمين اهتماماً بمعرفة أمور السماء والكواكب»(١٩).

كان للفلك حصة الأسد في الترجمة، إذ تُرجم عدد من الكتب الفلكية من الهند وبلاد فارس واليونان، ويذكر نالينو أن أول كتاب فلكي تنجيمي ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب (عرض مفتاح النجوم) المنسوب إلى هرمس الحكيم

إن هذين العاملين جديدان كل الجدة، خرجا من رحم الإسلام، ومن قلب الدين الإسلامي، لم تعرفهما الأديان والحضارات السابقة، وقد أديا دورهما أحسن أداء، لا على مستوى تطوير علم الفلك وحسب، وإنما إضافة إلى ذلك، كانا حصنين استند إليهما علم الفلك الإسلامي في استمراره، فهما اللذان أعطيا الشرعية للاشتغال بعلم الفلك في الحضارة الإسلامية، وإلا كان يمكن أن يناله ما نال بعض العلوم من ذم ومعارضة.

تطور الفلك وازدهاره

لو وازنّا بين الفلك القـــديم والفلك الإسـلامي، على مـسـتـوى المنهج والإنجازات، لوجدنا فارقًا نوعيًا واضحًا بين الاثنين، فبعد أن كان الفلك السابق للإسلام غارقًا في بحر الخرافة والأرواح والأشباح والآلهة والتنجيم، تداخلت فيه تلك الأمور في نسيج معقد - كما مر بنا -، جاء الفلك الإسلامي ليفرّق بين علم الفلك الصحيح والتنجيم الخرافي، ويعطي كل واحد حقه، فيصنّف علم الفلك أو علم الهيئة إلى جانب العلم والشرعية، ويصنّف التنجيم إلى جانب الأمور غير المقبولة والمحظورة.

فمن حيث المنهج اعتمد الفلك الإسلامي منهجًا علميًا يناسب موضوعه، فأنشأ المسلمون المراصد الفلكية في كل مكان: في بغداد، ودمشق، والقاهرة، وأصفهان، ومراغة، وسمرقند، وغيرها(٢٠)، واستخدموا - في سبيل الحصول على نتائج دقيقة - الآلات الفلكية المتنوعة التي ورثوها عن أسلافهم، والتي أبدعتها أيدي علماء الحضارة الإسلامية وعقولهم، وهي كثيرة منها: الإسطرلابات، وأدوات الحلق، وأرباع الدائرة وما إليها وكانت النتائج أزياجًا فلكية (جداول فلكية) كثيرة متنوعة، سجل فيها الراصدون نتائج رصدهم لحركات الأجرام التي رصدوها ومواقعها.

وبذلك حين جاء الغرب أخذ يترجم تلك الأزياج والكتب الفلكية المهمة، لأنها أدق الأزياج والكتب، وأفضل ما أفرزه العالم من فلك.

أما من حيث الإنجازات فكانت كثيرة جمّة، نالت إعجاب العالم والعلماء، يقول سيديو: «لقد توصل فلكيو بغداد في نهاية القرن العاشر إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه إنسان في رصد السماء وما دار فيها من كواكب ونجوم بالعين المجردة، دون اللجوء إلى عدسات مكبرة أو منظار»(٢١).

ويمكن أن نعدّ من تلك الإنجازات:

- الملاحظات والتصحيحات الكثيرة التي طالت الفلك الأجنبي الوافد من خارج العالم الإسلامي، فهناك نقود وملاحظات عبدالرحمن الصوفي في تسجيله لصور الكواكب السماوية القديمة، ونقود وملاحظات العلماء والمفكرين على النظرية الفلكية القديمة، كملاحظات ونقود ابن الهيثم، وجابر بن الأفلح، ونور الدين البطروجي، وابن رشد، وعلماء مدرسة مراغة، والفلكي ابن الشاطر وغيرهم، ولعل ما في اسم كتاب «الشكوك على بطليموس» لابن الهيثم، و«إصلاح المجسطي» لابن الأفلح خير دليل على ملاحظات المسلمين على الفلك اليوناني، وكان من نتائج تلك الملاحظات والنقود، التمهيد لإسقاط نظرية مركزية الأرض على يد الفلكي البولندي كوبرنيكوس في القرن السادس عشر الميلادي.
- الإيمان الكامل بكروية الأرض مع الأدلة الكافية على ذلك، وقياس محيطها قياسًا علميًا زمن المأمون العباسي، والإشارة إلى دورانها حول محورها، (البيروني والسجزي)، والإشارة إلى جاذبيتها للأشياء.
- التعيين الدقيق لحركة أوج الشمس، وشذوذ سيرها، ومقدار السنة، وملاحظة النقصان التدريجي لميل سمت الشمس، ومعرفة أن نور القمر مستمدّ من ضوء الشمس، ومعرفة عدد من حركات القمر.
- رصد الكواكب السيّارة، وتقديم قياسات رقمية لأحجامها، وأبعادها، وأقطارها بطرق رياضية هندسية.
- رصد النجوم والمذنبات والشهب والمجرات، وإن كان الرصد عفويًا أحيانًا.

وهناك إنجازات أخرى كثيرة نجدها في كتب التراث الفلكي والعلمي، لا مجال لذكرها في موضوع محدود كموضوعنا، فالبيئة الإسلامية كانت عمقًا حقيقيًا لتطور علم الفلك في الحضارة الإسلامية المجيدة.

المراجع

١. مرجريت رونن، علوم البابليين، ترجمة يوسف حبي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص٩٩.
٢. المرجع نفسه، ص٩٩.
٣. جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة مجموعة من الباحثين، دار المعارف، مصر، ج١ص٤٠٠.
٤. ر.ج فوربس وآخر، تاريخ العلم والتكنولوجيا، ترجمة أسامة الخولي، القاهرة ص١٠٣.
٥. المرجع نفسه، ص١١٧.
٦. سارتون، تاريخ العلم، ج٥، ص١٨١.
٧. راجع العدد ٢٦١ تموز/يوليو ١٩٩٨، وعنوان المقالة «بطليموس قيد الفلك وأطلقه العلماء المسلمون».
٨. طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب العلمية، ج١، ص٤.
٩. المرجع نفسه، ج١، ص١٠.
١٠. ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، ص٤٨٢ وما بعدها.
١١ جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال، مصر، ج٣، ص١٨٣.
١٢. كارلو نالينو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في العصور الوسطى، طبعة روما ١٩١١، ص١٤٣.
١٣. صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، طبعة مصر، ص٥٧.
١٤. المرجع نفسه، ص ٧٨-٧٩.
١٥. راجع كتابنا: «مكانة الفلك والتنجيم في تراثنا العلمي»، مركز جمعة الماجد، دبي ١٩٩٧، ص٢٧٧-٣١٣.
١٦. الزمخشري، ربيع الأبرار، تحقيق سليم النعيمي، بغداد، ج١، ص١٠٦.
١٧. الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، بيروت، مج٢، ج٤، ص١٩٩.
١٨. راجع كتابنا، التراث الفلكي، معهد التراث العلمي جامعة حلب، ١٩٩٢، ص١٠ و٧٧.
١٩. نالينو، علم الفلك، ص٢٣٦ (مرجع سابق).
٢٠. راجع مقالنا، المراصد الفلكية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، دبي، العدد ١٢، آذار/مارس ١٩٩٦.
٢١. هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وآخر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص١٤٥.

المتحف الروسي في سان بطرسبورغ

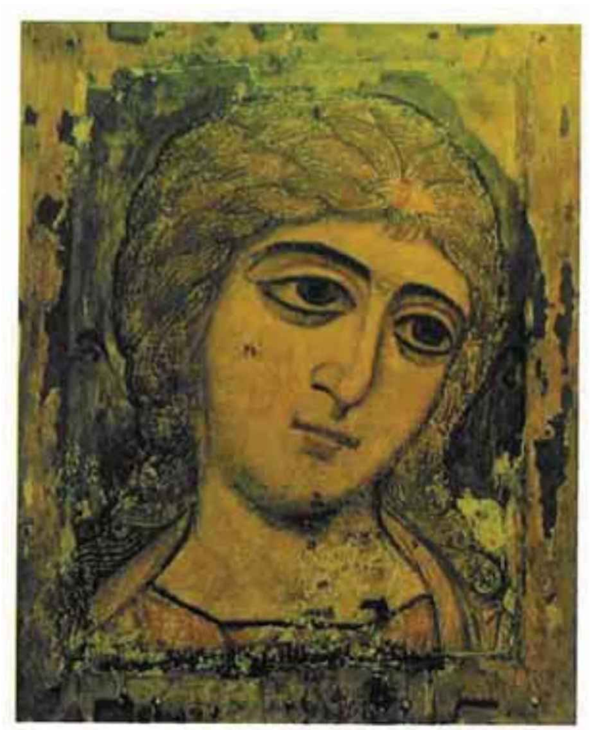
إليان شكور
اللاذقية - سورية

أسس المتحف الروسي في سان بطرسبورغ (لينينغراد سابقًا) عام ١٨٩٥م، وفي هذا التاريخ تقريبًا أهديت أعمال مجموعة تريتيا كوف الخاصة إلى مدينة موسكو، لتصبح ملكًا عامًا، إذ أصبح نشوء المتاحف الحكومية ضرورة تاريخية وثمرة لتفهم الدور الكبير الذي يؤديه الفن القومي في المجتمع.

إن مصدر اللوحات الموجودة في المتحف الروسي المعاصر يعود إلى مجموعة الأرميتاج وأكاديمية الفنون وقصر القيصر ألكساندر. في البداية كان المتحف الروسي لا يعدو كونه مجموعة غير منظمة من الأعمال الفنية والمختلفة بسوياتها الفنية، ولكن بالتدريج بدأ بالتشكل حتى غدا بعد الثورة الروسية عام ١٩١٧م متحفًا بكل معنى الكلمة من خلال تجسيده لتاريخ الفن، وبتربيته للفهم الجمالي للمجتمع؛ ولاتزال مجموعته تعطي فكرة جيدة وكافية عن نشوء المفاهيم الفنية والجذور الدرامية التي أخذ منها الفن في صراعه ليكون صوت الناس، ويجسد قيمه الأخلاقية في كل مرحلة من مراحل تطوره.

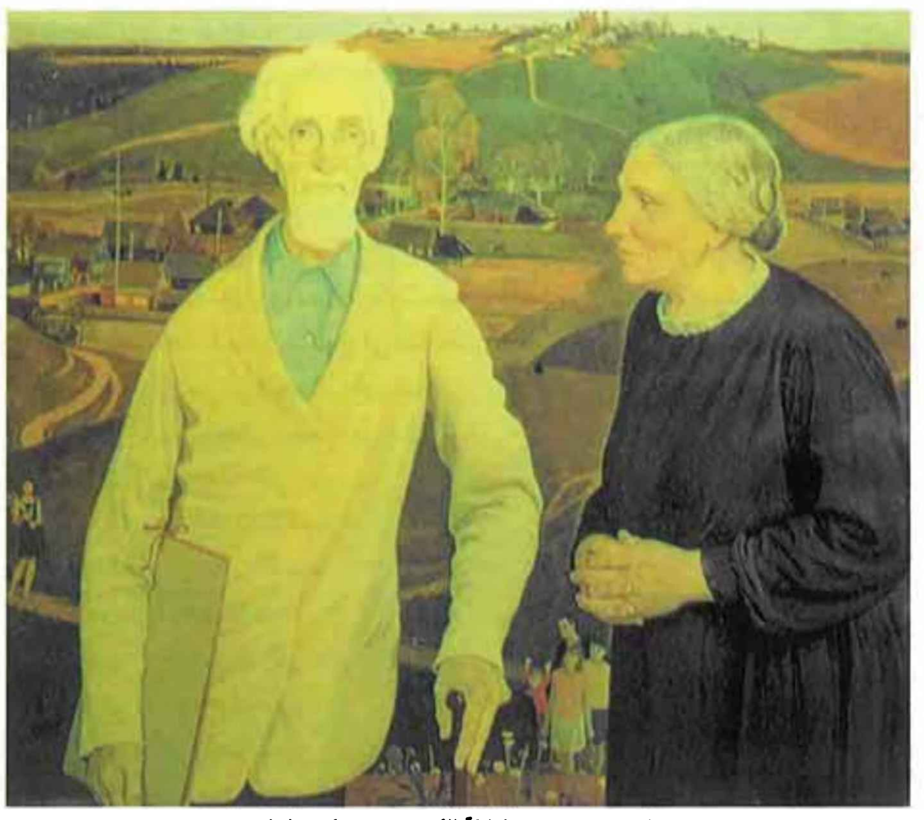
كيف أم بيزنطة

وعند البحث عن مصدر هذه الجذور نجد أعمالاً تعود إلى فترة ما قبل الغزو المنغولي التي كانت قيمها الفنية



ذو الشعر الذهبي - القرن الثاني عشر

تتطور بالتفاعل مع الثقافة البيزنطية التي كانت بدورها مرتبطة مع تقاليد العهود القديمة، وهذا يمكن ملاحظته في أيقونة (الملاك ذو الشعر الذهبي) التي يعزوها بعض الباحثين إلى مدرسة نوفغورد لرسم الأيقونات التي تميل نحو البيزنطية، بينما يستبعد آخرون أي أصل من نوفغورد ويفسرون أسلوب رسم ملامحها من خلال تشابهها مع ثقافة كييف الروسية، وفي كل الأحوال فإن اختلاف هذه


ديمتري زيلينسكي - بورتريه لعائلة الفنان نيكولاي شيرنيشيف عام ١٩٦٩

النظريات يعكس عمق مصادر هذا الوجه الملهم الذي يضم الشاعرية مع القساوة، والحزن مع التنويرية.

التأثير الديني ومدرسة موسكو

وبدأت في القرن الثالث عشر تتشكل مراكز فنية كثيرة، وبدأت أيقونات هذه المراكز تتسم بملامح خاصة، فمثلاً تتميز أيقونة (يوحنا الإنجيلي) النوفوغوردية بالتقشف والقوة، وبالتعبير النفسي واللوني. أيقونة العذراء (الشفقة) من بيلوزيرسك ربما يكون لها أساس من الأسلوب اليوناني الذي أغنى أسلوب كييف ونوفغورد، فالشكل قاسٍ وحنون، وفيه تأكيد تعبيرية الوجه والتناغم الواضح في اللغة التشكيلية (الجمالية)، ولكن حتى الفترات الصعبة في التاريخ الروسي، عندما اندلعت الحروب الأهلية مخلفة الكوارث الكبيرة، حمل الفن ملامح المُثل العامة والدعوة للوحدة، كما حدث للأدب الروسي القديم الذي أخذ الطابع الوطني، بينما اتجه الرسم نحو المواضيع الدينية والقديسين والأعاجيب والجمال الإلهي، كتعبير عن الوعي الشخصي للأمة في تطورها التاريخي.

في الظاهر قد يبدو التصوير الروسي القديم رتيباً جامداً، ولكن عند التدقيق فيه تظهر لنا الحياة الأخلاقية والروحانية الممهدة لمرحلة جديدة من التطور؛ وكي ندرك قدرة هذا التراث على العطاء والتطور يكفي أن نوازن قسوة الحلول الفنية في أيقونات نوفغورد الأولى وصرامتها وبساطتها مع اللمسات الفنية والتعبير العاطفي وحركية التكوين في أيقونات نوفغورد القرن الخامس عشر، مثل أيقونة «مارجرجس والتنين»، وفي هذا الوقت أخذت مدرسة موسكو تترأس الفن الروسي القديم.

وقد رافق هذا التألق في الفن الروسي ازدهار في الأدب، ومن أشهر الأعمال التي تمثل تلك الفترة «حفل ماماي» لزاندونشينا و«رحلة وراء البحور الثلاثة» لأفاناسي نيكيتين.

في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر أصبح أندريه روبلوف محطاً للأنظار كرسام ملهم للأيقونات، وعلى حدود القرن الخامس عشر والسادس عشر شغل هذا الاهتمام الرسام الملهم الآخر ديونيسي، وكلاهما أبدع أسلوباً فنياً استطاع جذب اهتمام معاصريه، ومن الأمثلة التي تعطي تصوراً عن إبداعهم الفني أيقونة «الرسولين بطرس وبولص» في أيقونسطاس كاتدرائية إسبنيسكي في فلاديمير، وأيقونة «النزول إلى الجحيم» في أيقونسطاس كاتدرائية الميلاد، وتتميز هذه الأعمال برقة ودقة، وبموسيقية، حيث تتمازج ألوان السماء والأرض، وتجسد الأشكال أفكاراً فلسفية سامية كانتصار الحياة على الموت، والتناغم على الفوضى.

إذا كانت شاعرية الروسي القديم مشبعة بالصور وكأن ألوان الأيقونات والفريسك تتخلله، فإن الهيئات الفنية في

التصوير بدورها شاعرية، وغنائية، فالتعبير والكلمة امتزجا بنبل الأحاسيس، وبغنائية المحسوس والمثالي، وبالكمال الفني.

الرسوم الشخصية وأوربا

نحو بداية القرن الثامن عشر قام الفن الروسي على مفهوم فني قوي، وعلى الرغم من أن الأعمال كانت فردية إلا أنها في كل حالة مميزة وأصيلة، وذات مصادر متشابهة الجذور دائماً، هذه المصادر ستكون في المستقبل الأرضية الخصبة للتطور الفني في الحضارة الروسية.

في بداية القرن السابق أيضاً، في فترة الإصلاحات العامة التي قام بها بطرس الأكبر، حدث احتكاك بين التراث الفني الروسي القديم والفن الأوربي، وأدى الاهتمام بالشخصية الفردية إلى التركيز في موضوع أساسي في اللوحة هو (الرسوم الشخصية) ويعود الفضل في هذا النوع من الرسم بشكل رئيس إلى إيفان نيكيتين ولوحته (صورة زعيم قوزاقي) الملأى بالخلجات النفسية، وفي هذه الحالة، وعلى الرغم من أن النموذج المرسوم يبقى شخصية مجهولة إلا أن الرسم يُظهر الكثير من المشاعر الإنسانية، كما تميزت أعمال كيبريفسكي وفناني الرومانتيكية الروسية بالنبل وباتساع أفق الأعمال الذي جعلها في مستوى متقدم بالنسبة إلى فنون القرن الثامن عشر، وكمثال آخر على ذلك نذكر أيضاً اسم إيفان فيشنياكوف الذي بلغ أوج تألقه في لوحة (صورة أليانور فيرمور) وبها تم الحصول أول مرة على الشكل الكامل لطفلة صغيرة، وموضوع الطفولة، فيما بعد، سيؤدي دوراً كبيراً في أعمال فنانين وأدباء عظماء أمثال ليو تولستوي، وأنطون تشيخوف، وألكسي فينتيسيانوف، وفاسيلي بيروف، وميغائيل فروبل، وعلى الرغم من أن هذه اللوحة مرتبطة مع جذور الفن الروسي القديم، فإن طريقة معالجة الطبيعة الإنسانية فيها تمت بطريقة جديدة تنتمي إلى الوقت الحاضر.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت وسط الطبقة الطليعية المثقفة تتأكد أفكار عن قيمة الإنسان - دون النظر إلى مستواه الطبقي - وعن سيادته وتعقيد عالمه الروحي، تمثل ذلك في أعمال فيودور روكوتوف، وديمتري ليفينيسكي، وفلاديمير بروفيكوفسكي حيث أبدعوا لوحات قيمة تضاهي أفضل إنجازات الرسوم الأوروبية. فعند دراستنا لنموذج من أعمال ليفينيسكي كلوحة «نزلاء مؤسسة سمونلي للفتيات الشابات» نجد أنها تؤكد نضج الفن الروسي، أما لوحة «كاترينا خروشكوفا والأميرة كاترينا خوفانسكايا» فإنها تعرض مهارات الفنان الإنشائية التلوينية، حتى بات من الصعوبة على أحد أن يخلف ليفينيسكي في قدرته على التعبير عن مادة الموضوع، إذ يعالج الملامح بدقة وجمال لا يقدران بثمن؛ وبسبب هذه الموهبة صار واحداً من الشخصيات الأكثر جاذبية لرواد بداية القرن العشرين في نضالهم من أجل الوصول إلى «الأسلوب العظيم».

فيودور روكوتوف - بورتريه فارفارا سوروفتسيفا النصف الثاني من عام ١٧٨٠م

أما فلاديمير بروفيكوفسكي فقد أدخل في الرسوم الشخصية الروسية معالجة تعبيرية للحالة النفسية كما في لوحته «بورتريه أولغا فيليبوفا»، كما أن إدخال المنظر الطبيعي في البناء الانفعالي للقماشة (اللون - العمل) يُظهر أن الفنان كان معاصراً للأديب كارامزين مؤسس العاطفية في الأدب الروسي.

ويبقى فنان الرسوم الشخصية العظيم الثالث في هذا القرن روكوتوف الذي سحر الشعراء برسومه الرائعة كلوحته «نصف ابتسامة أو نصف بكاء» التي تظهر فيها السيطرة الكاملة للروحانية على المادية، كذلك صورة «فارفاسوروفيتسيفا» حيث نشاهد شخصية معقدة تنبئ عن

غموض مشاعر وأفكار شخصية عميقة، وتعتمد تقنية انعكاس عدة طبقات للألوان في اللوحة، ونذكر أيضاً اسم انطوان لوزينكوف الذي تعبر عنه لوحته (فلاديمير وروجنيدا). وهي نموذج يتبع الجماليات الكلاسيكية التي ترتبط بشكل أساسي بالرسم الأكاديمي، علماً بأن تأسيس أكاديمية الفنون عام ١٧٥٧م كان علامة فارقة في الحضارة العالمية على الرغم من أن المقياس الأكاديمي أصبح فيما بعد على تناقض مع المفاهيم الجمالية الحديثة، إلا أن مصادر الجذور بقيت مصدراً للإلهام في الفنون الجميلة.

ازدهار الرومانسية

العقود الأولى من القرن التاسع عشر هي فترة ازدهار الرومانسية التي كان رائدها الأدبي الشاعر بوشكين، والتي تميزت بجو من الحماسة الاجتماعية أججها النصر في حرب عام ١٨١٢م وحركة كانون الأول/ديسمبر وما واكبها من ازدهار في الشعر والفلسفة والموسيقا والنحت والعمارة، مما جعل هذه الفترة حساسة في تاريخ الفن الروسي، وخلال الأعوام ١٨١٩م - ١٨٢٥م تمت إشادة قصر ميغايلوفسكي الذي أصبح فيما بعد البناء الأساسي للمتحف الروسي.

كان التصوير في هذه الفترة منصباً على المناظر الطبيعية لسيلفر شيدرين التي تبرز جمال ألوان الطبيعة والمناظر الريفية للرسام فيودور أليكسييف الذي خلّد الجمال في لوحته «باليرا الشمال»، كما ظهر السمو في موهبة كيبرنيسكي - أحد أهم أعلام الرومانسية - في لوحته «ايفغراف دافيدوف» التي ادخرت الخبرة والإحساس الفني في القرن الثامن عشر، وهي تمثل تفاؤلا ومسعادة لا يوصفان، وكذلك لوحة «كاترينا أفدولينا» التي صورت بدقة حياة داخلية قلقة لسيدة ذات مشاعر نبيلة.

في هذا الوقت أيضاً ارتفع الرسم التاريخي إلى مستويات فنية جديدة، كما في لوحات «موت كاميلا» و«اخت الهوراتي» للرسام بروني، ولوحة كارل بريولوف المسماة «آخر يوم لبومي» التي تمثل حدثاً تاريخياً، إذ تجمع بين التقنية في الرسم، والعبقرية والنبل في الأسلوب، وإنسانية داخلية أكسبت صاحبها المجد وتقدير أدباء كبار مثل بوشكين وغوغول، كذلك نلاحظ لمسات الجمال في لوحته (صورة الكونتيسة يوليا ساموليلوفا) التي تبدو بسيطة في ظاهرها، ولكنها ذات تعبيرات نفسية عميقة ومعبرة، إلى درجة جعلت بريولوف يعبّر عنها شخصياً بوصفها (حفلة تنكرية رمزية في الحياة).

اننا إذا تأملنا في إبداعات ألكسندر إيفانوف (منتصف القرن التاسع عشر) فإننا نجدها تجمع كل التراث الفني الروسي تقريباً، ففي لوحته «سبعة أولاد» يجمع أسلوبه بين الفن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بينما تُعد لوحته «ظهور المسيح للناس» والمعروضة في المتحف الروسي مثالاً عن العمل الخلاق، إن فن إيفانوف يُظهر الجوهر الروحي الكامن في مفهوم التناسق، هذا التناسق (التناغم) يظهر عنده كمكافأة للعمل الطويل المضني، فنحن نشعر مع أي جزء من اللوحة بالاستمرار والتطور، كما في الحياة، فإن جميع الأجزاء تحتاج إلى مجهود ضخم لفهم المعنى الموحد لها لإبداع



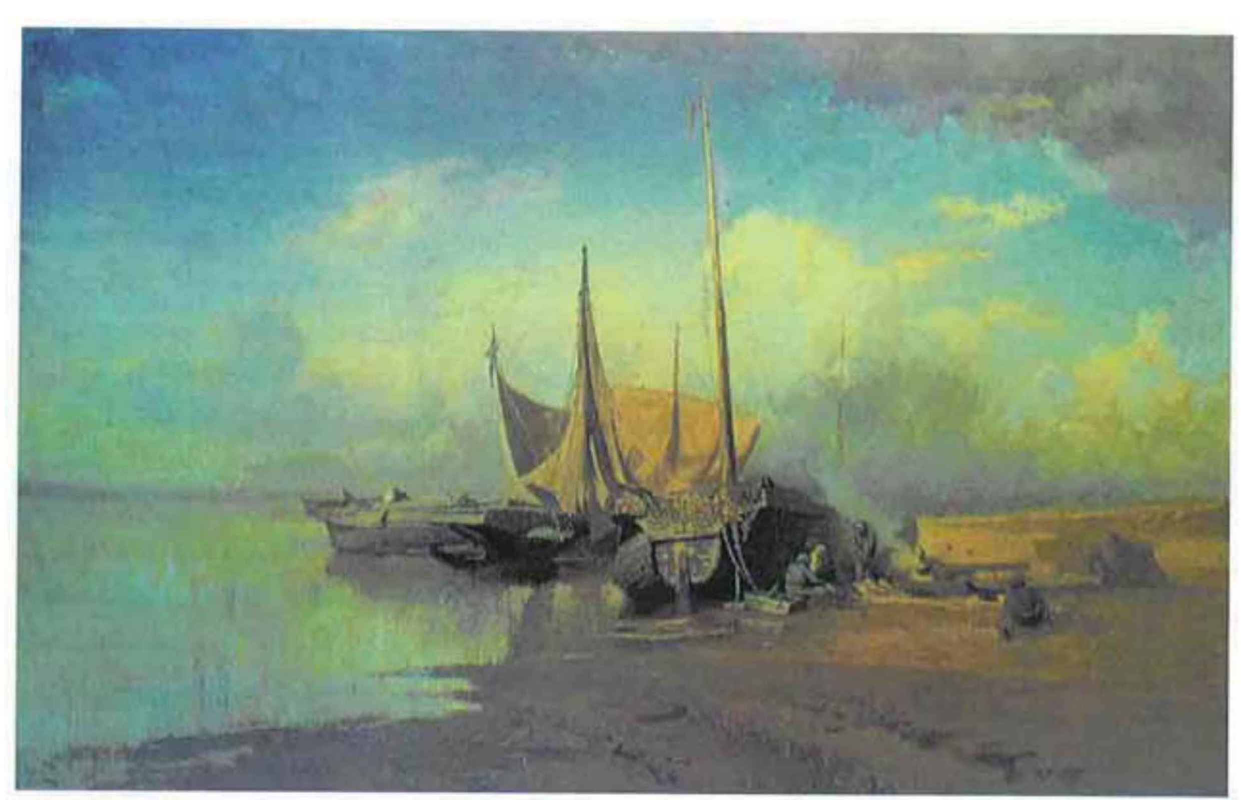
بيوتر كونشالوفسكي - ألكسي تولستوي في ضيافة الفنان ١٩١٤م

لوحة، ومن هنا يمكن شعورنا بالمعجزة حين نقف أمام هذه اللوحات.

إن الحقيقة ميزة أساسية في الفن الروسي، فهو ينزع إلى التفاصيل الموجودة في الطبيعة، وهناك مساحات من الواقعية يمكن رؤيتها من أبراج الرومانسية والكلاسيكية، ولهذا ركز المجتمع الروسي في إنجازات بريولوف، وإيفانوف، وكيبرنسكي، التي رافقتها ظاهرة جديدة هي رسوم فينيتسيانوف كلوحته «الراعي الصغير النائم» ولوحته «فلاحة مع منجل» التي تمثل عالمًا مختلفًا من الفرح والهدوء الروحي.

تتميز صورتها بتقنية رائعة ونقاء طفولي عميق.

استطاع فيدوتوف أن يعطي أفضل تعبير لهذه الأفكار التي كانت تمد أعمال غوغول الخلاقة، وكتاب آخرين من المدرسة الطبيعية، وتذكرنا صورة «ناديجدا» بالرسام دولشي وعمله «القديمة سيمليا» تمامًا، ففي الوقت الذي استفاد الأساتذة الروس في القرن الثامن عشر أمثال كبرنسكي، وبريولوف، وإيفانوف من الخبرة الأوربية إذ كانوا يتقنون مبادئ النهضة والكلاسيكية، كان فيدوتوف يطور مفهومه القومي الجديد عن التصوير معتمدًا على إنجازات الفن الغربي، وبذلك يعطي مثلاً آخر عن



فيودور فاسيلييف ـ مشهد على الفولغا ١٩٧٠م

كما أن فنانين آخرين من أمثال فينيتسيانوف وتلاميذه سوردكا، وأليكسييف، وكريلوف ابتكروا لغة فنية تعتمد على إيقاع لوني مثير للانتباه في دراستهم للواقع، إن الشعر في لوحاتهم ولد من النثر، فغدا المصدر الروحي متلازمًا مع الوجود المادي، ومع الفرح والقلق الإنساني البسيط، والأمر نفسه مع فيدوتوف الذي يتحدث عنه ميراثه الموجود في المتحف الروسي في لوحته (الأرملة)، وفي الشخصيات المهمة التي رسمها مثل لوحة «ناديجدا نوفينتش» التي

«الاستجابة العالمية» للحضارة الروسية التي ذكرها ديستويفسكي في إهداء إلى بوشكين.

الواقعية النقدية وحركة الجوالين

وتكمل لوحات فينيتسيانوف وفيدروتوف الأبحاث الواقعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أما فن (بيروف) فيشير إلى بداية حقبة جديدة هي (الواقعية النقدية) فأعماله تعيد صوت الحزن والإدانة إلى الناس المحرومين، حتى يصل الأمر إلى الاشمئزاز من أحوال

وجودهم، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الحضارة الروسية التي رمزت لها كلمات نيكراسوف الشهيرة «القلب الذي لا يعلم أن يحب الحب هو الذي أضناه القبح».

لقد تجسدت الواقعية الاجتماعية الروسية في عمل إيليا ريبن «عمال المراكب على الفولغا»، وفيه شكل معمم للشعب دون أي رومانسية. ريبن، كسواه من الفنانين الجوالين أمثال كرامسكوي، وماكسيموف، وسافيتسكي الذين وضعوا أمام أعينهم المهمات الاجتماعية قبل الجمالية، وأصبح الاهتمام بحياة الناس أساس فكرهم الفني، ولكن الواقعية تعرضت لمشكلات عدة، وليس عرضياً - عند ولادة حركة الجوالين مع أسماء كبيرة، في اهتمامها بمواضيع اجتماعية، كبيروف، وميسايدوف، وكرامسكوي - أن نجد نيكولاي غاي بنزعته النقدية، وبأفكاره الإنسانية العامة ولوحته «العشاء المري» تذهل بجمالها، وتناغم العمل يشهد بالتوحد الإنساني، وتنعكس الدراما النفسية فيه، وفي الطبقات اللونية القوية كما عند كارافاجيو.

حلمت الواقعية الروسية بلوحة فولكلورية تستطيع أن نجمع بداخلها كل روسيا، بتاريخها وفرديتها، خاصة وأنها سبق أن جمعت مفاهيم إيفانوف مع التراث اللوني الأوربي، وقد أدرك سوريكوف هذا الحلم بقوة فنية هائلة، وأثبته في تحول تفكيره التاريخي، فكان أن دخل حياة المجتمع بأشكال جمالية ممتازة فكانت صورة الناس تتماشى مع حياة الإنسان الفردية الخاضعة لمفهومه عن حركة التاريخ، وظهر هذا في عمله ستيبان رازين البطل الشعبي المستوحى من الأسطورة الشعبية.

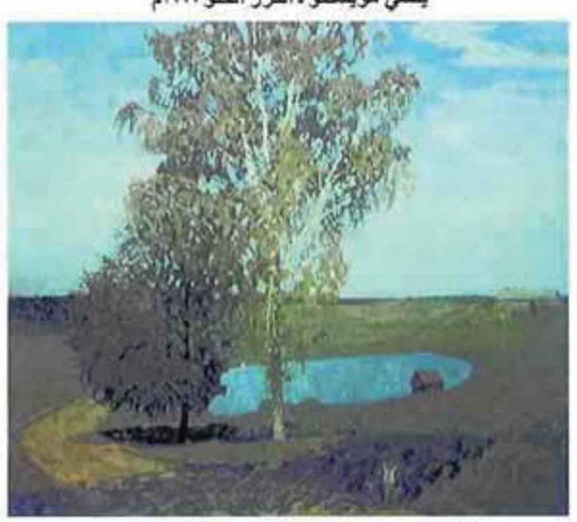
إن السعي إلى تأليف لوحة فنية عن روسيا والأخلاق العالمية، أشعل الفن الروسي، وأعطاه شكله ومواضيعه، ووحّد الرسامين على اختلاف مواهبهم، ففي لوحة (بحيرة) للرسام إيساك ليفيتان تمتزج صورة الطبيعة الروسية بإيقاعها الموسيقي مع كمالها الملحمي، وكان من الطبيعي في أثناء صنع «صورة» روسيا أن يتحول أساتذة الرسم إلى الرسم التصويري، وكانت الشخصيات المرسومة تُفهم من خلال شخصيتها وسيرتها الذاتية وعلاقتها الوطيدة مع البيئة، وهذا ما أثبته كرامسكوي في لوحته «ميناموسييف»، وكذلك صورة «فلاديمير ستازوف» للرسام ريبن، ولوحة نيمستيروف «صورة ابنة الفنان»، ولوحة كوروفين «صورة تاتيانا» ليوباتوفيتش، كما تؤكد



غريغوري سوروكا - صياد السمك النصف الثاني من عام ١٨٤٠م



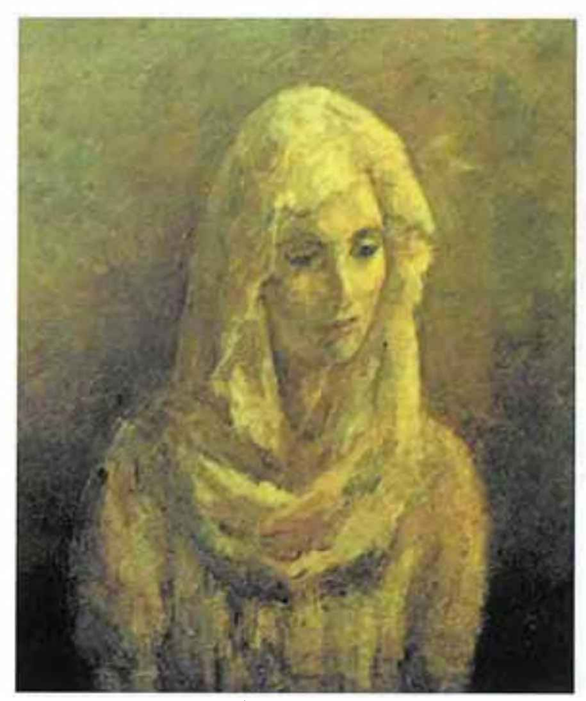
يفسي مويستكو - الكرز الحلو ١٩٦٩م



فالنتين سيدوروف - صباح في منطقة البودول

ذلك لوحات سيروف في صورة «أولغا أورلوفا»، وهي لوحة رائعة تعود إلى بداية القرن العشرين.

إن لوحات سوريكوف، وسيروف، وليفيتان، وكوروفين هي جسر حقيقي مباشر بين القرنين التاسع عشر والعشرين، وإضافة إليهم نجد الرمزية الساحرة والقوة العفوية عند فروبل، والجمال الموسيقي عند بوريسوف -



روبيرت فالك - في الشال الأبيض ١٩٧٤م

موساتوف، والسخرية عند سوموف، والقوة العفوية عند ماليافين، والرقة الفلوكلورية عند نيكولاي ريريخ، والشفافية عند كوزيتيشوف؛ وبذلك نجد كل الغنى الحقيقي للرسم الروسي الذي لم يتراجع أبداً عند خطه الأساسي بإنتاج أعمال فنية متميزة وخالدة، وأثبت الرسامون الروس في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنهم جديرون بمعاصرة تولستوي، وديستويفسكي، وبلوك، وغوركي، وستانسلافسكي، وسكريابين.

ويقف وراء الرسم السوفييتي أساتذة عظماء أمثال كوستوديف، وغرابار، ونيستيروف وكورين وبيتروف وفودكين وكونشالوفسكي الذين استطاعوا الاتصال المباشر مع تراث الفن العالمي، وأدوا دور الجسد الحي في أعمالهم الرائعة، كما نراها في لوحة كوستوديف «زوجة تاجر تشرب الشاي»، ولوحة ماشكوف «طبيعة صامتة مع مروحة»، وفي اللوحات التي جاءت بعدها مثل «لابسة الشال الأبيض» للرسام فالك، أما أعمال ساموخفالوف، ودينيكا، وبيتروف، وفردكين، وغراسيموف فإنها تصدر أنغاماً جديدة حددتها التحولات الاجتماعية الكبيرة على أثر الثورة الروسية كما في لوحة «موت ضابط» للرسام بتروف فودكين.

لقد حاول الفن الروسي في كل مرحلة من مراحل تطوره الفني أن يتخطى العقبات وأن يكرّس المبادئ الشريفة، وأن يساهم في توجيه الإنسان نحو الأفضل، وعبر عن اهتمامه بالناس.

إن لوحة «منتصف النهار» للرسام بلاستوف تؤكد ذلك حين تمنحنا تصوراً عن عمل الفنان شخصيات متنوعة، وفضاء روسياً شاسعاً، ورائحة الخبز والحليب، أما كورجيوف فيقدم مع الحقيقة التوثيقية - الجهود الخارقة للشخصيات في تحدي الموت في لوحة «الكرز الحلو» التي تظهرها شخصيات عادلة ومشرقة؛ تحرر المدن والقرى، وتحلم بالسعادة، وتقاتل من أجلها، هذه الأعمال تتحدث عن الماضي الذي ينعش الحاضر، عن الأرض التي تحمل ذكرى الأوقات حين تقرر مصيرها، عن الأرض التي غسلتها الدموع والأمطار، عن الأرض التي نعيش عليها اليوم، كما تمتزج في رسوم فيكتور إيفانوف وفي «مناظر طبيعية» لبيتر فومين وفالنتين سيدوروف، «انتهى العمل» لفيكتور بوبكوف، «في الصباح» لزاغونيك وعدة أعمال أخرى تبرهن أنه على الرسام أن يشارك في عواطف زمنه، وعندها يكون دائماً جديداً وضرورياً، ولا يهم الموضوع الذي يؤكد موهبته فسيجده دائماً في الأعمال البطولية، كما في الأحداث العادية اليومية حين يتم إيصال جوهر الشخصية من خلال رسم أشخاص لا تحنيهم ويلات الحرب، ولا تقهرهم الخسارة، وأيضاً لا يفسدهم النجاح، على هذا الأساس يتكون المثال الأخلاقي للفنان الذي يتفاعل مع الطبيعة التي يراها يحبها ويتفاعل معها، وهكذا يجب أن يكون الإنسان في مجده.

فالمتحف الروسي المعاصر في لينينغراد هو جسد حي موضوع بشكل صحيح في مركز التطورات الفنية المعقدة اليوم، ويبقى سؤال: ما الذي يجب جمعه؟ الأفضل أو الأمثل، الكامل أو المثير للجدل؟ وما الذي يجب وضعه في معارض ونشاطات ثقافية؟

في محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة يعمل فريق عمل المتحف في رسم الخط الرفيع بين ما هو تقليدي وما هو عريق وما هو حديث، وربما تظهر بعض الأخطاء أحياناً في التقدير، ولكن يبقى الأمر مشدوداً إلى الشعور بالمسؤولية تجاه الرسوم وتجاه المجتمع، كل ذلك يجعل من المتحف الروسي مكاناً جديراً في نظام الثقافة المعاصر.

المراجع

The russian museum - Leningrad izobrazitelnoy iskusstvo. Publishing house moscow 1987

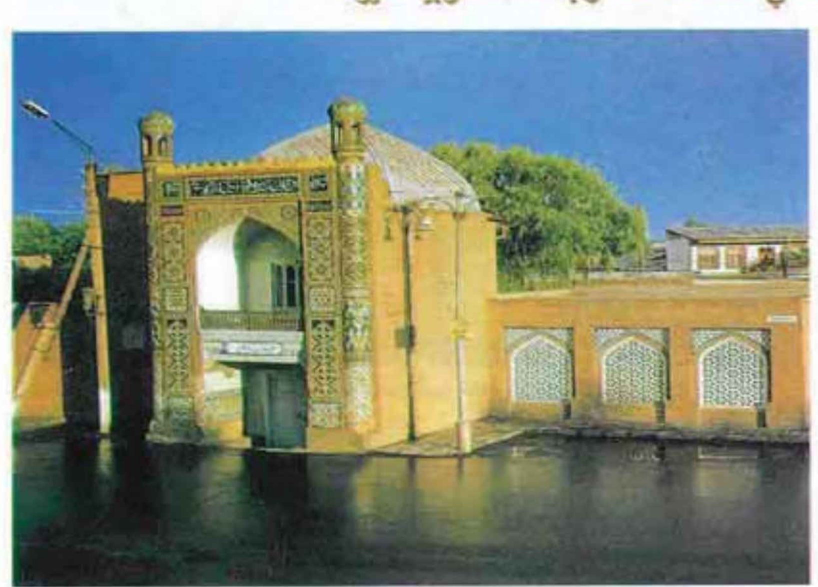


فرغانة
مدينة من وراء النهر

بهرام عبد الحليموف
طشقند - أزبكستان

جمهورية أزبكستان هي إحدى الجمهوريات الإسلامية الخمس التي تقع في منطقة آسيا المركزية، والتي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي السابق. دخل الإسلام إلى هذه المناطق نتيجة لفتوحات قتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ/٧١٥م) لها في أوائل القرون الوسطى؛ ولهذا السبب تأثرت شعوب هذه المنطقة قروناً طويلة بالحضارة الإسلامية، ولا تزال شواهد هذه العلاقة باقية في هذه البلاد حتى وقتنا هذا في التقاليد والعادات والفن المعماري، وعلاوة على ذلك نجد في لغات هذه الشعوب كلمات عربية كثيرة.

وقد أنجبت هذه الأرض عدداً كبيراً من العلماء والمفكرين المسلمين البارزين مثل: محمد الخوارزمي، وأحمد الفرغاني، وأبي الريحان البيروني، وابن سينا، والإمام البخاري وغيرهم ممن تنقلوا في المدن الإسلامية المختلفة. واحتلت قوات القياصرة الروس هذه البلاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم دخلت بعد ذلك في عداد الاتحاد السوفييتي بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م. وجدير بالذكر أن شعوب المنطقة استطاعت الحفاظ على دينها وعاداتها على الرغم من الضغط الشديد من قبل النظام الشيوعي خلال السبعين سنة الماضية.



إحدى المدارس الإسلامية في فرغانة

السكان والموقع الجغرافي

قبل بداية الحديث عن مدينة فرغانة لا بد من تحديد الفرق بين كلمات وادي فرغانة وإقليم فرغانة وولاية فرغانة ومدينة فرغانة؛ فوادي فرغانة هو اسم الإقليم الذي يقع ضمن الامتداد الجبلي في آسيا المركزية، ويحده من الشمال جبل اسمه «تيانْشان»، ومن الجنوب جبل اسمه «حِصَارآلي». والجزء الرئيس من وادي فرغانة يوجد في جمهورية أزبكستان. وهناك أجزاء أخرى منه تمر في جمهوريتي «قرْغزستان» و«تاجيكستان». وهذا الإقليم هو واد عريض تشرف عليه عدة مدن، وأرض الوادي سهول وجبال، وهذه السهول خصبة يزرع فيها القطن والفواكه والخضر إلى جانب تربية الغنم.

وقد أطلق البلدانيون العرب في القرون الوسطى على هذه المنطقة اسم إقليم فرغانة، وقد سميت إحدى محافظات خانية خوقند بعد احتلالها من قبل الجيش الروسي بولاية فرغانة. ومازال مصطلح ولاية فرغانة مستخدماً في أزبكستان.

وأما مدينة فرغانة اليوم فهي أشهر المراكز الإدارية والاقتصادية والثقافية وأهمها في وادي فرغانة وفي جمهورية أزبكستان كلها، وتقع في الجزء الجنوبي من الوادي نفسه، ويصل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر إلى ٥٨٠ متراً عند سفوح جبل حسارآلي، ومناخها قاري، يصل فيها معدل هطل الأمطار إلى ١٧٤مم في السنة، وتسقط كمية الأمطار عادة في الشتاء والربيع، وفي بعض الأحيان تهب الرياح من الاتجاه الغربي إلى الاتجاه الشرقي بسرعات كبيرة، وتبلغ مساحة المدينة ٧٠كم مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ٣٢٠ ألف نسمة. يشكل الأزبكيون أغلبية سكانها. وتعيش معهم قوميات أخرى مثل الروس والقرغزيون والتاتاريون.



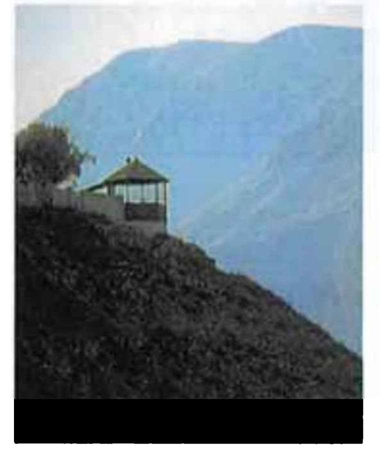
المجمع المعماري أو قصر الأمير محمد خوديار خان

وقيل: إن كلمة فرغانة المتلفظة «برغانة» و«برغانة» في اللغة السنسكريتية كانت تعني ولاية صغيرة أو وادياً بين الجبال في اللغة الفارسية.

فرغانة في عيون المؤرخين

وصف السمعاني - في كتابه الأنساب - مدينة فرغانة وقال عنها: «هي منطقة واسعة بما وراء نهري جيحون وسيحون». وذكرها ياقوت الحموي قائلاً: «فرغانة مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير وواسعة الرستاق، يقال: كان بها أربعون منبراً، وبينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً، ومن ولاياتها خجندة.. وبفرغانة في الجبال الممتدة بينها وبين الترك كثير من الأعناب والجوز والتفاح، وذلك كله لا مالك له ولا مانع من الأخذ منه، وكذلك في جبالها وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلد غيره...». قال الإصطخري: إن فرغانة اسم الإقليم، وهو عريض موضوع على سعة مدنها وقراها وقصبتها أخسيكث وليس في ما وراء النهر أكثر من قرى فرغانة، وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم...

وأضاف الإصطخري أن الذهب والفضة والحديد والنحاس والفيروز والزنبق والفحم وملح النشادر وغيرها تستخرج من فرغانة. وجدير بالذكر أن فرغانة - حسب قول الإصطخري - كانت منطقة وحيدة فيما وراء النهر لاستخراج ملح النشادر.



تتميز فرغانة بطبيعتها الخلابة

وكذلك اشتهرت فرغانة بحجر الأرحاء والفحم الحجري للوقود. قال المقدسي: «إن لإقليم فرغانة حوالي أربعين مدينة مختلفة الحجم، وأما السمعاني فهو يذكر تسع مدن وسبع قرى وربضاً واحداً فيها. فكانت قصبتها وعاصمتها في أوائل القرون الوسطى مدينة أخسيكث. ويضيف السمعاني أن أخسيكث كانت أجمل

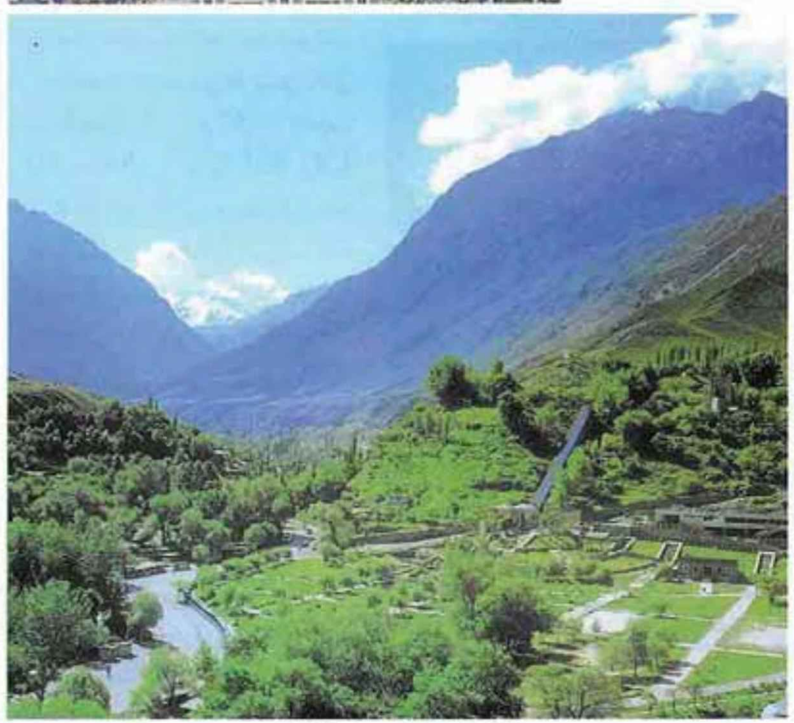
مدينة في إقليم فرغانة وأنظفها، وهي تقوم على ضفة نهر سيحون الشمالية على أرض مستوية.

قال ابن حوقل في مدينة أخسيكث: إنها مدينة واسعة لها قُهُنْدُز أو حصن، وفيها الجامع ودار الإمارة، ولها ربض واسع وعليه سور، وفيها مياه جارية وحياض كثيرة، وفيها وفي ريفها أسواق، وللمدينة خمسة أبواب.

وقد أدت مدينة مرغينان دوراً كبيراً في تاريخ فرغانة بوصفها مدينة الدين والعلوم والثقافة. وهي حالياً تسمى: مرغيلان. وتضم فرغانة عدداً من المدن التاريخية الأخرى مثل أنديجان وكسان وقويا وخوقند وغيرها، وأسماء أغلبية هذه المدن مازالت قائمة، وكان إقليم فرغانة بشكل عام يعرف إلى وقت قريب بخانية خوقند. وأعيد إليه اسمه القديم بعد احتلال الحكومة الروسية.



مقطع من نقش خارجي في قصر خودیار خان


قرية شاه مردان - وادي فرغانة

علماء فرغانة

وينسب إلى فرغانة عدد كبير من العلماء المسلمين في القرون الوسطى، من ضمنهم أحمد بن كثير الفرغاني الذي كان منجماً ورياضياً مشهوراً أيام المأمون العباسي، وأبو منصور أحمد بن عبدالله الفرغاني وهو مؤرخ وأديب، وأحمد بن محمد الفرغاني النعماني وهو محدث وفقيه ومشارك في كثير من العلوم، وعبدالرحيم بن أبي بكر المرغيناني الفرغاني السمرقندي وهو فقيه، وعبدالله بن أحمد بن جعفر الفرغاني وهو مؤرخ ومحدث، وبرهان الدين بن عبدالجليل الفرغاني المرغيناني وهو فقيه وفرضي، ومحدث، وحافظ ومفسر، ومشارك في أنواع من العلوم، وأبو عبدالله محمد بن يوسف الفرغاني وهو لغوي.

وبرز أحمد بن كثير الفرغاني المذكور أعلاه في العلوم الفلكية والرياضية، وقدم خدمة جليلة في تطور العلوم البحتة، وكان رائداً في نقل الإنجازات الفلكية للتراث الإسلامي القديم إلى أوربا في القرون الوسطى، وقد اشتهر في الشرق والغرب، وعرف عند الإفرنج باسم AL Fraganus، وكانت شهرته على الخصوص في مجال العلوم الفلكية. وجرت الاحتفالات في أزبكستان في عام ١٩٩٨م بمناسبة مرور ١٢٠٠سنة على ميلاد هذا المفكر البارز تحت رعاية اليونسكو Unesco.

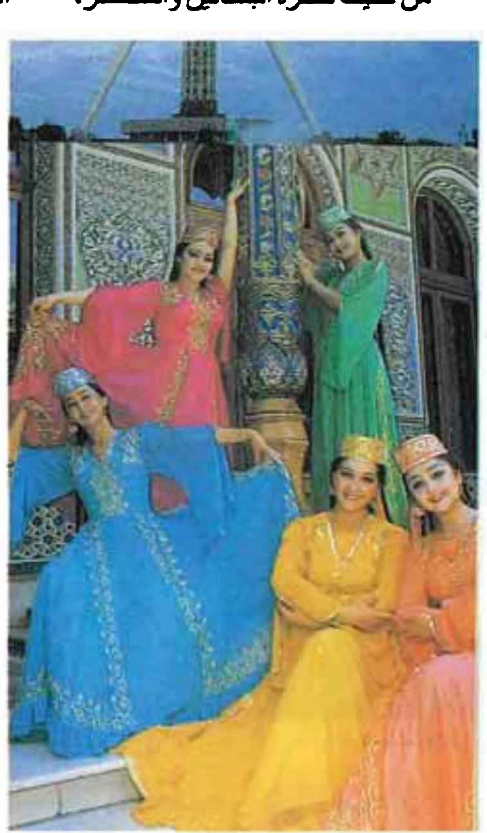
وأما برهان الدين المرغيناني الفرغاني (٥٣٠-٥٩٣هـ) فكان عالماً مشهوراً في الفقه وعلمي الحديث والتفسير، وترك المؤلفات الآتية: «بداية المبتدي وكفاية المنتهي»، و«نشر المذهب»، و«كتاب التجنيس»، و«كتاب المزيد»،

و«مناسك الحج»، و«مجمع النوازل»، و«كتاب الفرائض».

وتدل هذه المؤلفات على أن برهان الدين المرغيناني كان له مكان بارز في العلوم الإسلامية.

حكومات متعاقبة

كان إقليم فرغانة ومناطق أخرى في آسيا المركزية بعد الخلافة العربية تحت حكم السلمانيين والمغول والتيموريين والشيبانيين، وكانت مدينة خوقند: عاصمة لخانية خوقند، وبعد استيلاء الجيش الروسي على خانية خوقند في عام ١٨٧٦ نظمت الحكومة الروسية آنذاك ولاية فرغانة وجعلتها منطقة تابعة للخانية السابقة. وقررت هذه الحكومة إنشاء عاصمة جديدة لها لتسهيل التحكم فيها، واختارت لذلك قريتي يرمازار وسيم اللتين تبعدان عن مدينة مرغيلان مسافة عشرة كيلو مترات. وهكذا ابتدأ مشروع إنشاء المدينة في عام ١٨٧٧م، وكان المشروع يتمثل بمساحة كبيرة يحيط بها سور من جميع الجوانب، وفي داخلها ثلاثة طرق رئيسة، وكان واحد من هذه الطرق يتصل بمدينة مرغيلان القديمة. وقد اقترح بعض المسؤولين الروس تسمية هذه المدينة بمدينة فرغانة. ولكن قائد القوات المسلحة الروسية والمسؤول الأول للشؤون الروسية في منطقة تركستان رفض هذا الاقتراح، وأمر بتسمية المدينة بمرغيلان الجديدة، وبقيت المدينة بهذا الاسم حتى عام ١٩٠٧م عندما أطلق عليها الروس اسماً جديداً هو «سكوبليف». تخليداً وإحياء لاسم القاتل الروسي الجنرال ميخائيل سكوبليف الذي قتل العدد الكبير من أهل المنطقة في أثناء احتلال القوات الروسية آسيا المركزية. وسرعان ما أصبحت المدينة الجديدة مركزاً عسكرياً وإدارياً واقتصادياً في منطقة تركستان، وسميت بمرغيلان ابتداءً من عام ١٩١٩م. وبنيت مدينة فرغانة على حساب الضرائب الهائلة المفروضة على سكان البلد؛ وهي مدينة فتية، ومن أجمل مدن أزبكستان من حيث كثرة البساتين والخضر،



فتيات باللباس التقليدي

وشوارعها العريضة والنظيفة محيطة بالمنازل السكنية المعاصرة من الطرفين المقابلين، وتتكون أغلبية هذه المنازل من ثلاث أو خمس طبقات، وتنقسم المدينة نفسها إلى عدة مناطق سكنية، و يسكن فيها عمال وموظفو مصانع النفط والغزل والنسيج والمؤسسات الأخرى، وتوجد في كل منطقة سكنية مدارس ابتدائية وثانوية ومستشفيات وملاعب ومكتبات وخدمات أخرى لتلبية احتياجات أهل المدينة.

الصناعات الحديثة في فرغانة

إن ولاية فرغانة هي إحدى المناطق ذات التقدم الصناعي الأكبر في أزبكستان، ومدينة فرغانة تحتل المرتبة الأولى في ولاية فرغانة، والمرتبة الثانية بعد طشقند وسمرقند في الإنتاج الصناعي في أزبكستان، ويزيد عدد المؤسسات الصناعية في الولاية على ١٧٥ وحدة، ويشتغل فيها ما يعادل ١٦٠ ألف شخص من العمال والموظفين، والاتجاهات الرئيسة في صناعة فرغانة هي توفير الوقود والكهرباء، والمواد الكيماوية، وهندسة الماكينات ومواد البناء، وحلج القطن، وخياطة المنسوجات القطنية، والصناعات الخفيفة المختلفة، ومواد الغذاء ...إلخ.

وهناك محطات كبيرة لتوليد الكهرباء في مدن فرغانة وخوقند وقوبا، والصناعات الكيماوية مثل: مصنع إنتاج الآزوت (نيتروجين)، ومصنع الألياف الكيماوية، ومصانع الأسمدة كذلك مرتكزة في مدينتي فرغانة وخوقند.

وتمتلك ولاية فرغانة مصنعين لإعادة تكرير النفط، يقع أحدهما في مدينة فرغانة، والثاني في ناحية «التأريق»، وتتم فيهما معالجة المواد النفطية الخام الآتية لا من أزبكستان فقط، بل من جمهوريتي تركمانستان وقرغزيستان أيضاً.

وينتج مصنع الإسمنت في قوبا أكثر من ربع منتوجات الإسمنت،

ويخصص مصنعان في خوقند لصناعة الماكينات والأجهزة وقطع الغيار الحديدية المختلفة. وتعد مصانع الغزل والنسيج، ومعمل الشرانق «جوزة القز» ومصانع الأحذية ومصانع حلج القطن من أهم الصناعات في فرغانة.

ويوجد مجمع الأقمشة من النوع الأزبكي التقليدي المسمى بـ «أطلس» في مدينة مرغيلان. وفي فرغانة صناعات الأغذية المختلفة من زيوت مختلفة ودقيق ومكرونة ومعلبات، ويوزع صابون مصنع الزيوت والدسم بفرغانة في آسيا المركزية كلها. وبصورة عامة فمدينة فرغانة تشتهر بصناعات كثيرة ومختلفة، وبعض الصناعات المحلية من أبرزها إنتاج الأقمشة والملابس من القطن والصوف.

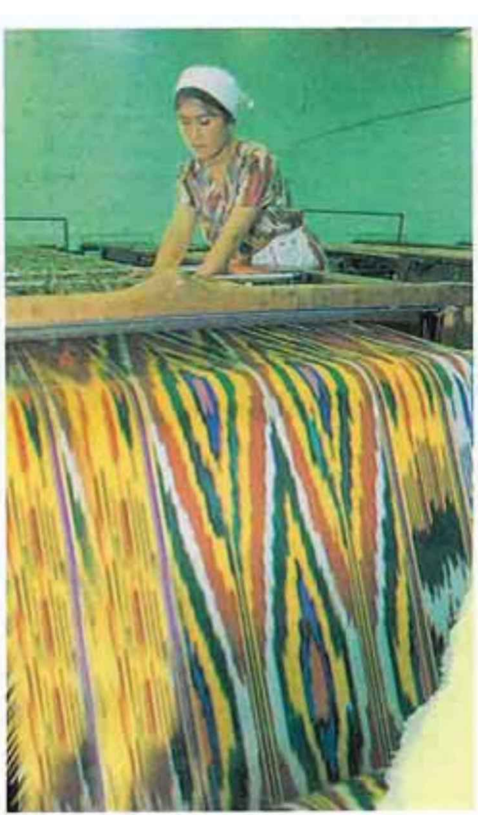
في عام ١٩١٣م كانت صناعة المدينة تشكل أربعة مصانع: واحداً لحلج القطن، ومصنعاً آخر لتجفيف الشرانق «جوزة القز»، والطاحون الواحد، وأربعة معامل صغيرة لتحضير بذور جوزة القز، وبعض المصانع الصغيرة للمشروبات.

معالم وآثار

ومازالت في فرغانة آثار تدل على ماضيها الحضاري العريق، كالقصور والمساجد والمدارس والمقابر والمباني المعمارية الأخرى التي يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن الثامن عشر. وقد استدعى أمراء فرغانة المعماريين من بخارى، وشيدوا فيها الطوابع المعمارية الفريدة. ومن معالم فرغانة اليوم مدرسة «ناربوتابي» في خوقند، وتعرف هذه المدرسة عند أهل فرغانة بمدرسة أمير ناربوتابي (القرن ١٨).

وتمثل هذه المدرسة مبنى مربعاً مع الحديقة الكبيرة المحيطة بالغرف الكثيرة، ويصل الممر الضيق عند الدخول إلى قاعة المطالعة الصيفية الضخمة، وفي الجانب الأيمن منها مسجد، وفي أيسرها قاعة المطالعة الشتوية.

وأما مقبرة الأمير المسماة بـ«دهماي شاهان» فتتكون من ثلاثة أقسام هي: بوابة ومسجد ومقبرة



نسيج الحرير صناعة اشتهرت بها أوزبكستان منذ القدم

الأمير وأهله، وتقترب منها مقبرة خاصة لأم هذا الأمير.

ويعد المجمع المعماري لأمير خوديارخان (القرن ١٩) من أجمل المباني التاريخية في خوقند من حيث كثرة الأعمدة والأزياء والنقوش والمنمنمات المحلية.

كما تشتهر ولاية فرغانة بمدرسة بنيت أيام أمير خوقند عمرخان (١٨١٠ - ١٨٢٢م) ومدرسة «ماه لا رأييم» بنيت من قبل الشاعرة الأزبكية نادرة، والمسجد والمنارة اللذين أنشئا من قبل أمير محمد علي خان (١٩١٠ /١٩١٢م) وإلخ.

وتوجد في مدينة فرغانة أربعة معاهد للتعليم العالي، اثنان منها مستقلان، واثنان يعدان فرعاً لمعهد الزراعة ومعهد الاقتصاد في طشقند ، ويزيد عدد الطلبة الدارسين فيها جميعاً على ٢٥٠٠٠ طالب. وأسس معهد المعلمين والمعلمات في مدينة فرغانة في عام ١٩٢٠م، ومعهد التكنولوجيا في عام ١٩٦٧م، ويكفي لاحتياجاتها من المتخصصين في المجالات الفنية. وهناك معهد البحوث العلمية لإنتاج الحرير، ومدارس ابتدائية وثانوية ومهنية، إلى جانب روضات الأطفال والمكتبات.

وتكثر في فرغانة المتنزهات الجميلة التي فيها عدد من الأشجار والفواكه، وفيها متحف جيد يضم بعض الآثار النادرة الخاصة بالمنطقة. وبعد الاستقلال السياسي اتسعت المدينة فنمت نمواً ملحوظاً، وزادت المؤسسات والمنشآت والمدارس والمستشفيات والمكتبات المختلفة، ووسعت وجددت شبكة الطرق الرئيسة والشوارع والميادين، وشجعت العلاقات مع الشركات الأجنبية. وتعمل الآن في فرغانة عدة شركات مشتركة، الأزبكية والأجنبية مع الاستثمار الخارجي.

وأهم تغيير يجري في الجمهورية كلها الآن هو رغبة الشعب في أن يرجع إلى دينه وتراثه.

بإمكانك الحصول على راحة البال في هذا المكان...

منظر من النفود بالقرب من قريه

...وأيضاً في البنك السعودي الفرنسي

راحة البال التامة تحتل الأولوية عند رجال الأعمال والمستثمرين والأفراد المتطلعين لأكثر الخدمات كفائة وفعالية.

ونحن في البنك السعودي الفرنسي نؤكد التزامنا في خدمة عملائنا وتلبية احتياجاتهم وتوفير راحة البال لهم ضمن أرقى المستويات في جميع أنحاء المملكة.





الزراعة في عصر الفضاء

رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان
الزقازيق - مصر

إن تجارب أرضية تُجرى في بيئة شبه فضائية اصطناعية، لأجل استنبات الزروع والنباتات. بحوث تجريبية غير متوقفة يطمح العلماء من ورائها إلى مهايأة معطيات الحياة على المستعمرات الفضائية ... تخطيط علمي خرجت مشروعاته واقعياً إلى النور، بهدف تلبية متطلبات حياة السكنى الفضائية.

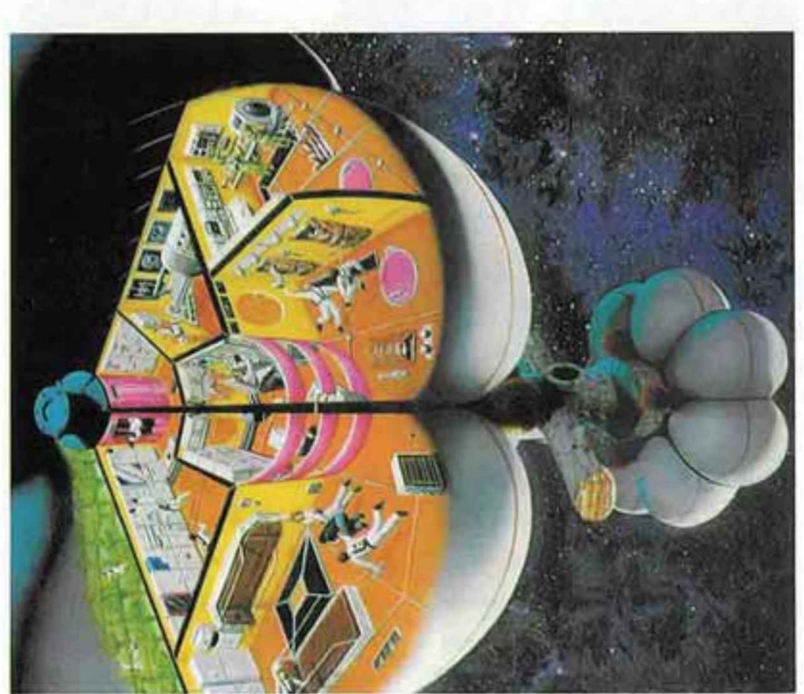
إن الاستزراع الأرضي - كما هو معلوم - كان المُعطى الأول لد الإنسان بآليات بقائه وانتشاره في الأرض... ويرى العلماء أن لهذا المُعطى أولوياته أيضاً في الوجود الإنساني في بيئة ماوراء الأرض، لأن الإنسان هو الإنسان يستمد طاقته البدنية والذهنية من إطعامه بالزرع ومشتقاته على ما هو معلوم طبقاً للفطرة.

إن مشروعات الاستزراع والاستنبات قد بوشرت طبقاً لأحدث الدراسات المنشورة فعلا وعملاً في الفضاء الخارجي.

إنه إنسان الألفية الثالثة، سيزرع الفضاء بعد أن ضاقت الأرض وقوضت زروعها!.

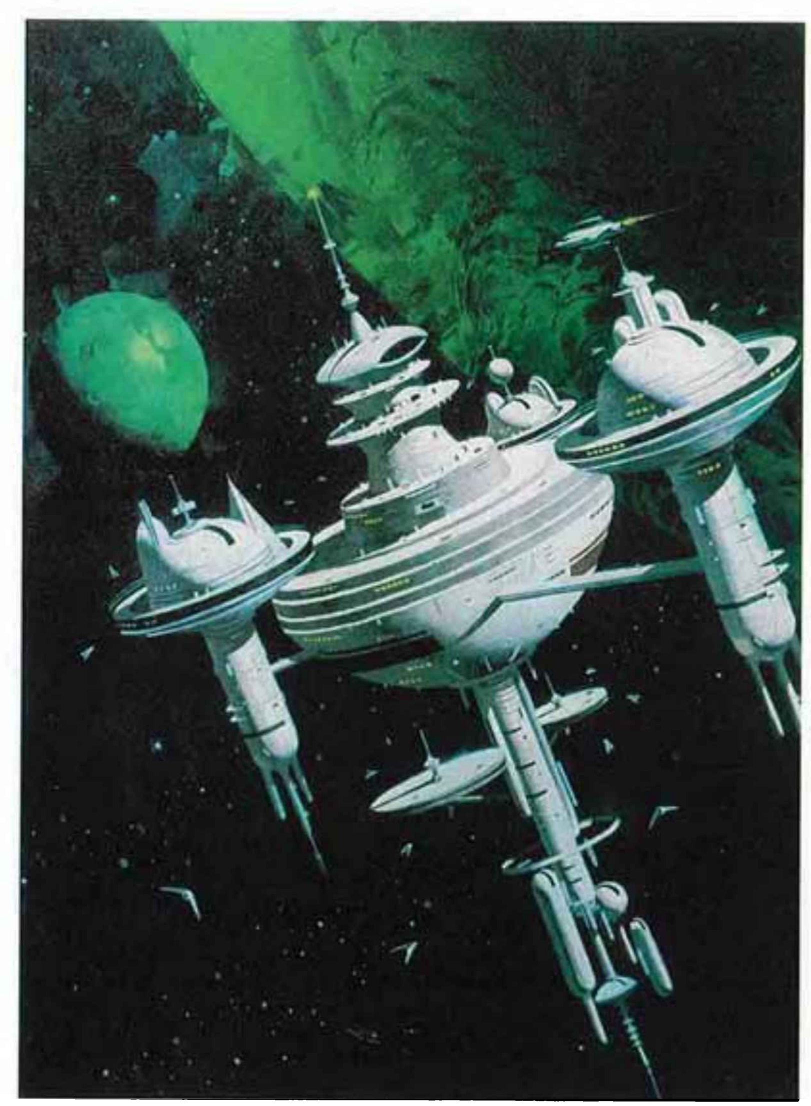
تنافس علمي في الاستزراع الفضائي

يتواكب التفكير في عمليات الزراعة في الفضاء مع التفكير في إقامة المستعمرات الفضائية، وامتداد عدد رحلات المحطات المدارية. ولقد استقر الأمر في الولايات المتحدة على تصميم محدد للمستعمرات الأولى الفضائية منها مستعمرة Freedom(الحرية) المزمع إقامتها، بينما والى السوفييت تسجيل الانتصارات في



منظر لأحد أجزاء المستعمرة الفضائية من الداخل

إطلاق المحطات المدارية من طراز «ساليوت» وأعقبوها بمحطات من طراز «مير». ولقد سجل السوفييت في هذا المضمار مدداً قياسية لبقاء الرواد في الفضاء تفوقوا فيها على المدد الأمريكية، ففي المحطات المدارية «ساليوت» التي بدأ إطلاقها في أواخر السبعينيات سجل الرواد رقماً قياسياً هو ٢٣٧ يوماً. بينما لم يتجاوز الرواد الأمريكيون ٨٤ يوماً في رحلات محطة الفضاء سكاي لاب في عام ١٩٧٣، وكان الرواد السوفييت (الروس) قد واصلوا مسيرة التحدي... في المحطة


تصميم آخر لإحدى المستعمرات الفضائية بين الكواكب

المدارية «مير - ٢» حيث تمكن الرواد السوفييت البقاء فيها مدة تعدت الرقم القياسي السابق وبلغت ٣٢٦ يوماً في ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٨٧م ثم تجاوزها عام ١٩٨٨م إلى ٣٦٦ يوماً، وزاد السوفييت على ذلك في تحقيق مرونة تزويد المحطات المدارية بالمؤن والغذاء والكساء بواسطة شاحنات الفضاء الأوتوماتيكية من طراز «بروجرس». ويأتي التفكير بالزراعة في سفن الفضاء أو المحطات المدارية أو الإعداد لإنجاح طريقة جديدة للزراعة في المستعمرات الفضائية من منطلق تحقيق الاكتفاء الذاتي بالنسبة إلى طعام رواد الفضاء، ذلك أن استنبات أنواع معينة من الخضراوات في الفضاء، لا شك سيكون أقل تكلفة من حملها بواسطة الشاحنات الفضائية أو مكوك الفضاء، وإلى جانب أن الموضوع اقتصادي بحت، فإن التفكير في نقل مقومات الحياة إلى المستعمرات الفضائية أو الرحلات الطويلة إلى الكواكب لا بد أن يتوافر لها (غذاء طازج) من الخضراوات، وبطريقة تحقق الاستدامة لإمداد سكان المستعمرات الجديدة بغذاء تتوافر فيه العناصر الأساسية.

ففي خط متوازٍ مع الاستعداد لإطلاق هذه المستعمرات الفضائية أو الانطلاق في رحلات فضائية طويلة إلى المريخ والكواكب الأخرى، تمضي الاستعدادات لتحقيق زراعة أنواع من النباتات في هذه المستعمرات تصلح لرواد الفضاء ولراغبي السفر. ومن أجل ذلك تجرى تجارب زراعية في سفن الفضاء «من دون استخدام تربة» ولتحقيق أقصى استفادة من هواء زفير الرواد وفضلاتهم... الجدير بالذكر أنه بدأ التفكير في الزراعة في الفضاء بصور مختلفة، وتعددت التجارب لتحقيقه في الرحلات الفضائية الأمريكية والسوفيتية. ومن أهم هذه الجهود تعريض أنواع مختلفة من بذور النباتات للظروف الفضائية.

وقد اتخذ لذلك عدة اتجاهات. كان أولها وضع البذور الجافة في أوعية خاصة من مركبات الفضاء وتعريضها للإشعاعات الفضائية وظروف انعدام الوزن، ثم زراعتها على الأرض بعد الرحلة لدراسة ما طرأ عليها من تغييرات. ثم تطورت التجارب فأصبحت تشمل استنبات بعض بذور النباتات في أثناء الرحلات نفسها داخل النواقيس بلا تربة، مع تزويدها بالمحاليل المشبعة بالعناصر اللازمة لنموها، ولقد نجح في هذا المضمار استنبات بذور البازلاء، والطماطم، والقرنبيط خلال رحلات متعددة للسوفييت والأمريكيين، وقد ظل أربعة ملايين طالب من الدول الأوربية والأمريكية يتابعون زراعة بذور الطماطم التي سبق حملها في مكوك الفضاء الأمريكي، وكان قد تم وضع ٩ ملايين بذرة طماطم داخل ٢٠ كيساً، وأرسلت إلى الفضاء في إحدى رحلات المكوك، فعرض تأثير الإشعاعات الفضائية وحالة انعدام الوزن عليها... وقد وزعت البذور في عدة بلدان على ٤ ملايين طالب لزراعتها، وأعطي لكل طالب منهم بذرتان فقط كي يتابع زراعتها بنفسه ويسجل ما يظهر عليها من تطورات، وذلك حتى تنمو روح ربط اهتمامات الشباب دائماً بأبحاث الفضاء وعلومه.

مزروعات في بيئة فضائية

في رحلات السوفييت المبكرة وذات المدد القصيرة، كان طعام رواد الفضاء محدداً، ويتناوله بطريق المص من أنابيب يوضع فيها الطعام في صورة عجائن سهلة الانسياب، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى المشروبات، وذلك تفادياً لتناثر فتات الطعام أو قطرات الماء والشراب داخل السفينة، وتعلقها في فراغها بتأثير انعدام الوزن، ولكن عندما طالت مدد الرحلات كان لزاماً حفظ الطعام مجمداً في ثلاجات ثم تسخينه على مواقد كهربائية داخل سفن الفضاء، وتحولت ألوان الطعام إلى مزيج من العجائن والأطباق العادية التي يتناولون مثلها على الأرض مع تفادي المشروبات الكحولية والبقول التي تتولد عنها الغازات في البطن، ومنتجات الألبان التي تنجم عنها مخلفات كثيرة. وفي هذا الوقت المبكر الذي كان طعام رواد الفضاء فيه على هذا المنوال قام السوفييت عام ١٩٦٧م بتجربة رائدة في مجال الاستزراع الفضائي، لتصير هذه التجربة فتحاً جديداً للاستعداد لرحلات الفضاء الطويلة.

لقد تمت التجربة بأسلوب غريب، إذ أجريت داخل (محاكي) فضائي على الأرض أو ما يمكن أن يطلق عليه زنزانة فضائية، ووضع فيها ثلاثة من رواد الفضاء لمدة عام كامل في ظروف تماثل الظروف التي يعيش فيها رواد الفضاء في مركبتهم وهم معزولون عن العالم الخارجي «تجربة ناقوس الطماطم».

قام العلماء في أحد مراكز البحوث التابعة لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» بزراعة شجيرة صغيرة من أشجار الطماطم داخل ناقوس من البلاستيك الشفاف وضع في غرفة مهيأة في ظروف مماثلة لظروف الفضاء، وراح العلماء يراقبون نمو الشجرة فتأكد لهم أن نموها طبيعي، أي إنها لم تتأثر بعزلها عن العالم الخارجي، والجديد في هذه التجربة أن جذور الشجرة لم تكن مغروسة في تربة طينية بل كانت جذورها عارية، وتستمد غذاءها من مستودع وضعت فيه محاليل كيماوية تحوي العناصر اللازمة للنمو، وتعمل مضخة صغيرة على سحب المحاليل من المستودع ورشها على أوراق الشجيرة ليكتمل الغذاء عن طريق الأوراق إلى جانب امتصاص الجذور له، وقد وضع العلماء فوق الناقوس أجهزة لقياس غاز ثاني أكسيد الكربون بالأوكسجين الذي يلفظه النبات، وأنابيب لقياس درجات الحرارة والرطوبة، وأجهزة أخرى لمعرفة الزيادة التي تطرأ على وزن الشجيرة ومعدلات هذه الزيادة. هذا بالإضافة إلى قياس كمية الضوء التي تنبعث وتنفذ داخل الناقوس.





نجاح استنبات بذور البازلاء والطماطم، والقرنبيط خلال رحلات متعددة للسوفييت والأمريكيين

التجربة الأمريكية للزراعة من دون تربة في الفضاء

قام الأمريكيون بتنفيذ تجربة زراعية فضائية في ولاية أريزونا بتصنيع ظروف بيئية تحاكي ظروف الحياة في الغابات والمحيطات والصحارى بصنع نماذج مصغرة لها داخل هياكل فولاذية، وقام بالتجربة ثمانية رواد من المتطوعين حيث تم عزلهم عن العالم مدة عامين كاملين داخل هذه النماذج لإجراء التجارب اللازمة، وتركزت التجربة على تحقيق تبادل المنافع بين هؤلاء المتطوعين والنباتات التي يزرعونها في هذه الظروف البيئية المختلفة، بحيث يحصل النبات على ثاني أكسيد الكربون اللازم لبناء خلاياه من زفير هؤلاء المتطوعين، بينما يعتمدون في أخذ الأوكسجين اللازم لتنفسهم على ما يطلقه النبات من أوراقه وسطحه الخارجي، وذلك حتى يتحقق الاكتفاء الذاتي لهؤلاء الرواد لطعامهم في أثناء التجربة دون أن يتزودوا بأي مؤن خارجية، ويتم ذلك في إطار الاستعداد لكي يتحقق في الفضاء تبادل منافع مثلما يتم على كوكب الأرض بين الإنسان والنبات. ويطلق الأمريكان على هذا المشروع اسم (الحياة ـ ٢) تعبيراً عن كون الأرض تضم لون الحياة رقم ١، وهم يخططون للحياة الثانية على مدارات في أغوار الفضاء الكوني.

اكتفاء ذاتي في أثناء الرحلة الكونية

قام العلماء في مركز جونسون الفضائي بوضع أحد خبراء الكيمياء في

حجرة مربعة الشكل، طول ضلعها عشرة أمتار، وتحتوي على فرن ميكروويف وتليفون مع كمبيوتر إضافة إلى جهاز فيديو مع مزرعة قمح صغيرة بمساحة لا تتجاوز ١٠.٨ أمتار مربعة. وبعد أسبوع كامل خرج هذا الكيميائي من تلك الحجرة وهو بصحة جيدة لاعتماده على الأوكسجين الذي أفرزته المزرعة النباتية الصغيرة، أما الماء والغذاء فكانا محفوظين بالهواء المحكم. ويأتي هذا الاختبار ضمن برنامج فضائي للاعتماد الذاتي تشرف عليه فرق علمية من الولايات المتحدة واليابان وأوربا وروسيا يرمي إلى تطبيق الحياة الطبيعية على الأرض في أثناء الرحلات الكونية، وفي ظروف الفضاء الشديدة التعقيد.

وتدعيماً لهذه الجهود العلمية أجرت وكالة الفضاء ناسا تجاربها لإحلال النباتات محل خزانات الأوكسجين في الرحلات الفضائية المأهولة، فوضعت نباتات البطاطس في خزانات مغلقة تماماً، ومضاءة صناعياً، ولمدة تزيد على العام لدراسة كمية الأوكسجين المنتج بهذه الطريقة. فتبين إمكان الحصول على أكثر من احتياجات مواد الفضاء خلال رحلتهم مع توفير الغذاء، على أن يتم الري بطريقة الترشيح للمياه المستخدمة في الرحلة بعد أن تنقى ويعاد استخدامها.

وباشر العلماء أبحاثهم لتقييم الأوكسجين اللازم لرواد الفضاء، وإعادة استخدام ثاني أكسيد الكربون، فتوصلوا إلى قناعة بأن حاوية مساحتها عشرون متراً مربعاً مزروعة بالنباتات تكفي لتلبية المتطلبات المعيشية لكل رائد فضاء واحد، لكن ذلك يتطلب تربة خاصة يمكنها إدامة التغذية النباتية عدة سنين، فأثمرت جهود العلماء في إنتاج تربة صناعية تتمتع بهذه الخواص الفريدة مكونة من مزيج من الزيولايت والنتروجين والبوتاسيوم مضافاً إليها معدن الأبتايت المركب صناعياً والحاوي على مصادر كبيرة من التغذية النباتية.

مصادر بديلة

تواجه العلماء معضلة فنية كبيرة في كيفية توفير الضوء الكافي الذي تحتاج إليه النباتات المزروعة في الفضاء الخارجي. فمن المتوقع أن تعتمد الرحلات الفضائية الطويلة على الطاقة الشمسية في إدامة اعمالها اعتماداً على تحويل هذه الطاقة إلى طاقة كهربائية للإنارة وغيرها. لكن استعمال هذه الإنارة لأغراض زراعية تعد مسألة مكلفة، لذلك يفكر العلماء في استغلال نظام الألياف البصرية لتوفير

> أجرت وكالة الفضاء ناسا تجاربها لإحلال النباتات محل خزانات الأوكسجين في الرحلات الفضائية المأهولة، فوضعت نباتات البطاطس في خزانات مغلقة تماماً، ومضاءة صناعياً، مدة تزيد على العام لدراسة كمية الأوكسجين المنتج بهذه الطريقة

النور اللازم لعملية التمثيل الضوئي التي تتسم بالتعقيد، ؛ لأن النباتات بطبيعتها وفي الحالات النموذجية لا تستغل سوى ٧٪ من النور المسلط عليها، لأسباب تعود إلى تركيبة الكلوروفيل الذي يتعامل بحساسية مع الوحدات الضوئية (الفوتونز).

وفي مسعى للخروج من هذا المأزق نجح مهندسو الزراعة الفضائية في ابتكار تقنيات جديدة تعرف بومضات الضوء الكهربائي التي يمكنها توفير الضوء الكافي للنباتات في الوقت الملائم. فبفضل هذه التكنولوجيا أصبح بالإمكان إعطاء عدة مئات من الومضات الضوئية ذات التردد العالي في الثانية الواحدة ليكفل الضياء الكافي لنمو النباتات.

ولا يراود العلماء أي شك في نجاح أبحاثهم في الزراعة الفضائية، لكن المشكلة هي في إدامة هذه العملية وقدرتها على توفير الغذاء عدة سنين، وسيكون لتقنيات الهندسة الوراثية التي بلغت مراحل متطورة في الاختصاصات الزراعية دور فاعل في الميدان الفضائي لحل المشكلات المتوقعة في هذا الميدان. ولكن يساور العلماء مخاوف من تأثير البقاء الطويل في الفضاء على التغذية البشرية وطبيعتها. واحتمالات نقص الكالسيوم في العظام بسببها، وضرورة تطعيم رواد الفضاء بمواد مستخلصة من الجزر، والطماطم لحمايتهم من الإشعاعات الكونية.

تبادل محكم للغازات

إن عملية أخذ الأوكسجين من قبل الإنسان وطرح ثاني أكسيد الكربون الذي تحتاج إليه النباتات لتطلق الأوكسجين ثانية مسألة دقيقة تتطلب السيطرة التامة، وإلا فإن إدامة الحياة خلال الرحلة الكونية ستكون معرضة للخطر الشديد، ولاسيما أن هذه النشاطات تدور في حيز محدود ومغلق.

وللسيطرة على هذه العملية وضمان توازنها فإن الغازات التي يطلقها الإنسان والنبات ستمر من خلال خزانات خاصة لتقويم محتوياتها وإجراء عمليات فيزيائية وكيماوية عليها لتعويض الكميات الناقصة منها. لكن العلماء يطمحون إلى إيجاد وسائل أفضل تحقق هذه التبادلات الغازية وانتظامها بصورة مباشرة، وذلك بعد التغلب على مشكلات التلوث والتسمم المحتملة خلال تلك العملية.

باشر العلماء تجاربهم لاختبار أنواع من المرشحات الحيوية (البيولوجية) التي يمكنها تحويل الترسبات السامة للمواد الصبغية والبلاستيكية والصمغية إلى ثاني أكسيد الكربون والماء مع الكلوريدات المتأينة.

وشجع نجاح هذه المرشحات على المباشرة بتطبيقها ضمن برامج محطة

(مير) الفضائية لاختبار قدرتها في ظروف انعدام الوزن خارج الأرض. كما يحاول العلماء تصنيع مركبات جديدة يمكنها تنقية مياه الصرف الصحي، إضافة إلى تنقية السوائل البولية وإعادة استخدامها كمواد نيتروجينية لتسميد الحقل الزراعي الصغير. أما الفضلات الصلبة فيمكن حرقها إلى درجة ٥٠٠ مئوية لتتحلل إلى ثاني أكسيد الكربون وماء، وهذا الأخير يمكن إعادة استخدامه، بعد توفير اللوازم الفنية لامتصاص الروائح المنبعثة نتيجة هذه العمليات التحويرية المعقدة، لكن هذه الانجازات لم تحل جميع المتطلبات الغذائية والمعيشية لرحلات المستقبل.

تجارب أولية على متن المحطات الفضائية

رشحت لجنة طيران الفضاء مع مطلع عام ١٩٩٦م، باحثة الكيمياء الحيوية (التي أصبحت رائدة فضاء) وهي: «شانون لوسيد»، لتنضم إلى (طاقم) المحطة الفضائية الروسية مير Mir، وكانت ناسا قد كلفت مبعوثتها بإجراء تجارب معينة... التي عرضت تقريراً حول رحلتها... ورد فيه نتائج تجارب كثيرة أجرتها في المختبر الخاص الملحق بالمحطة... منها تجارب في مواد الزراعة وذلك بإنبات قمح داخل دفينة (بيت زجاجي) Green house... حيث استهدفت الاختبارات تعرف كيفية نمو حبات القمح ونضجها في بيئة ذات ثقالة مكروية، وكان للتجربة تطبيق كامن مهم، هو أن نمو النباتات يمكن أن يؤمن الأوكسجين والغذاء في مهمات طيران فضائية تدوم فترة طويلة، إذ تم التركيز على الأنواع القزمية من القمح، لأن فترة نموها قصيرة... وقد قامت الباحثة بزرع حبوب القمح في تربة من الزيوليت Zeolite، وهو مادة حبيبية ماصة.

ويتحكم برنامج حاسوبي في مقداري الضوء والرطوبة اللذين يتلقاهما النبات. وقامت الباحثة بتصوير سويفات القمح ومراقبة ذلك يومياً.

ثم تم حصد بعض النباتات وحفظها في محلول بغرض تحليلها لاحقاً على الأرض، وفي إحدى الأمسيات - بعد نمو النباتات بنحو ٤٠ يوماً - ظهرت سنابل في أعلى السويفات... وكان رائد الفضاء الذي خلف الباحثة عقب نهاية مأموريتها، قد قام بحصد النباتات الناضجة بعد بضعة أشهر، وجلب معه أكثر من ٣٠٠ سنبلة إلى الأرض. ولكن العلماء في جامعة ولاية يوتا اكتشفوا أن جميع السنابل كانت فارغة، وتوقع الباحثون أن السبب يعود إلى تأثير مستويات الإيثيلين المنخفضة، الموجودة في جو المحطة مير، في تلقيح القمح؛ وفي أبحاث أخرى لاحقة على المحطة مير، قام رائد الفضاء «فوايل» بزرع أنواع بذور اللفت الملقحة تلقيحاً ناجحاً.

إن البيئة الثقالية المكروية على المحطة الفضائية قدمت أسساً جديدة لمنطلقات البحوث الزراعية.. هي محور اهتمامات العلماء خلال الألفية الثالثة بتطوير تقنيات استزراع داخل البيئة الفضائية... ويذكر أن ضمن برامج المحطة الفضائية الدولية والمزمع تشغيلها في العقد الأول من هذا القرن... تطوير برامج للزراعة الفضائية إلى جوار برامج البحوث العلمية الأخرى.

قطاع يبين غرفة الطعام ويستطيع الرواد الجلوس بأي وضع لعدم وجود الجاذبية

المراجع

١. محمد عبدالرحمن البلاسي، المنافسة الحامية بين الأمريكيين والسوفييت لزراعة الفضاء، مجلة دنيا الطيران، العدد ٢٣، يونيه/حزيران ١٩٩٨م، ص١٤ : ١٧.

٢. لطيف علي، مزارع في الفضاء، مجلة العربي، العدد ٤٨٧ يونيو/حزيران ١٩٩٩م، ص ٦٤ : ٦٦.

٣. ترجمة: رشدي غبرس وآخرين، ستة أشهر على متن المحطة الفضائية مير، مجلة العلوم، المجلد ١٥، العدد١، يناير/كانون الثاني ١٩٩٩م، ص٤ وما بعدها.
Shannon W. Lucid, Six Months on Mir, Scientific American,1998, No 129

٤. ميرالي: نهايتها وحتلها بعد ١٣ عاماً من الإنجازات، مجلة الدفاع العربي، السنة الرابعة والعشرون، العدد الأول أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٩م، ص ٧٤ و٧٥.

٥. إياد أبوعوض، محطة الفضاء الدولية، المجلة العربية للعلوم، العدد ٣٢، السنة السادسة عشرة، رمضان ١٤١٩هـ - ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨م، ص ٦٣ - ٦٦.

حاجتنا إلى تخصص تقانة المعلومات في المستقبل

فاروق الباز
بوسطن - أمريكا

لم يتمكن العالم العربي في أوائل القرن الماضي من المشاركة في عصر التصنيع لعدة أسباب، كذلك لم يتمكن في النصف الأخير من القرن نفسه من دخول عصر الذرة، ثم عصر الفضاء. اليوم ونحن على أبواب الألفية الثالثة أمامنا فرصة في الدول العربية يجب عدم إضاعتها لمشاركة العالم المتقدم في الممارسة الحقيقية لعصر المعلومات.

لن يستمر باب المشاركة في عصر المعلومات مفتوحاً وقتاً طويلاً؛ لأن التغيير في هذا المجال يتم بإيقاع سريع جداً. فالدول التي تستطيع اللحاق بالركب سوف تكون لها مكانة في المستقبل؛ أما من لم يمتلك قدراً كافياً من المعرفة فسوف يبقى في المؤخرة غريباً متفرجاً، يدفع الكثير، يستقبل ولا يشارك.

إن المشاركة تسهل في عصر المعلومات مقارنة بعصور التصنيع والذرة والفضاء؛ لأنها لا تحتاج إلى قاعدة إنتاجية واسعة راسخة، أو رأس مال ضخم، أو ثروات طبيعية خارقة للعادة؛ فكل ما تتطلبه المشاركة ما يلي:

- القيادة الواعية التي تقدر أهمية التقدم في هذا المجال المهم، وتجرؤ على اتخاذ ما يلزم من خطا لدعم الأبحاث فيه بثقة وعزم.
- إعداد برامج مكثفة لنشر ثقافة الحاسب الآلي في المجتمع كله.
- تدريب عدد كاف من الخبراء المتميزين في وسائل التعامل مع المعلومات.
- توفير الحاسبات الآلية وتطوير برامجها وتجديدها الدائم.
- الإدارة المنفتحة التي تحث على الولاء في العمل، وتسعى إلى تنمية الإبداع الفكري واحتذاء أحسن السبل في استخدام التقانة الحديثة.

لذلك يجب أن يؤمن قادة البلدان العربية بأن المشاركة في مجال «تكنولوجيا المعلومات» لها منافع متعددة ومتشعبة في أي عمل يمكن إفادته باستخدام الحاسب الآلي، شاملاً ذلك عمل المؤسسات الحكومية، ومراكز الإنتاج والتعليم والصحة، وسبل النقل البري والبحري والجوي، وشركات التجارة الخاصة.

تقانة (تكنولوجيا) المعلومات

يمكن تعريف (تكنولوجيا) المعلومات بأنها مجموعة الوسائل «من أجهزة وبرامج وخبراء» التي تسهل نقل المعلومات وتبادلها في داخل مؤسسة أو بين المؤسسات المختلفة، شاملاً ذلك جمع المعلومات وتخزينها ومقارنتها وتحليلها والتخطيط لسهولة استخدامها في الوقت المناسب.

تعتمد تكنولوجيا المعلومات على استخدام قدرة الحاسوب «الكمبيوتر» في تخزين المعلومات، ومقارنة بعضها ببعض وعرضها في صورة تؤهل إلى أخذ القرار السليم؛ لذلك فتطبيقات المجال متعددة وتؤثر تأثيراً بالغاً في نشاطات الدول والمؤسسات والشركات والأفراد على حد سواء.

ويتطرق هذا المقال إلى أهمية مشاركة العالم العربي للركب العالمي في مجال تقانة (تكنولوجيا) المعلومات. وترد في المقال أمثلة لاستخدامات تكنولوجيا المعلومات في المجالات المختلفة، إضافة إلى أمثلة لكيفية البدء في فتح آفاق جديدة لتعليم الشباب العربي في هذا الفرع، ولاسيما في كليات التكنولوجيا بالجامعات الخاصة التي تزداد انتشاراً مع مرور الزمن.

الحاسب الآلي

أعلن وليم شوكلي في عام ١٩٤٧م عن اختراع «الترانزيستور» في معامل بيل بولاية نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد مكّن هذا الاختراع من تغيير تيار كهربائي إلى معلومات رقمية. وبعد عشر سنوات استطاع روبرت نويس مع جاك كيلي إضافة وسيلة لنقش أسطح الترانزيستور على شكل شرائح من السيليكون سُميت «مايكروتشبس». أدت هذه الاختراعات إلى إنتاج الحاسب الآلي السريع أو الكمبيوتر.

ولا شك أن الحاسوب (الكمبيوتر) من أهم اختراعات القرن العشرين؛ لأن هذه الآلة تتمركز في بؤرة الخطوط الأساسية للتقدم العلمي والصناعي والتكنولوجي في جميع أرجاء العالم، وهناك الكثير من الأشياء التي نعدها اليوم من مستلزمات الحياة اليومية في البنوك والمحلات التجارية وما إليها والتي لا يمكن أن تتم بصورتها الحالية دون الحاسب الآلي. وقد كان الكومبيوتر سبباً أساسياً في التقدم التكنولوجي المذهل في أواخر القرن الماضي خصوصاً في عالم الاتصالات، واستكشاف الفضاء.

على سبيل المثال تمكّن كمبيوتر حجمه قدم مكعب وكلّف إعداده ٥٠ مليون دولار من القيام بالحساب على متن سفن رحلات أبوللو في أثناء دورانها حول القمر لتحديد مسار الهبوط على سطحه. وكانت الحسابات اللازمة لذلك تتم في أثناء اختفاء السفينة في مدار خلف القمر دون اتصال بمركز متابعة الرحلة على الأرض.



وكان عدم وجود كمبيوتر مماثل في روسيا آنذاك سبباً في عدم قدرتها على إرسال رواد فضاء إلى القمر، مع أن الاتحاد السوفييتي كان متقدماً، وسبق الولايات المتحدة في إرسال سفن فضاء ورواد إلى مدار الأرض.

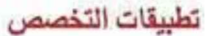
الإنترنت

بدأت شبكة اتصالات الحاسب الآلي الإنترنت كتجربة في وزارة الدفاع الأمريكية في عام ١٩٦٩م. تم في ذلك الوقت ربط أربع آلات حاسبة كتجربة لاتصال بعضها ببعض إذا ما قامت حرب عالمية ثالثة! ازدادت إلى أكثر من عشرين آلة في ١٥ موقعاً خلال عامين.

ومع استمرار نمو الشبكة أثرت الهيئة القومية للعلوم التي تدعم البحث العلمي في أمريكا في عام ١٩٨٠م أن تربط الجامعات الأمريكية الكبرى لكي يستطيع العلماء استخدام الإنترنت في تبادل المعلومات؛ لذلك تم فصل الشبكة العسكرية «ميل نيت» عن تلك التي يستخدمها المدنيون في عام ١٩٨٣م مع الحفاظ على الاتصال بين الشبكتين عند اللزوم.

واستمرت الشبكة في التوسع حتى اشتملت على جميع الجامعات الأمريكية في عام ١٩٩٢م. وبعد عام واحد اقترح البيت الأبيض ربط الشبكة بباقي العالم تحت شعار «الطريق السريع للمعلومات». أضيف برنامج لتصفح الشبكة يسمى الملاح «نيت سكيب نافيغاتور» في عام ١٩٩٤م. وقد سمحت هذه الإضافة للقطاع الخاص والأفراد بالتوسع في استخدام الإنترنت.

وعلى الرغم من أن شبكة الإنترنت كانت أساساً وسيلة لنقل نتائج الأبحاث وتبادل المعلومات بين أساتذة الجامعات، فقد أصبحت وسيلة فريدة وسهلة ورخيصة للاتصال بين الأفراد عالمياً، وأداة للتجارة المحلية والدولية. ويزداد استخدام الإنترنت بسرعة فائقة، حتى إن بعض المفكرين يعتقدون أنها سوف تكون الوسيلة الوحيدة للتعامل عالمياً، ليس بين الأفراد والشركات، ولكن بين الدول والمؤسسات أيضاً خلال العقد الحالي.



تطبيقات التخصص

التخصص في تكنولوجيا المعلومات يؤهل صاحبه للاستخدام الأمثل للكمبيوتر وبرامجه في مجالات عدة نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

. إدارة العمل في المؤسسات الحكومية:

كان جمع الإحصائيات والتعامل معها في الماضي يمثل مشكلة كبيرة للمؤسسات الحكومية؛ أما اليوم فتكفل الآلات الحاسبة المنتشرة في القرى والمدن جمع المعلومات وبثها إلى آلات مركزية في عواصم الدول، كما أن سهولة جمع المعلومات وتقويمها دورياً، وموازنة بعضها ببعض تسمح بالتخطيط السليم لعمل الدولة في مجالات التعليم والصحة والاقتصاد والنقل والإنتاج وما إليها. ويؤكد هذا «مركز المعلومات واتخاذ القرار» التابع لرئاسة مجلس الوزراء في جمهورية مصر العربية والذي

تدعم معلوماته الرقمية معظم قرارات الدولة.

ـ الأمن العسكري والمدني:

بدأ تطبيق تكنولوجيا المعلومات في المؤسسات العسكرية بإعداد «غرفة العمليات» وذلك للزوم أخذ اعتبارات عدة في أثناء التخطيط للعمل الإستراتيجي، وكذلك أهمية سرعة تغيير الخطط في النشاط التكتيكي تبعاً لمتغيرات الميدان.

يسهل كل هذا سبل تكنولوجيا المعلومات كما اتضح من الممارسات في أثناء «حرب الخليج».

وبدأت مؤسسات الأمن المدني مؤخراً تستخدم الوسائل نفسها في مراكز الشرطة وإطفاء الحريق والمستشفيات وما إليها، وذلك لسرعة العمل وإتقانه.

ـ التخطيط للبنية الأساسية ومتابعتها:

تعتمد البلديات المتطورة على سبل تكنولوجيا المعلومات في التخطيط لإنشاء الطرق وخطوط المياه والكهرباء والاتصالات والصرف الصحي وما إليها. فمتابعة سلامة هذه المرافق مهمة جداً لسرعة إصلاح ما يفسده الدهر دون عناء المواطنين أو التأثير في أداء الأفراد والمؤسسات، لما في ذلك من أثر في الاقتصاد الوطني.

ـ حركة الموانئ والمطارات:

لا شك أن سبل النقل قد تقدمت تقدما مذهلاً في القرن الماضي. ويعطي العمل حالياً في سلطة موانئ دبي مثلاً حياً لاستخدام تكنولوجيا المعلومات في أمور النقل البحري. إضافة إلى ذلك، فمنذ اختبار أول طائرة في عام ١٩٠٣م، فإن أعظم مظاهر العصر الحديث هو سفر مئات الملايين من الناس في كل عام من مكان إلى آخر باستخدام الطائرات. وتعتمد حركة المطارات ودقة خطوط الطيران حالياً على سبل تكنولوجيا المعلومات حيث تتحكم الآلات الحاسبة في كل عمل، فيستخدم الكمبيوتر في متابعة رحلات الطيران وعدد الركاب وأمتعتهم، وكل ما يلزم مطار الإقلاع ومكان الوصول للتأكد من استمرار الحركة دون عائق، ومتابعة ما يحصل من تغييرات مناخية أو أخرى من صنع الإنسان. لذلك يمكن القول: إن لتكنولوجيا المعلومات دوراً أساسياً في النقل.

ـ نقل المياه والنفط والغاز:

إضافة إلى ازدياد نقل البضائع والإنسان، يزداد أيضاً نقل المياه والنفط والغاز الطبيعي من مواقع الإنتاج إلى أسواق الاستهلاك.

يتم مثلاً نقل ٥٥٪ من المياه العذبة التي تستخدم في مدينة الرياض بواسطة أنابيب من محطة تحلية مياه الخليج العربي في الجبيل. كذلك يضخ نفط بلدان الخليج في شبكات متشعبة من حقول الإنتاج إلى مصانع التكرير أو مراسي الشاحنات للأسواق العالمية. وتحتاج كل هذه الخطوط إلى استخدام أمثل لتكنولوجيا المعلومات.

ـ التعامل مع الكوارث والمخاطر:

يمثل أحد استخدامات وسائل تكنولوجيا المعلومات المهمة في تسهيل التعامل مع المعلومات التي تفيد في الإقلال من مخاطر الكوارث الطبيعية. فيمكن مثلاً جمع المعلومات عن الوضع الجيولوجي الذي يؤثر في تفجر الزلازل في منطقة ما لتفادي إقامة منشآت عمرانية فيها. كذلك تساعد نظم المعلومات الجغرافية، وهي أحد برامج تكنولوجيا المعلومات على تفادي مخاطر السيول. ويتم ذلك بجمع معلومات عن الأمطار، وأحواض تجمع المياه، وطول الوديان وعرضها وعمقها ودرجة ميل سطحها لحساب كمية تجمع المياه، من أمطار في أعالي الجبال على مسافات بعيدة.

ـ التجارة الإلكترونية:

يتصف الوقت الحاضر ببدء ثورة عاصفة في استخدام الإنترنت من قبل القطاع الخاص؛ إذ فتحت شبكة الإنترنت آفاقاً لا حصر لها للبيع والشراء وتبادل الأشياء، وبدأت في تغيير ملامح البيع والشراء في التجارة المحلية والعالمية بوقع سريع جداً.

فالتجارة الإلكترونية التي أحدثتها سبل تكنولوجيا المعلومات تسهل الرؤية الواضحة لتحليل الأسواق، والتخطيط لاختيار ما يناسب من معروضات، واختصار الوقت اللازم لمقابلة البضائع بعضها ببعض واختيار أنسبها وإكمال عمليات البيع والشراء.

وربما لا يعلم الكثيرون أنه عندما تمر بطاقة الأمان في جهاز البائع تبث المعلومة إلى قمر صناعي ومن ثم يبثها بدوره إلى مركز البنك المستخرج للبطاقة لكي يتم تحقيق المشترى. ويتم فوراً إعلام منتج البضاعة عن المشتري ومزاجه الخاص في الشراء والملبس والمأكل والاستجمام لكي يتم التخطيط لكيفية اجتذاب الشخص لشراء معروضات أخرى. ونرى اليوم محاولة لجذب مؤسسات التجارة الإلكترونية إلى العالم العربي وذلك بإنشاء مدينة إنترنت دبي.

تمكن حاسوب حجمه قدم مكعب وكلف إعداده ٥٠ مليون دولار من القيام بالحساب على متن سفن رحلات أبوللو لتحديد مسار الهبوط على سطح القمر

التصوير الفضائي

منذ أن بدأ استكشاف الفضاء في منتصف الستينيات من القرن الماضي اتضحت أهمية تصوير الأرض من الفضاء لأغراض متعددة. فقامت أجهزة التصوير ووسائله في بداياتها باستخدام «كاميرات» في أيدي رواد الفضاء أوضحت مواقع المدن والقرى، ثم خطت إلى ما نراه اليوم من أجهزة فائقة الدقة تجمع المعلومات

الرقمية آلياً وتبثها لتوضح أنواع السيارات في مواقفها.

وقد جلب هذا التطور المذهل في الاستخدام المدني لأبحاث الفضاء الخير على الدول النامية أكثر مما عليه الحال في الدول المتقدمة اقتصادياً؛ لأن معظم الأراضي في الدول النامية بكل من إفريقية وآسيا لا توجد لها خرائط تسمح باستكشاف ثرواتها الطبيعية وتعرف ما يحصل بها من تغييرات بسبب المناخ أو الإنسان.

ويهمنا تطور التصوير الفضائي في العالم العربي لأن بيئتنا جافة، ولا نعرف عن الصحراء في بلادنا كما نعرف عن باقي تضاريس الأرض من الناحية الجيولوجية ولذلك ثلاثة أسباب(١):

أولاً: نشأة علوم الأرض في أوربا وهي القارة الوحيدة التي ليس بها صحراء، لذلك لم يهتم الأوائل بتضاريس الأراضي الجافة.

ثانياً: الصحراء واسعة يصعب الترحال فيها، ولا يقدم على دراستها، حتى وقتنا الحالي، إلا قلة من العلماء.

ثالثاً: يغطي الصحراء خليط من فئات الصخور والرمال ويصعب على الجيولوجي تحديد أصل الرواسب وتاريخ تطورها.

لهذه الأسباب نجد أن الكتابات العلمية عن طبيعة بيئة صحراء قليلة جداً، وتؤهل لنا الصور الفضائية دراسة الصحراء؛ لأنها توضح تضاريس صخورها بجلاء، كذلك يسهل متابعة ما يحصل من تغييرات على سطح الصحراء بمقارنة صور تؤخذ في أوقات مختلفة.

تم مثلاً تعرف ما حصل من تغييرات على سطح صحراء الكويت نتيجة لحرب الخليج وذلك بمقارنة صور المنطقة قبل الحرب وبعدها. وسمحت هذه الصور بتحديد أسباب التغييرات ثم متابعتها عاماً بعد عام، وخصوصاً بعد إمكانية تحديد حركة الكثبان الرملية(٢).

- أنواع الصور:

تميز برنامج الفضاء الأمريكي بتنوع الأجهزة والوسائل للحصول على الصور من الفضاء شاملاً ذلك ما يلي:

- صور الرواد:

أخذ رواد الفضاء عدة صور للأرض في أثناء رحلات «جيميني» و أبوللو وسكاي لاب وأبوللو - سيوز، بالإضافة إلى رحلات مكوك الفضاء الحالية. وأخذت معظم هذه الصور بالفيلم الملون الذي يوضح الألوان الطبيعية.

صور أقمار المناخ

هناك أقمار صناعية يتم دفعها إلى ارتفاع ٣٦٠٠٠ كم فوق سطح الأرض. عند هذا الارتفاع تعادل سرعة دورانها حول الأرض سرعة دوران الأرض حول محورها، لذلك تبقى ثابتة فوق النقطة نفسها من خط الاستواء.

وتستطيع هذه الأقمار بث المعلومات عن غطاء السحب وهبوب الرياح في أعالي الغلاف الجوي في كل ساعة أو أقل. وتقوم أقمار (ميتسات) الأوربية و(نوا) الأمريكية بتغطية نصف الأرض الشرقي والغربي لهذا الغرض.

- أقمار البث الآلي للصور:

أثبت برنامج «لاندسات» الأمريكي أهمية الاعتماد على جمع المعلومات الرقمية وبثها آلياً ومعالجتها لكي تعطي صورة للأرض منذ انطلاق أول أقمارها في عام ١٩٧٢م(٣). وقد ساهمت صور لاندسات في عدة دراسات بالعالم العربي ولاسيما بالمملكة العربية السعودية حيث توجد محطة أرضية في مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية لاستلام صور المملكة وما يحيط بها من دول عربية. وكذلك فآخر أقمار لاندسات رقم ٧ يبث صوراً توضح أجساماً بنصف حجم (١٥متر)، وكان أحسن ما أوضحه قمر قبله (٣٠متر)، لذلك يعتقد أنه سوف يستخدم بكثرة في دراسة الأرض مستقبلاً(٤).

> تم تعرف ما حصل من تغييرات على سطح صحراء الكويت نتيجة لحرب الخليج وذلك بمقارنة صور المنطقة قبل الحرب وبعدها

وتقوم أقمار «سبوت» الفرنسية في الوقت نفسه بأخذ صور دقيقة بعضها يوضح ما حجمه ١٠ أمتار وذلك بطريقة مجسمة تسمح بدراسة فوارق الارتفاعات في تضاريس الأرض المختلفة. وكثيراً ما تم خلط صور أقمار سبوت ذات الدقة التعبيرية المتميزة ١٠ أمتار مع صور لاندسات ٣٠ متراً التي توضح كيماوية الصخور والتربة وأنواع الغطاء النباتي.

جهاز التصوير للخرائط:

تم في عام ١٩٨٤م اختيار الكاميرا ذات الإطار الكبير التي صنعتها ناسا لأخذ صور تسمح بعمل خرائط طبوغرافية دقيقة للأرض بمقياس رسم ١: ٥٠،٠٠٠. اشتق اسم الكاميرا من حجم كل صورة أصلية وهو ٦٦سم طولاً و ٢٣ سم عرضاً. وقد تم هذا الاختيار على متن مفينة مكوك الفضاء «تشالنجر» قبل انفجارها وغطت الصورة الواحدة منطقة مساحتها ٥٧٠٠٠ كم بدقة تعبيرية تراوح بين ١٠ و ٢٠ متراً. وقد اقترح المؤلف استخدام هذه الكاميرا لأخذ صور تمكن من عمل الخرائط الطبوغرافية لصحراء العالم الإسلامي لأهمية هذه الخرائط في تنمية الموارد بالدول النامية(٥).

- بيانات الرادار:

تبث أجهزة الرادار موجاتها تجاه سطح الأرض، ثم تسجل الصدى الذي يعود إليها، لذلك فهي لا تعتمد على ضوء الشمس مثل أجهزة

التصوير الأخرى؛ أي إنها تعمل ليلا ونهارا، وكذلك فهي تخترق السحب، ولا يؤثر في عملها الغلاف الجوي. وأوضحت لنا صور الرادار التركيبات الجيولوجية في كثير من أنحاء العالم. كذلك اتضح أن لهذه الموجات قابلية فريدة في اختراق رمال الصحراء الجافة وتوضيح تضاريس الأرض المغمورة بالرمال. وهذه الخاصية لها استخدامات مهمة في الصحارى العربية؛ لأن صور الرادار توضح لنا مسارات الأودية القديمة التي كانت تمثل أنهاراً تجري فيها المياه بغزارة في الأحقاب الجيولوجية السابقة عندما كانت تهطل الأمطار بكثرة فيها، ثم اختفت تحت الرمال بعد أن حل الجفاف في منطقتنا منذ نحو ٥٠٠٠سنة. وتتمثل أهمية مسارات الأنهار القديمة في أنها تدلنا على مواقع تركيز المياه الجوفية تحت سطح الصحراء.

وكذلك استخدم جهاز راداري في أوائل عام ٢٠٠٠ لأخذ البيانات التي تؤهل التصوير المجسم للأراضي؛ أي إنها تغني عن الخرائط الطبوغرافية في بعض الاستخدامات. وينتظر أن تصبح المعلومات في يد العلماء خلال العامين القادمين.

أنظمة التصوير في المستقبل

يتم حاليا إعداد أجهزة لبرامج «استر» و«موديس» بواسطة هيئة الفضاء الأمريكية ناسا لتصوير الأرض في المستقبل. لكن في حقيقة الأمر سوف يكون للقطاع الخاص دور كبير جداً في مشاريع تصوير الأرض من الفضاء مستقبلا. فهناك عدة شركات تدير أو تخطط لإدارة برامج تصوير بدقة تعبيرية تصل إلى متر واحد للبيع مباشرة لمن يدفع الثمن في أي مكان بالعالم. وسوف يتم البيع والشراء خلال شبكة الإنترنت، مما يعني أن المشتري يمكنه الاتصال مباشرة من منزله أو مكتبه بالشركة المعنية، ويطلب شراء الصورة التي تصل له مباشرة على الحاسب الآلي بعد دفع ثمنها آليا.

ويتضح من هذا كله أن تكنولوجيا المعلومات سوف يكون لها دور فعال في الحصول على البيانات من الفضاء واستخداماتها في التطبيقات المختلفة. فالتعامل مع الصور الفضائية يستلزم الآلات الحاسبة مثله مثل التعامل مع أي بيانات أخرى بواسطة متخصص في تكنولوجيا المعلومات.

إعداد خبراء في تكنولوجيا المعلومات

إن خطوات إعداد خبراء في مجال تكنولوجيا المعلومات لا تستعصي على مؤسسات تعليمية تنشأ لهذا الغرض في العالم العربي؛ لأن ذلك لا يحتاج إلى ما هو ليس بمتاح. ويلزم لهذا الغرض آلات حاسبة وخبراء متمكنون في استخدام الكمبيوتر وبرمجته وتغيير البرامج تبعاً للمتطلبات. ولا تختلف المعدات أو البرامج اختلافا كبيراً في عمل المؤسسات الحكومية أو المصارف والشركات الخاصة.

ويمكن تدريس ما يلزم من معرفة عملية في كل مما يلي:

أولاً: البرامج والبرمجة واستخداماتها المختلفة، وهذه تستدعي آلات حاسبة مرتبطة بشبكة تحتوي على آلة طباعة.

ثانياً: تحديد متطلبات العمل والإنتاج لدعم مستخدمي التكنولوجيا، وهذا يستدعي التعامل مع النظم الأساسية لتكنولوجيا المعلومات.

ثالثاً: تنسيق المعلومات وموازنتها لدعم متطلبات أخذي القرار، وهذا يلزمه العلم بأسس نظم المعلومات الجغرافية.

ويستحسن إعداد ما يلزم من خبراء في كليات متخصصة يمكن أن يدعمها القطاع الخاص لأهمية الناتج منها لازدهار هذا القطاع. ويمكن أن تشمل برامج التدريب ما يلي:

- البرمجة اللازمة للتعامل مع بنوك المعلومات.
- نظم إدارة المعلومات واستخداماتها المختلفة.
- نظم المعلومات الجغرافية وأهميتها لأخذي القرار.
- الإنترنت واستخداماتها في مختلف الميادين.
- هندسة شبكات الكمبيوتر واختيار أنسبها وإعداده.
- أسس التعامل مع صور الفضاء الرقمية واستخداماتها.

وبناء على ما سلف فإن وسائل تكنولوجيا المعلومات الحديثة لها تطبيقات تؤدي دوراً أساسياً في سرعة أخذ القرار الحكيم في مجالات مختلفة. وتستفيد من هذه الوسائل المؤسسات الحكومية والشركات الخاصة والمنظمات والأفراد، ولا مفر من مشاركة العالم المتقدم في هذا المجال لأي دولة تعمل جادة للتقدم والازدهار. ويستطيع العالم العربي الخوض في هذا الفرع من العلم والمعرفة بخطوات واثقة خلال وقت قصير إذا ما توافرت الرؤية الواضحة والإيمان بقدرات الإنسان العربي في مواكبة العصر، ويجب إرساء هذه الثقة لكي ينعم العالم العربي بموقع يناسب مستواه بين دول العالم ونحن على مشارف الألفية الثالثة.

المراجع

١. فاروق الباز ١٩٩٨م. العالم العربي وبحوث الفضاء: أين نحن منها؟. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ص٧٩.
٢. فاروق الباز ومحمد عبدالرحمن الصرعاوي ٢٠٠٠. أطلس دولة الكويت من الصور الفضائية. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ص١١٥.
٣. فاروق الباز ١٩٧٩م. مصر كما تراها أقمار لاندسات. دار المعارف. القاهرة، ص١٦١.
٤. سليمان قيس القرطاس ٢٠٠٠. لاندسات - ٧ يعيد الحيوية لنظام لاندسات. الفيصل. عدد ٢٨٠، ص٩٢ - ٩٦.
٥. فاروق الباز ١٩٨١م القمر الصناعي الإسلامي «إسلام سات». الفيصل. عدد ٨٥، ص٩١ - ١٠٢.

البدء برحلة زرع الدماغ!!

مشروع نيكتار (NECTAR)[1]

خالص جلبي
القصيم - السعودية

عندما شعر مهندس الحاسوب (الكمبيوتر) (جورج) المغرم بعمله من سكان ولاية كاليفورنيا بأن أصابع يده ترتجف من حين إلى آخر لم يعرها انتباهاً كبيراً، وعزاها إلى الجهد وكثرة ضرب الأصابع على لوحة الكمبيوتر الذي لا يكاد يبتعد عنه، إلا أن هذا الرجفان (غير الإرادي)(٢) الرتيب الخشن المنتظم تطور بشكل مأساوي مع الوقت، فقد بدأ بالانتشار إلى بقية الأطراف العلوية سوية.

كان المرض يتطور وفي علاقة متناقضة محيرة، ففي الحين الذي ترج أطرافه وكأن يده (تعد النقود) أو (تسبح بالسبحة) كان يشعر أن بدنه خامل، وكأن مادة لاصقة تتغلغل في كل عضلة من عضلات جسمه الثقيل؛ فهو متصلب متيبس يقتلع خطواته اقتلاعاً وينتقل بصعوبة بالغة، فإذا شق على نفسه وأراد الإسراع فقد توازنه، فهو يهرع إلى الأمام وكأنه يركض خلف مركز توازنه. لقد استحال إلى كيان مشوه، وبدأ يفقد السيطرة على نظام العضلات في جسده، مع كل الصفاء الذهني الذي يتمتع به دماغه، واكتملت الصورة المرضية بفاجعة ليست على البال، أصابت هذه المرة تعبيرات وجهه حيث جمدت التعبيرات، فزالت الابتسامة، واختفى الضحك والبكاء، ومعالم الرضا والغضب، وتحول الوجه إلى قناع ثلجي جامد لا ينبس بكلمة، ولا ينم على معنى كما في وجه وزراء الخارجية في العادة!!



الدكتور لانجستون ومرضاه الثلاثة في معهد باركنسون في كاليفورنيا(٣)

كان المرض واضحاً لدى الأطباء، فهذا المزيج من وجه الأموات والشلل الذي يرج ويخض وكأنه شلل مجنون وصف من قبل الدكتور (جيمس باركنسون) قبل قرون، فمنذ عام ١٧١٧م عرفت طبيعة المرض المترقية التي تفضي بصاحبها مع الوقت إلى العجز الكامل، سواء في المشي أم في النطق، وبصورة عنيفة، فهو مريض مشلول، ولكن يده تقاوم ولا تستسلم وكأنها الدولاب المسنن - Cog Wheel، وهي لا تنبسط، ولا تنقبض كما يحدث مع فتح الموسى عند المشلولين من النوع التشنجي، فهذا النوع من الشلل الذي أصاب

المهندس جورج الذي يبلغ من العمر ٤٢ سنة من النوع الهيجاني Paralysis Agitans.

كان المشرف على علاج مهندس الكمبيوتر هو الدكتور لانجستون ـ J. William. Langston اختصاصي الأمراض العصبية ورئيس معهد باركنسون في منطقة صني فيل ـ Sunnyvale في كاليفورنيا، فقد طبق على جورج ومريضتين أخريين كوني ٢١ سنة Connie وخوانيتا ٣٠ سنة Juanita العلاج الدرمي المعروف، وهي المادة التي هلل لها الأطباء حين تم تركيبها لـ . دوبا ـ L-Dopa فظهر التحسن فترة، ثم مالبثت الأعراض الجانبية أن أصبحت شيئاً مرعباً بحق، فأما خوانيتا فبدأت تشكو من خلع مفاصل منكرر غير مسيطر عليه، في حين بدأ جورج يشكو من ملاحقة الثعابين والشعلات المتوهجة حيثما ذهب، أما كوني، وهي الأصغر سناً، فبدأت تعاني من مظاهر رعب غير محتملة اقترب بها من حافة الجنون مما جعلها تتوقف عن تعاطي الدواء تماماً، وبدأ التفكير في اللجوء إلى طريق أكثر فعالية: الجراحة!!

ما السر خلف هذا الرجفان الذي لا يقف ولا يكف؟ وأين مكانه في الدماغ؟ وما السبب المباشر له؟

مع تقدم علم التشريح وعلم الأحياء (الفيزيولوجيا) أمكن إماطة اللثام عن أسرار مدهشة في حركاتنا العادية التي نؤديها في كل لحظة بكل دقة وتوازن وهي معجزة بحق(٤)، ولا نعرف هذه الدقة المذهلة في الأداء حتى نرى خسارتها، أو نرى بعض المرضى الذين يحرمون من نعمتها، فالتوازن يعمل حتى في النوم، فإذا اضطرب هذا الجهاز العجيب وبدأ (الدوار) فإن الإنسان قد يستيقظ من هذا الإزعاج المضني، وهو يتقلب في فراشه، على الأرض وهي تدور به، فإذا قام فلم يصدق، وهو في سنة الكرى، هوى على الأرض ليوقظه السقوط من سلطان النوم. فهذه الآليات الرهيبة من التوازن في حركات العضلات تمثل (سيمفونية) من أبدع أنواع ألحان تجليات الخلق، بين الشد والارتخاء، والبسط والقبض. وهناك شبكة من الاتصالات بين قشر المخ في الأعلى ومراكز توازن الحركة في الدماغ المتوسط، بحيث تمضي الحركة بلا زيادة أو نقص، فالدماغ المتوسط كأنه الميزان العادل الذي يدرس قوة الحركة، فيعطي الأوامر المناسبة لكمٍ من العضلات في التفاهم والتنسيق فيما بينها، فتخرج الحركة في رشاقة كاملة، وكل نقص يمشي باتجاه الشلل، والزيادة باتجاه الرقص، وهناك ما لا يقل عن سبعة أمراض من هذا النوع بين الشلل والرقص، ومنشأ اضطراب الحركة هو في بقع صغيرة جداً تم الكشف عنها، ومنها منطقة سوداء اللون Substantia nigra غريبة الأطوار، وسط أدغال الدماغ في حجم رأس الدبوس، ذات وظيفة في غاية الحيوية، عدد الخلايا فيها زهاء المليون، تقوم بإفراز مادة غاية في الأهمية هي الدوبامين ـ Dopamin(٥) تأثير هذه المادة ينحصر في تمرير الأوامر العصبية بين الخلايا العصبية، فهي مثل جهاز التحويل الدائم للأوامر العصبية.

إن مادة الدوبامين المفرزة تنتقل إلى منطقة مجاورة هي اللحاء Putamen وهذه بدورها تقوم بتنظيم التنبيه العصبي بين الخلايا عبر الوصلات العصبية السنابس ـ SYNAPSIS بحيث تصل أوامر الحركة في أحسن صورة ممكنة وكأنها أوتار العود المتوترة بين الشد والانبساط، فيخرج نغم الحركة متناسقاً شجياً كأحلى ما تتلقاه الأذن، ويبدع الأغنية التي يطرب لها الفؤاد، وبذلك نستقيم الحركة بين تقليب ورقة وكتابة جملة، بين استنشاق زهرة وزر السترة، بين رشفة الماء وبلع الطعام وإنشاد الشعر ودمع العين، بين السباحة وقيادة السيارة، بين إبداع الرسم وفن الجراحة وعبقرية القلم والكتابة وأعمال الخفة، فنحن ننهمك يومياً في عشرات الأعمال المعقدة دون أن نعي أن خلفها رأس الدبوس الأسود الذي لا يتوقف عن إنتاج مادة التوازن الحركي. ومرض باركنسون هو تدمير خلايا هذه المنطقة والتوقف عن إفراز هذا المداد الأسود الذي يسطر حركات عضلات الجسم.

الدكتور السويدي هاكان فيدنر Hakan Widner يغرق في تأملاته الخاصة بحثاً عن السر الدفين!!

في جنوب السويد في جامعة لوند ـ Lund وفي قسم الأمراض العصبية عكف الدكتور فيدنر على تأملاته الخاصة لفهم أفضل لطبيعة مرض باركنسون، خصوصاً أن كل (رابع) مريض في القسم عندهم يشكو من هذا المرض العضال، وفي ألمانيا وحدها يعاني من هذا المرض ٤٠٠ ألف مريض أكثر من مرض الزهايمر ـ Alzheimer. كان السؤال الملح على الدكتور (فيدنر) لإخراج المريض من هذه الحلقة الشيطانية بين الشلل والتهيج، الصمل وجمود السحنة واختفاء تعبيرات الوجه: إذا كان إنتاج مادة الدوبامين المنتجة من اللطخة السوداء قد توقف بتخريب خلايا المنطقة، فهناك طريقتان لحل هذه المشكلة؛ إما على طريقة إنتاج الأنسولين البشري، حيث يصنع في الوقت الراهن بمصانع (باكتريا البراز البشري ـ الإيشريشيا الكولونية؟!!) أي استخدام تقنية (جراحة الجينات)، أو بإدخال خلايا جديدة فتية مكان الخلايا المعطوبة، ولكن معلوماتنا عن الخلايا العصبية أنها كمٌ ثابت ولا يمكن التلاعب بها، فنحن نولد ومعنا عدد محدود من الخلايا العصبية التي تكوّن شخصيتنا، وهذا مهم في تكوين الدماغ، إذ لو تكاثرت وتجددت الخلايا العصبية كما هو الحال في الكريات الحمراء التي يتصنع ويتخرب منها في الثانية الواحدة ٢.٥ مليون كرية(٦) لكان على الإنسان تعلم اللغة من جديد كل ستة أشهر!! فالمادة العصبية هي تلك المادة المقدسة التي يجب أن تمس بأعظم احتياط ممكن، ولكن من أين يمكن أن يؤتى بالخلايا المناسبة لمثل هذه المهمة المصيرية؟؟ ثم كيف

يمكن كسر هذه المسلمة الطبية في التعامل مع الخلايا العصبية؟ وأي نوع من الخلايا يمكن استخدامها؟؟

حادثة بسيطة وفكرة جانبية حركت عنده لمحة عبقرية، وكانت من قسم التوليد والنسائية في المستشفى، عندما رأى بقايا الأجنة المفتتة التي تلقى في النفايات، قال في نفسه: إن بقايا هذا الجنين تحمل ولا شك خلايا عصبية ومن المنطقة السوداء المطلوبة، وبالكمية الكافية بعد أسابيع عدة من التشكل الجنيني، وفي الوقت المناسب قبل نضج الخلايا العصبية وأخذها (الشكل الثابت لبقية الحياة)، وهي تحمل الطاقة الفتية للنمو والعلوق في الدماغ محل الخلايا المنهكة، وكانت الفكرة ثورية بحق، ولكن يبقى التسويغ الأخلاقي لمثل هذه القضية الشائكة.

رأى الدكتور فيدنر أن الخلايا العصبية الثمينة أليق بها أن تجلس في دماغ مريض شاب مربوط إلى كرسيه بقية الحياة من مصيرها في القمامة أو الحرق، وعندما باح بهواجسه إلى عالمة الأحياء المساعدة باتريك بروندين ـ Patrik Brundin انطلق الاثنان للعمل لحذقه وإتقانه وتطويع آلياته تحت الشعار السويدي في برودة المناخ وظلامه في الشمال الإسكندنافي (بمنتهى الحذر وبالغ البطء ولكن إلى الأمام بيقين راسخ).

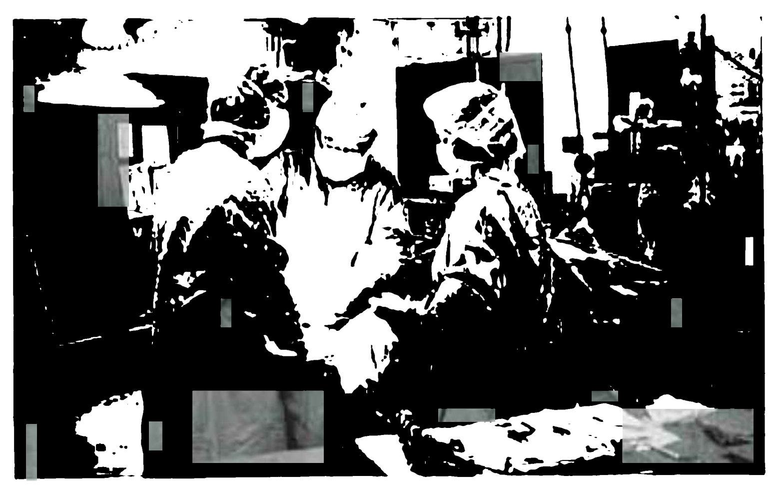
عكفت باتريك بروندين لسنوات طويلة على أجنة الجرذان، فالجنين يصل إلى طول ١٢ملم خلال أسبوعين، خلافاً للجنين الإنساني الذي يحتاج إلى ثمانية أسابيع حتى يصل إلى حجم ظفر الإصبع(٧) حتى اعتادت عينها تحت المجهر على التقاط الخلايا السود الثمينة من الأجنة المهرسة والمفتتة، وبقي الانتقال إلى الأجنة الإنسانية، وانتظار المريض المناسب وابتدأت الرحلة عام ١٩٨٧م، ففي هذا العام وبلا ضجة إعلامية تم اقتحام جمجمتي سيدتين تعانيان من مرض باركنسون استفحل واشتد منذ أربعة عشر عاماً، وكانت النتائج متواضعة، ولكنها مشجعة حيث تم تحصيل تحسن طفيف، وقفز فريق العمل الطبي (من خلال استخدام آلية النقد الذاتي ومراجعة أخطاء العمل) إلى الحذف والإضافة والمزيد من التطوير، وكان التحول النوعي هو في القفزة الثانية عام ١٩٨٩م بعد معرفة التعامل بشكل أفضل مع خلايا اللطخة السوداء.

الدكتور فيدنر يرافق مرضاه بنفسه من كالفورنيا إلى السويد

عندما تناهى إلى سمع الدكتور لانجستون أنباء بعض التجارب المشجعة في السويد، عن نوع جديد من الجراحة العصبية، سارع إلى الاتصال بزميله الدكتور فيدنر ليشرح له الوضع الميئوس منه عند ثلاثة من مرضاه الذين أصبحوا أسرى مرضهم، واستعدادهم لأي تجربة، خاصة وأن تجربة جراحية سابقة لتخريب منطقة اللحاء Putamen كانت قد جربت بحقن مورفين صناعي من نوع Mptp زادت الأعراض سوءاً، فهرع الدكتور فيدنر ليرافق مرضاه الجدد (كوني وخوانيتا وجورج) الذين سيدشنون عصراً ثورياً جديداً في تجارب من نوع جديد هي بدايات زرع الدماغ عملياً!!

تحت جهاز الجراحة العصبية الفائق الدقة الفراغية Steriotaxic Neurosurgery

كان الدكتور هشام بكداش الذي عملت معه طبيباً مقيماً عام ١٩٧٤م محقاً في تنبئه في كتابه الجراحة العصبية عندما تعرض لذكر الجراحات التقليدية، حيث لم يكن يُعرف التصوير الطبقي المحوري Ct-Scan ولا الرنين المغناطيسي MRI Magnetic resonance



هل انتهى عصر الجراحات التقليدية؟!

imaging، فضلاً عن الفحص الرائع الجديد الانبعاث البوزيتروني Positron - Emission - Tomcgram حين قال: (وقد يأتي اليوم الذي تصبح فيه معظم الجراحات التقليدية باطلة باستعمال النوع الجديد من الطرق الجراحية المتطورة)(٨). فالمريض (جورج) مهندس الكمبيوتر كان المرشح الأول للعملية الجديدة.

كانت الليلة التي سبقت العملية مشحونة بالتوتر فقد عمدت باتريك إلى عزل الخلايا بشكل فائق وغسلها ثم حفظها ضمن محلول ملحي، وكانت تعرف أن الخطأ في عزل الخلايا سيقود إلى كارثة، فالتيه مع بعض خلايا جلدية، أو الشرود في زرع بضع خلايا عظمية أو غضروفية نشيطة، سيحمل مخاطر امتداد قطعة جلد أو بروز ناتئ عظمي عبر تلافيف الدماغ؛ وكان الجراح ستيج رينكرونا ـ ٥١سنة ـ Stig Rehncrona قد نام بشكل جيد واستعد نشيطا لدخول العصر

العصبي الجديد، وأُدخل المريض جورج وهو لا يستطيع التماسك، وبدنه يهز بشكل عنيف، ولعابه يسيل، ووجهه لا ينضح بأي تعبير خوف أو تفاؤل، وما لبث أن سُمرت جمجمته على الجهاز الفراغي حيث يمكن الدخول إلى الجمجمة بمنتهى الدقة، وعبر شاشة التلفاز، والتحرك في كل الاتجاهات، ما لبث الدكتور كرونا بعدها أن ثقب القحف من الخلف ثم أدخل المسبار بحذر بالغ وبهدوء وهو يراقب الصورة الشعاعية المنتشرة أمام شاشة التلفاز، وكان الدكتور (فيندر) معه في قاعة العملية، وقد أمسك بساعة التوقيت مثلما أمسك قبله (أنريكو فيرمي) ساعته في البدء بتشغيل أول مفاعل نووي في التاريخ تحت الأستاد الرياضي في مدينة شيكاغو عام ١٩٤٢م.

ثبت من التجارب على الحيوانات أن الخلايا العصبية يجب أن تنقل بلطف بالغ، وببطء يستغرق ٩٠ تسعين ثانية قبل زرع الحقنة الثانية، وهكذا قام الدكتور رينكرونا بحقن ثماني جرعات كل منها يحوي ٢.٥ ميكرو ليتر من السائل الملحي الذي يحوي الخلايا الثمينة، وتم حقن نصف منطقة مخية فقط تجنبا لاختلاطات محتملة، وفي مرحلة لاحقة تم حقن النصف المخي الثاني، وكان مجموع المحقون ثمانين ميكروليترا، ويحوي نحو نصف مليون خلية منتجة لمادة الدوبامين.

تم أخذ فيلم وثائقي لمراحل العملية وبعد عدة أشهر إلى مرحلة سنتين، وكانت النتائج مدهشة، فالمريض هاوي الكمبيوتر، بدأ في التحرر من قبضة الشلل المرعبة، بدأ يمد أقدامه بشكل عادي، وفي الاعتماد على نفسه في شرب قدح الماء الذي كان محروما منه بقوته الذاتية، وكأنه نشط من عقال، بدأ في الضحك وانفرجت أسارير وجهه وانطلقت التعابير الإنسانية في الارتسام على محياه. كانت ثورة في الجراحة الجديدة. والذي حدث أن الكثير من الخلايا التي زرعت وجدت لها مكانا وعلقت في الدماغ في مكانها المناسب وبدأت إفراز مادة الدوبامين المفقودة، والذي كشف النقاب عن هذا موت مريض عولج مدة سنة ونصف السنة بهذه الطريقة ثم توفي من جلطة رئوية، وعندما شرحت الجمجمة للتأكد من مصير الخلايا المزروعة وجدوها وقد نضجت وبدأت تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فتنتج مادة الدوبامين الذي يصرخ الجسم في الحاجة إليه.

مشروع نيكتار Nectar

Network of Europian Cns transplantation and restoration وتعني مجموعة العمل الأوربية لزراعة الجملة العصبية المركزية وإعادة ترميمها.

وبتدشين هذه الطريقة ينفتح الباب إلى ثورة جديدة في علم جراحة الأعصاب، فمادام قد أمكن زرع الخلايا العصبية، فهذا يعني كسر المسلمة القديمة في ثبات الخلايا العصبية وإمكان استبدال جديد بها، وإذا كانت زراعة القلب والكبد والكلية تتم دفعة واحدة، فإن هذا غير ممكن في الدماغ كعملية تتم بضربة واحدة، لطبيعة المادة المخية وحساسيتها الفائقة، وبهذه الطريقة تم الالتفاف عليها، فيمكن من ثم معالجة أمراض من خلال اقتحام الجمجمة وزرع الخلايا بالكيفية التي نريدها، وهكذا يمكن نزع خلايا لا نريدها لنزرع مكانها خلايا جديدة فتية نريدها، ومعالجة أمراض كانت في حكم المستحيل كما في مرض باركنسون الذي كان مستعصيا على العلاج منذ نحو ثلاثة قرون، وكذلك الصرع، وداء الزهايمر ـ Alzheimer الرهيب (المصاب به حاليا رونالد ريغان رئيس الولايات المتحدة الأسبق وأبرز معالمه فقد الذاكرة المخيف فإذا خرج من منزله لم يستطع العودة إليه!!) بل وتحسين خلايا الدماغ بالشكل الذي نراه في تجديد الشباب.

هذا الكلام الذي يشبه الخيال العلمي اليوم سيصبح حقيقة مع المستقبل وقد بدأ شق الطريق اليوم من خلال تشكيل فريق العمل الأوربي لزرع الجملة العصبية المركزية وإعادة ترميمها، وهو المعروف اليوم بمشروع (نيكتار).

الهوامش والمراجع

١. وتعني مجموعة العمل الأوربية لزراعة الجملة العصبية المركزية وإعادة ترميمها.

٢. وصف الدكتور فيصل الصباغ في كتابه «الأمراض العصبية» الرجفان الباركنسوني على هذا الشكل: هو رجفان منتظم رتيب وخشن ويعد ٣ ـ ٥ في الثانية، ويكون على أشده في نهاية الأطراف، ويظهر في الراحة، ويخف بالحركة الإرادية لحظة، ثم يعاود شدته الأولى، وتصبح الحركات الإرادية بطيئة وصعبة بسبب الصمل (علامة الدولاب المسنن حيث يقاوم البسط حتى النهاية ولا ينفتح دفعة واحدة مثل فتح الموسى) ويصيب الصمل عضلات الوجه فتظهر السحنة الجامدة عديمة التعبير. ص٣٢٦ ـ ٣٢٧ بتصرف.

٣. يمكن مراجعة القصة بالتفصيل من مجلة الشبيجل الألمانية عدد ٤٠ عام ١٩٩٥م ص ٢١٨.

٤. يراجع في هذا كتاب الفيزيولوجيا لشفيق البابا قسم الجملة العصبية المركزية.

٥. يتم الوصول إلى الدوبامين من تحول حمض أميني آخر هو الفنيل الانين، ومن الغريب أن الحمض الأخير هو نقطة الانطلاق لتشكيل عدد من الأحماض الأمينية والأمراض في الوقت نفسه، فمنه يتم اشتقاق حمض التيروزين الذي يعد مقدمة تشكيل هورمون الغدة الدرقية التيروكسين والدوبامين الذي ذكرناه ثم الأدرينالين المسؤول عن تنظيم الضغط الدموي، وبشكل جانبي بتشكل الميلانين الذي يعطي جلودنا لونها الأبيض أو الأسمر أو الأسود. يراجع في هذا كتاب أمراض الغدد الصم والاستقلاب للدكتور يوسف صايغ منشورات جامعة دمشق.

٦. في الدم ٢٥ تريليون كرية حمراء (مليون مليون) و٢٥ مليار كرية بيضاء، وتريليون صفيحة دموية، ويتجدد في الثانية الواحدة ٢.٥ مليون كرية حمراء و٥ ملايين صفيحة و٢٠ألف كرية بيضاء (الطب محراب الإيمان)، الجزء الثاني، ص٢٠١.

٧. حسب معلومات الدكتورة (نسرين صالح) استشارية أمراض النساء والولادة والسونار (الصدى الصوتي) في المستشفى التخصصي بالقصيم، والمرجع الأمريكي DRUMM فإن حجم الجنين الإنساني يصل في ٥٥ يوما إلى ١٦ ملم و ب: ٥٧يوما ١٧ملم و٧٠يوما إلى ٣٢ ملم ويضرب القلب بحجم ٦ ملم.

٨. الجراحة العصبية. هشام بكداش مطبوعات جامعة دمشق ص٢٠

البتّاني بطليموس العرب

مازن مصطفى العليوي
خميس مشيط - السعودية

هو أبو عبدالله محمد بن جابر بن سنان البتّاني الحرّاني الصابئي، ولد نحو عام ٢٣٥هـ - ٨٥٠م وتوفي عام ٣١٧هـ - ٩٢٩م.

ويسمى الرَّقّي نسبة إلى مدينة الرَّقة التي قضى بها معظم حياته مع الكثير من الأسر الحرّانية، لذلك من المرجح أنه ولد في حرّان، وسمي البتاني نسبة إلى بتّان من قرى حرّان.

أسرة البتاني ووفاته

أما عن أسرته فقد كانت تدرّس قديمًا الديانة الصابئية، ومنها جاءت نسبة الصابئي إليه، مع أنه كان مسلمًا قبل أن يكون عالمًا. أمضى البتاني معظم حياته يرصد الأجرام السماوية بمرصد الرقة أو «مرصد البتّاني» من عام (٢٦٤هـ - ٨٧٧م) حتى عام (٣٠٦ - ٩١٨م)، وقصد بغداد في إحدى مهماته العلمية، لكنه مات في الطريق في أثناء عودته في قصر جيس إلى الغرب من دجلة قليلاً قرب سامراء.

ولا ينتسب البتاني إلى المدرسة البغدادية بقدر ما ينتسب إلى مدرسة صابئة حرّان التي أنجبت الكثير من العلماء أمثال ثابت بن قُرّة الصابئ (ت:٢٨٨ - ٩٠١م).

أما مكانته العلمية العالمية فقد انتشرت أخباره في أوربا الوسطى، وعرف هناك باسم Albategnius، كما اهتم الرياضي ريجيو مونتافوس ١٤٣٦ - ١٤٧٦م بأبحاثه حول حساب المثلثات الكروي، واستفاد دنتورن Dentorn فائدة كبيرة من ملاحظاته عن الكسوف؛ وذلك حتى عام ١٧٤٩م، إذ إن البتّاني قد أوجد حقائق قيّمة شهد بها علماء زمانه ومن تلاهم، ليبقى اسمه علمًا في مضمار العلوم حتى أواخر القرن الماضي، ولم لا؟ وهو الذي وضع عدة نظريات مهمة في ميدان علم الفلك، دفعته للتقدم والانفصال عن التنجيم، مما حفز بعض العلماء إلى أن يطلق عليه اسم «بطليموس العرب». بعد أن درس مؤلفات بطليموس بعمق، وأمعن فيها وتفهمها، ثم ناقضها بعد ذلك في أكثر من موضع، وصحّح ما بها من أغلاط، معللا تصحيحه بقوله في مؤلفه «الزيج الصابئ»: «جريت في تصحيح ذلك وأحكامه على مذهب بطليموس في الكتاب المعروف بالمجسطي، مقتفيًا أثره، متتبعًا ما رسمه، فأمرَ بالمحنة والاعتبار بعده».

رسم تخيلي للفلكي العربي البتاني

ولم ينس البتاني أن يذكر أنه يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده، كما استدرك هو على أبرخس

وغيره من نظرائه، مما يقودنا إلى تواضع البتّاني، الذي اعتذر لسابقه عمّا يقوم به من تصحيحات في حركات الكواكب ومواضعها من منطقة البروج، ويعلق جورج سارتون عليه بأنه قام بملاحظاته الفلكية بدقة عالية ومدهشة.

وبالعودة إلى البتاني نجده قد عرف أن النجوم تغيّر مواقعها بالنسبة إلينا على الأرض عبر زمن طويل، فنراه يقول: «وجعلتُ استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول لوقت انتصاف النهار من اليوم الذي يحسب فيه من مدينة الرقة، وبها كان الرصد والامتحان»، ويقول أيضًا: «وإني أطلت النظر في هذا العلم، وأدمنتُ الفكر فيه، ووقفت على اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم، وما تهيأ لبعض واضعيها من الخلل فيما أصابوه فيها من الأعمال، وما أثبتوها عليه، وما اجتمع أيضًا في حركات النجوم على طول الزمان، لما قيست أرصادها إلى الأرصاد القديمة، وما وجد في حبل البروج والفلك عن فلك معدّل النهار».

البتاني يصحح رأي بطليموس

ويمضي البتاني ليكتشف حركة أوج الشمس وحضيضها، ويحسب مستوى دائرة الفلك، مصححًا رأي بطليموس حول ثبات ميلها، مبينًا أنه يتغير مع الزمن، وأن أوج الشمس والتباعد المركزي لمسارها قد تغيرا منذ عهد أبرخس على الرغم من أن بطليموس أكد ثباتهما، ولم ينس البتاني أن يوضح أنّ حركة أوج الشمس هي حركة الاعتدالين، ومن ذلك أوجد أن طول السنة المدارية هو ٣٦٥ يومًا و ٥ساعات و ٤٦ دقيقة و ٣٤ ثانية، أي بخطأ نقصان مقداره دقيقتان و ٢٢ ثانية، بينما كان خطأ بطليموس بزيادة مقدارها ٦ دقائق و ٢٦ ثانية.

وإذ أقرّ علماء الفلك، ومنهم كوبرنيكوس، باضطراب الاعتدالين الربيعي والخريفي، فإن البتاني لم يقرّه، لينطلق أكثر في مجال الفلك، محسّنًا دراسة حركتي الشمس والقمر، موضحًا تغيّر القطر الظاهري لكل منهما، مثبتًا إمكانية حدوث الكسوف الحلقي للشمس بعكس ما كان يظنه بطليموس، مستخدمًا أجهزة فلكية مهمة، منها جهاز لقياس الارتفاع الزاوي للشمس، هذا الجهاز الذي يتألف من عمود شاقولي طوله موضوع على مستوى أفقي يقاس عليه طول ظل هذا العمود.

ولو تركنا مجال الفلك إلى الرياضيات، لوجدناه قد أوضح استخدام مفهوم الجيب بشكلٍ واضح بدلاً من استخدام الأوتار، كما كان يفعل الإغريق، كما أدخل مفهوم جيب التمام والظل وظل التمام للزوايا،



مسرح البتاني مع سور الرقة الأثري

ووضع هذه التوابع المثلثية، ودرس المثلثات الكروية واكتشف فيها معادلة مثلثية مهمة، هي من جملة الإضافات العربية المهمة على هذا العلم.

مؤلفاته

أما أهم مؤلفات البتّاني العلمية فهي:

- كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك.
- رسالة تحقيق أقدار الاتصالات.
- شرح المقالات الأربع لبطليموس.
- كتاب تعديل الكواكب.
- كتاب الزيج الصابئ أو زيج البتاني.

و«الزيج» هو أهم كتبه العلمية، وقد ترجم إلى اللاتينية أكثر من مرة في القرن الثاني عشر الميلادي، كما أمر ألفونسو العاشر في قشتالة بنقله إلى الإسبانية.

ولعلّ نالينو في ميلانو ١٩٠٧م من أهم من نشروا هذا الكتاب وحققوه، وقبله كان العالم الفرنسي ديلامبير قد نشر عام ١٨٩١م كتاباً خصص منه جزءاً كبيراً لتحليل كتاب «الزيج» للبتاني، الذي ظلت كتبه معتمدة في أوربا قروناً عدة، لذلك من المسلم به فضله على كوبرنيكوس الذي يذكر البتاني بكثرة في مؤلفاته، ولاسيما فيما يتعلق بمواضيع حركة الشمس، تماماً كما أشاد بذكره غاليليو وكيبلر.



الشهادة التي توزع سنوياً للفائزين بجائزة البتاني للقصة القصيرة

وبالعودة إلى «الزيج» نجد أنه أول كتاب يحتوي على معلومات صحيحة ودقيقة، وزّعت على سبعة وخمسين باباً، تشتمل الثلاثة الأولى على المقدمة وطريقة العمليات الحسابية والنظام الستيني وأوتار الدائرة والكرة السماوية ودوائرها، وفي الباب الرابع يدرس مقدار الميل الأعظم ليكون فيه أول من أوجد قيمة زاوية هذا الميل، ليوافقه فيه من جاء بعده.

وبالانتقال إلى بقية الأبواب نجده يبحث في بعضها قياس الزمن برصد ارتفاع الشمس، كما نراه في تسعة أبواب يتناول موضوع النجوم، وفي باب آخر يتحدث عن طول السنة الشمسية وفي غيره حركة الشمس ثم حركات القمر والخسوف والكسوف وبعد الشمس والقمر عن الأرض، والكواكب ومساراتها، ويوازن بين التقاويم المختلفة عند الروم والفرس والقبط، دون أن ينسى منازل القمر وأرصاد النجوم، وفي البابين الأخيرين يصف الآلات الفلكية ويشرح طرق صنعها، مناقشاً في النهاية ما يقع بين علماء الفلك من أخطاء، محدداً إياها بالأمور الشخصية، أو بالخلل الذي يطرأ على الآلة.

ولكتاب الزيج الصابئ تدين أوربا بتصوراتها المسبقة عن المحيط الهندي حتى عهد فاسكودو غاما. وبعد: فالبتاني الذي عاش في الرقة قرب الفرات، منذ أكثر من ألف ومئة عام، والذي أعادت الرقة ذكره، فأقامت له نصباً تذكارياً، وسمّت باسمه ساحة ومسرحاً وحديقة قرب سور الرقة الأثري، وأطلق مركزها الثقافي على مسابقته الدولية السنوية للقصة القصيرة اسم جائزة البتاني، لا غرو في أن يعدّ من أعظم علماء الفلك والرياضيات في التاريخ، بل ومن أعظم أعلام العرب الذين حملوا مشعل الحضارة والعلم، وقدّموه للعالم كي يستضيء به بعد الظلام، ليبلغ هذا الضياء الذي وصل إليه في علم الفضاء. وفي هذا المضمار لا يسعنا إلا أن نتذكر قول العقّاد: «لا حاجة بنا إلى استقصاء طويل في علم الفلك عامةً لإقرار فضل العرب فيه على الأمم الأوربية، فإن الأسماء العربية باقية بلفظها في المجمعات الفلكية الأوربية سواء في أسماء الكواكب والنجوم، أو أسماء المدارات، والمصطلحات، غير ما ترجمه بالمعاني دون الألفاظ».

المراجع

١. الأعلام. خير الدين الزركلي.
٢. شمس العرب تسطع على الغرب. زيغريد هونكه.
٣. العلوم عند العرب. قدري حافظ طوقان.
٤. بحث البتاني فلكي الرقة. د. خالد ماغوط. وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، ١٩٨١م.
٥. بحث الرقة وأثرها في تطوير الفلك في العالم. صلاح الدين الخالدي. وقائع الندوة الدولية لتاريخ الرقة، ١٩٨١م.
٦. أعلام الجغرافيين العرب. د. عبدالرحمن حميدة.
٧. أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب. د. صلاح الدين المنجد.
٨. الرقة درّة الفرات. مجموعة من الباحثين.
٩. أثر العرب في الحضارة الأوربية. عباس محمود العقاد.

الباحثة والمؤرخ الإسلامي القاضي أطهر المباركبوري

نور عالم خليل الأميني

يوبي - الهند

كان القاضي أطهر المباركبوري من الكتاب الإسلاميين المكثرين الذين أغنوا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم ذات القيمة والغناء، النابعة من الدراسات المضنية حقاً. وكان - رحمه الله - مؤرخاً فذاً، بل رائداً في موضوع العلاقة القديمة بين العرب وشبه القارة الهندية؛ فقد كانت حصيلة دراساته الواسعة العميقة الدقيقة المتصلة المستغرقة للسنوات الطويلة؛ مؤلفات دسمة لا يمكن أن يستغني عنها أي دارس وباحث للموضوع المشار إليه، أمثال: «رجال السند والهند» و«العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين» و«الهند في عهد العباسيين».

واعترف بوجاهته العلمية العجم والعرب، ونجاوز صيته الهند إلى العالم الإسلامي، ولا سيما البلاد العربية التي اعتنت مطابعها بإصدار مؤلفاته العربية، واهتمت مكتباتها باقتنائها وتوزيعها، وأشاد علماؤها الأجلاء بمكانته الفريدة في الدراسة التأريخية المتعلقة - بصفة خاصة - بالصلة المتجذرة بين الهند والعرب.

كان - رحمه الله - صنعة نفسه، ومثالاً لتخريج الإنسان نفسه مثقفاً ذا غناء لدينه وعقيدته وأمته، وهو يعيش حياة متقشفة في بيئة بسيطة غير منفتحة على أنوار الحضارة والثقافة الباهرة، لا تعرف مدرسة كبيرة، ولا جامعة فخمة، ولا حركة ثقافية كتلك التي تمتاز بها المدن الإسلامية الكبرى في العالم أمثال: دمشق والقاهرة والحجاز وبغداد وفاس والرباط ودهلي وما إليها، فقد أكمل رحمه الله جميع مراحل دراسته في بلدته - القرية الجامعة - «مباركبور» في بعض كتاتيبها ومدرستها المعروفة بـ «إحياء العلوم» باستثناء عام واحد تلقى فيه الدراسة العليا بـ «الجامعة القاسمية» بمدينة «مراد آباد» بولاية أترابراديش.

يقول القاضي - رحمه الله - في كتابه «من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري» الذي تحدث فيه باللغة الأردية بإيجاز عن أخبار حياته وقصة تعلمه منذ مرحلة الكتاب حتى الدراسات العليا، فالحياة الميدانية التي عاشها متنقلاً بين التدريس والصحافة والكتابة والتأليف والرحلات بين شتى مدن الهند ومدن العالم الإسلامي:

«إن تسهيلاتي المحدودة وظروفي الخاصة، لم تسمح لي بشكل أو بآخر بالتوجه إلى المدارس الكبرى خارج البلدة - بلدة مباركبور - فلم يتح لي أن أعيش خارجها لتلقي العلم إلا عاماً واحداً؛ وذلك أيضاً بعد صعوبة كبيرة. ومع ذلك كانت همني البعيدة ورغبتي الجامحة في تحصيل العلم تجعلاني أحلم دائماً بتلقي التعليم العالي في الجامع الأزهر الشريف، بل ظل هذا الحلم يراودني لمرحلة لاحقة. ولكني، بفضل طموحي ورغبتي، حولت إخفاقي نجاحاً، حيث اتخذت من بيتي ومدرستي الجامع الأزهر وجامع الزيتونة وجامع قرطبة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وتلقيت الشيء الكثير وأنا قابع في وطني مباركبور وذلك بفضل الله تعالى، وبعطف أساتذتي، وباجتهادي، وعلو همتي. وكنت أعيش آنذاك حنيناً عجيباً إلى الدراسة، وهياماً غريباً بالعلم، وكنت أعايش كل وقت مشاهد المدارس الإسلامية القديمة في بغداد وبخارى والأندلس وغرناطة والعواصم العلمية الإسلامية الأخرى وأساتذتها وتلاميذها وكنت أستفيد من معطياتها وبركاتها»(١)

والأمر الذي أشار إليه القاضي، رحمه الله، يدل على أن الإنسان لا تعينه البيئة والتسهيلات بالضرورة على تخريج نفسه مؤهلاً قادراً على أداء دور يذكر في مجالات العلم والثقافة والفكر والدعوة، بمثلما يعينه على ذلك اجتهاده المطلوب ورغبته الصادقة وهمته الموفقة الموجهة من قبل الله العلي القدير.

يقول القاضي رحمه الله:

«إذا كان الطالب يتمتع بالرغبة في التقدم والطموح إلى المضي إلى الأمام مع الاجتهاد الكافي والسعي المطلوب، فبوسعه أن يكون كبيراً وهو في مكان صغير. وإذا كان مجرداً من هذه المعاني فإنه سيظل صغيراً وهو في مكان كبير».

«إني لم أحظ بالاستفادة من مؤسسة علمية تحقيقية وتربوية كبيرة، ولم أسعد بتوجيه من شخصية كبيرة، كما أن أوضاعي الشخصية والأهلية لم تكن مواتية؛ ولكني - رغم ذلك كله - مرتاح ومسرور بأني، بفضل رغبتي الشخصية واجتهادي وصنعي لنفسي بنفسي،

قد أحرزت ما يحرزه الناس عن طريق مؤسسات كبيرة، وتحت إشراف شخصيات كبيرة. وربما يجوز ـ وفعلاً يحدث ذلك ـ أنني لو تمتعت بظل شخصية كبيرة في مؤسسة كبيرة لكانت شجرتي العلمية قد حرمت قوة النمو والتنفس في الفضاء الأرحب والجو الطليق»(٢).

أيام دراسته

قضى القاضي رحمه الله الفترة بين صفر ١٣٥٠هـ ـ شعبان ١٣٥٩هـ أي عشر سنوات من عمره في اجتياز مراحل التعليم من الابتدائية إلى الدراسات العليا، أمضاها كلها ـ كما أسلفنا ـ في مدرسة إحياء العلوم بوطنه مباركبور اللهم إلا عاماً واحداً قضاه في الجامعة القاسمية بـ مراد آباد التي قرأ فيها دواوين الأحاديث على أساتذتها، أمثال الشيخ السيد فخر الدين أحمد المتوفى سنة ١٣٩٢هـ، والشيخ السيد محمد ميان الديوبندي الدهلوي المتوفى سنة ١٣٩٥هـ والشيخ محمد إسماعيل السنبهلي المتوفى سنة ١٣٩٥هـ.

أما في مدرسة إحياء العلوم بـ مباركبور فقد قرأ كتباً شتى في العلوم والفنون الإسلامية على مولانا المفتي محمد ياسين المباركبوري المتوفى سنة ١٤٠٤هـ، ومولانا شكرالله المباركبوري المتوفى سنة ١٣٦١هـ ومولانا بشير أحمد المباركبوري المتوفى سنة ١٤٠٤هـ، ومولانا محمد عمر المظاهري المباركبوري.. وعلى خاله مولانا محمد يحيى الرسول بوري المتوفى سنة ١٣٨٧هـ، وعلى المنشي عبدالوحيد اللاهربوري والمنشي أخلاق أحمد المتوفى سنة ١٤٠٤هـ.

وقد سمى القاضي ـ رحمه الله ـ في كتابه الأردي «من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري» العلماء والأفاضل الموجودين بمباركبور أيام تحصيله وفيما بعدها الذين لقيهم وكسب الطموح العلمي والفكري بما رأى فيهم أو سمع عنهم(٣).

كما عدد أمهات الكتب العربية في شتى العلوم التي اطلع عليها، وقرأها في إمعان واكتسب منها رصيداً علمياً ثراً استفاد منه طوال حياته الثقافية والكتابية من بينها:

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ودلائل النبوة للأصفهاني، وسبحة المرجان في آثار الهندوستان لغلام علي آزاد البلغرامي، وآكام المرجان في أحكام الجان لأبي بكر شبلي البغدادي، وحياة الحيوان للدميري، والصواعق المحرقة لابن حجر المكي. والعمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، والمحاسن والأضداد للجاحظ، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والميزان الكبرى للشعراني، وفقه اللغة للثعالبي، وأمثال العرب للضبي، ونقد الشعر لابن قدامة، وكتاب الصناعتين للعسكري، والسيرة النبوية لابن هشام، ووفاء الوفاء للسمهودي، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، وديوان الفرزدق، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، وتوالي التأنيس(٤).

وكانت له رحمه الله عناية بالغة منذ مراحله الأولى في التحصيل باقتناء المطبوعات والمخطوطات من الكتب، فاشترى أيام تحصيله بما كان يقتطعه من النقود من مصاريفه اليومية على ما كان يقاسيه من سوء الحالة الاقتصادية ٣٤ كتاباً من أهم المصادر العربية في مختلف العلوم. وقد عددها في كتاب «من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري» وأشار إلى ثمن كل منها لدى شرائه آنذاك. كما استنسخ نحو عشرة كتب في شتى العلوم مما كان نادراً لا يوجد مطبوعاً في السوق. مما يدل على رغبته المثالية القوية في التزود من العلوم والثقافة.

هوايته الكتابية

أما هوايته الكتابية فقد أشار في شأنها إلى أن الميل إليها إنما نشأ لديه عن طريق جده من الأم مولانا أحمد حسين المتوفى سنة ١٣٥٩هـ الذي كانت لديه ذخيرة قيمة من المصادر والمراجع الإسلامية باللغات العربية والفارسية والأردية ما بين مطبوع ومخطوط، والذي كان كثير القراءة لها، ومكباً على الأخذ والاقتباس والكتابة والتأليف.

وظل القاضي ـ رحمه الله ـ ينمي ذوقه الإنشائي التأليفي الذي استقاه من جده المذكور، وقوي عندما بدأ في دراسة العربية، كما نشأ لديه ميل في هذه المرحلة إلى قرض الشعر، ونشرت صحيفة «الجمعية» الأردية أول مقال له وجيزاً، ثم نشرت له مجلة «مؤمن» الأردية مقالاً له عام ١٣٥٣هـ بعنوان «المساواة»، ثم نشرت له مقالة أخرى بحجم صفحتين، وتلتها جريدة «العدل» الأسبوعية الصادرة بـ «كوجرانواله» بولاية البنجاب الباكستانية حالياً فنشرت له مقالاً. وبعدئذ تقوى الطموح لديه إلى مواصلة الكتابة.

وقد قال رحمه الله في كتابه المذكور:

أما بالنسبة إلى الكتابة فإن ذوقه هو الذي كان حادياً له، وأن الثقة بالذات هي التي شجعته، وأنه لم يتعلم بشكل مستقل من أحد فن جمع المواد وتوفير المعلومات وتصنيفها الفني وأسلوب الكتابة، ولذلك كان قد يضطر لإعادة كتابة مقال واحد عدة مرات، ثم يمزقه ويقذفه في سلة المهملات، فكان لا يأتي موافقاً لذوقه إلا بعد عناء طويل(٥).

سنة ١٣٥٧هـ زار مدرسته «إحياء العلوم» التي كان يتعلم فيها ـ الشيخ الشريف مولانا محمد ميان الديوبندي الدهلوي ـ الكاتب الإسلامي الكبير المتوفى سنة ١٣٩٥هـ، وكان آنذاك أستاذاً للحديث الشريف بالجامعة القاسمية بـ مراد آباد؛ وذلك لرئاسة الاحتفال السنوي لجمعية الطلاب بالمدرسة، فتعرف الشيخ ـ رحمه الله ـ الطالب القاضي أطهر المباركبوري كمزاول للشعر والكتابة، فدعاه أن يكتب لمجلته «قائد» التي كان يصدرها عن مراد آباد، وهنا وجد فرصة لصقل قدراته الكتابية، حيث ظل يكتب في المجلة مدة، واستطاع إلى جانب ذلك أن يؤلف ـ أيام تعلمه ـ كتابين بالعربية وثلاثة كتب بالأردية(٦).

أعماله بعد الانتهاء من الدراسة الرسمية

بعدما انتهى من الاستكمال الرسمي للمراحل الدراسية عمل في الفترة ما بين شوال ١٣٥٩هـ ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤م مدرساً في مدرسة إحياء العلوم بـ مباركبور، ونقل خلالها رسالتين للسيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٥هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) إلى الأردية بطلب من شركة الشباب ببومباي لأبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي.

وفي الفترة ما بين ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٤٤م ـ ١٢ يناير / كانون الثاني

عام ١٩٤٥م عمل عضواً في مركز منظمة أهل السنة بـ «أمريتسار» كتب واستكتب وأصدر خلال هذه الفترة بحوثاً في الرد على الشيعة والقاديانية. وعمل في الفترة ما بين ١٣ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٤٥م و١/حزيران/ يونيو عام ١٩٤٦م في شركة زمزم المحدودة بـ «لاهور» التي كانت تصدر جريدة نصف أسبوعية ألف خلالها منتخب التفاسير في (٩٥٠) صفحة.

وخلال عمله بلاهور قام أبوه برحلة الحج والزيارة، فعمل مدرساً مؤقتاً في مدرسة إحياء العلوم بمباركبور في الفترة ما بين شوال سنة ١٣٦٦هـ وصفر سنة ١٣٦٧هـ الموافق ١/تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٤٦م وكانون الثاني/ يناير عام ١٩٤٧م. وفي ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٤٧م تحولت جريدة «زمزم» الأسبوعية يومية فاتصل بها، وتمرن على العمل الصحفي تحت تربية الصحفي الأردي الكبير مولانا محمد عثمان فارقليط المتوفى سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م. ولدى الاضطرابات التي حدثت عند تقسيم الهند بين الهند وباكستان رجع كلاهما إلى وطنيهما في الهند عازمين على العودة إلى لاهور فور استقرار الأمن، ولكن الظروف لم تسمح لهما بالعودة إليها.

وفي أوائل عام ١٩٤٨م أصدر في مدينة «بهرائج» بولاية «أترابراديش» بالهند جريدة أسبوعية باسم «أنصار» وكان الشيخ أبو الفضل عبدالحفيظ البلياوي مؤلف قاموس «مصباح اللغات» مديراً فيها، ولكنها احتجبت بعد سبعة أو ثمانية أشهر فقط من أجل سخط الحكومة عليها، وعمل مدرساً في الفترة الممتدة ما بين شوال سنة ١٣٦٧هـ وشعبان سنة ١٣٦٨هـ في جامعة تعليم الدين بمدينة دابهيل.

وفي يوم الجمعة ٢٨/من ذي الحجة سنة ١٣٦٨هـ الموافق تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٩م ألقى عصا التسيار بمدينة بومباي التي كانت المحطة الأخيرة في حياته الثقافية. واتصل في بومباي في أول الأمر بمكتب جمعية العلماء لولاية بومباي، وعمل فيه مفتياً وكاتباً في الموضوعات الدينية، ولما أنشئت «الجمهورية» اليومية يوم ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٠م عين نائب رئيس التحرير فيها. ولكن بعض الناس اصطنعوا أوضاعاً مناوئة ضده، رحمه الله، فانقطع عنها. واتصل في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٥١م بـ «انقلاب» اليومية، وواصل فيها الكتابة يومياً حول عنوان «جواهر القرآن»، و«أحوال ومعارف» وكان يتعرض في هاتين الزاويتين للموضوعات الثقافية والدينية والسياسية والتاريخية والاجتماعية، حتى أوقف هذه السلسلة بدوره في آذار/ مارس عام ١٩٩١م بعدما استمر فيها دونما انقطاع أكثر من أربعين سنة.

لم يجعل الحقوق محفوظة فيما يتعلق بمؤلفاته حتى يدع الطريق مفتوحة أمام الاستفادة العامة، وانتشار العلم والمعرفة، وبقاء كتبه حية متداولة

وعام ١٩٥٢م أصدرت جمعية «خدام النبي» بـ «بومباي» «البلاغ الشهرية» و«البلاغ الأسبوعية» فعين - رحمه الله - عضواً في تحرير كل منهما. واحتجبت البلاغ الأسبوعية بعد سنة أشهر، أما البلاغ الشهرية فظلت تصدر تحت إدارته أكثر من خمسة وعشرين عاماً. وخلال هذه الفترة قام بتدريس المواد الدينية مدة عشرة أعوام اعتباراً من ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٠م؛ وذلك في المدرسة الثانوية العالية التابعة لجمعية خدام النبي، كما عمل مدرساً لبعض الحصص في دار العلوم الإمدادية بمدينة بومباي.

وعام ١٩٥١م وضع حجر الأساس لمدرسة «مفتاح العلوم» بمدينة «بهيوندي» التي لا تزال سائرة وشاهدة للتقدم(٧).

مكث - رحمه الله - في هذه المدينة الهندية التجارية الكبرى بومباي ثلاثين عاماً، ولكن هذه المدينة ذات الحضارة الباذخة، والثروة الفائضة التي تبهر الناس حتى العلماء والمثقفين لم تقدر أن تدله القاضي - رحمه الله - عن انقطاعه إلى المشاغل العلمية، وتوفره على الدراسة والكتابة والتأليف، وإنجازه للأعمال العلمية الجليلة التي قد لا يقوم بها الناس على رواتب مغرية، وفي مؤسسات ومجامع علمية فخمة تنشأ لأجل إحراز الثروة باسم خدمة العلم والثقافة. وقد عرض عليه خلال إقامته ببومباي بعض المعجبين به من رجال الأعمال والمال هدايا عريضة وأموالاً طائلة، ولكنه رفضها مع جزيل شكرهم، وآثر الحياة البسيطة على العيش الباذخ، وتمسك بالقناعة مقابل التمتع بالملذات التي تحول دون التمتع بلذة الصبر والمثابرة في سبيل البحث والدراسة والتأليف وخدمة العلم بصدق الأخلاص.

مؤلفاته بالأردية

- عرب وهند عهد رسالت مين
- خلافت راشده أور هندوستان.
- خلافت أمويه أور هندوستان.
- خلافت عباسيه أور هندوستان.
- هندوستان مين عربون كي حكومتين.
- إسلامي هند كي عظمت رفته.
- تاثر ومعارف.
- ديار يورب مين علم وعلماء.
- آثار وأخبار.

وهذه المؤلفات كلها كان قد أصدرها أولاً مجمع «ندوة المصنفين» بدهلي تحت إشراف مؤسسه ومديره الشيخ عتيق الرحمن العثماني الديوبندي المتوفى سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، كما أصدرت طبعات منها مكتبات ومؤسسات علمية أخرى في الهند وباكستان. أما كتاب «عرب وهند عهد رسالت مين» فقد نقله الدكتور عبدالعزيز عبدالجليل إلى العربية وقامت بطبعه الهيئة المصرية لكتاب مصر.

كما قام أيضاً بنقل كتابه «هندوستان مين عربون كي حكومتين» «حكومات العرب في الهند» إلى العربية ونشره في حلقات في مجلة «الدراسات الإسلامية» الصادرة بجامعة إسلام آباد بباكستان، ثم صدر مطبوعاً في كتاب في الرياض بالمملكة العربية السعودية.

أما كتبه الأربعة التالية:

- مختصر سوانح أئمه أربعه.
- تدوين سير ومغازي.
- خير القرون كي درس كاهين.

- خواتين إسلام كي ديني وعلمي خدمات.
فقد أصدرتها أكاديمية شيخ الهند التابعة للجامعة الإسلامية دار العلوم، ديوبند، بالهند. والجدير بالذكر أن القاضي - رحمه الله - كان مشرفاً فخرياً على الأكاديمية.

أما مؤلفاته:
- معارف القرآن.
- علي والحسين.
- طبقات الحجاج.
- تذكرة علماء مباركبور.
- تعليمي سركرميان عهد سلف مين.
- افادات حسن بصري.
- إسلامي نظام زندكي.
- حج كي بعد.
- مسلمان.
- إسلامي شادي.
- قاعدة بغدادي سي صحيح بخاري تك.
فقد أصدرتها شتى المكتبات في شتى الأوقات.

مؤلفاته بالعربية

- «رجال السند والهند». صدرت الطبعة الأولى منه عن المطبعة الحجازية ببومباي وصدرت طبعته الثانية المزيدة المنقحة من دار الأنصار بالقاهرة.
- «العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين» صدرت طبعته الأولى ببومباي، وصدرت الطبعة الثانية عن دار الأنصار بالقاهرة.
- «الهند في عهد العباسيين»، أصدرته دار الأنصار بالقاهرة.

التحقيق والتعليق باللغة العربية

- «جواهر الأصول في علم حديث الرسول لأبي الفيض محمد بن محمد بن علي الحنفي الفارسي»، صدرت الطبعة الأولى منه عن شركة شرف الدين الكتبي وأولاده ببومباي، والطبعة الثانية عن دار السلفية ببومباي، وقام بتوزيعها المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
- «تأريخ أسماء الثقات لابن شاهين البغدادي»، أصدرته شركة شرف الدين الكتبي وأولاده ببومباي.
- «ديوان أحمد بالعربية» لجده من الأم مولانا أحمد حسين، الذي قام القاضي - رحمه الله - بتدوينه وتحقيقه وطبعه وتوزيعه.

هذا بالإضافة إلى مئات من البحوث والمقالات التي نشرتها كل من مجلة «معارف» بأعظم جراه، ومجلة «برهان» بدهلي، وجريدة «صدق» بلكهنؤ، ومجلة «دار العلوم» الصادرة بالجامعة الإسلامية دار العلوم، ديوبند بالهند، و«انقلاب» ببومباي، وغيرها من المجلات والجرائد(٨).

رحلاته الثقافية والدينية

تشرف بالحج والزيارة خمس مرات: فقد كانت حجته الأولى عام ١٣٧٥هـ، والثانية ١٣٨٥هـ، والثالثة ١٣٩٣هـ، والرابعة ١٣٩٧هـ، والخامسة ١٤٠٢هـ.

وبعد الانتهاء من أداء مناسك الحجة الرابعة زار عدداً من المدن والبلاد العربية والإسلامية، ولقي فيها العلماء والأدباء والمثقفين، من بينها جدة، والطائف، والخبر، والدمام، والرياض، والدرعية، والقاهرة، وحلوان، والإسكندرية، وغينيا، وأكرا، والأردن، وعمان، وكراتشي، ولاهور. وزار كذلك مدينتي الحرمين الشريفين اللتين تكررت زيارته لهما. وبالإضافة إلى معظم مدن الهند وباكستان(٩).

إكرامه بالأوسمة والجوائز

في آذار /مارس عام ١٩٨٤م حضر المهرجان الأدبي السندي بدعوة من مسؤوليه، ثم أكرم في احتفال فخم ترأسه الجنرال ضياء الحق في ٣ محرم سنة ١٤٠٩هـ - ١٧ آب/أغسطس عام ١٩٨٨م بالرداء السندي التقليدي، ووسام تكريم من قبل تنظيم «فكر ونظر» بالسند، وزار إسلام آباد بدعوة رسمية في سنة ١٤٠٠هـ لحضور المؤتمر الثالث للقرآن الكريم ومؤتمر السيرة النبوية، وبهذه المناسبة أكرمه الجنرال ضياء الحق بمصلى كشميري ثمين، وبلمبة من النوع الممتاز، وبالمصحف الشريف.

في آب/ أغسطس ١٩٨٦م دعته منظمة «فكر ونظر» بالسند كضيف شرف بمناسبة تدشين كتبه التي قامت بطبعها، حيث عُقد الاحتفال بذلك في فندق التاج محل بكراتشي تحت رئاسة كبير وزراء ولاية، وتحدث فيه بعض الشخصيات عن القاضي - رحمه الله - ومكانته العلمية، وقيمة مؤلفاته وكتاباته، ومعالجته للمواضيع التأريخية غير المطروقة.

وقد أكرمته حكومة الهند يوم ١٥ آب/ أغسطس عام ١٩٨٤م حيث أهدى إليه رئيس الجمهورية الهندية - لقاء خدمته للغة العربية وإنجازه الأعمال العلمية - شهادة تنويه، ورداء كشميرياً، ومنحة دراسية قدرها خمسة آلاف روبية سنوياً، وقد رفع مقدارها عام ١٩٨٨م إلى عشرة آلاف روبية سنوياً. وظل يتلقى المنحة لحين وفاته(١٠).

صلته بالمؤسسات الثقافية والتعليمية

تقلد القاضي في حياته عدداً من المناصب والمسؤوليات؛ فقد عمل مسؤولاً عن جمعية بناءات الأدب بلاهور، ومستشاراً ثقافياً لإدارة إحياء التراث العربي بدولة الكويت، ورئيساً لجمعية علماء مهاراشترا، ورئيساً لهيئة التعليم الديني بمهاراشترا، وعضواً في جمعية خدام النبي ببومباي، وعضواً في لجنة الهلال بجامع بومباي.

وظل حتى وفاته عضواً في المجلس التأسيسي لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، ومشرفاً على أكاديمية شيخ الهند التابعة للجامعة الإسلامية دار العلوم، ديوبند الهند، وعضواً باحثاً بصفة فخرية في مجمع دار المصنفين بأعظم جراه، ورئيس تحرير فخرياً لمجلة «برهان» بدهلي، وعضواً في مجلس الشورى بدار العلوم تاج المساجد بمدينة «بهوبال» بولاية آندهرابراديش»، وعضواً في المجلس الاستشاري لجامعة ندوة العلماء بلكهنؤ، وعضواً في مجلس الشورى بالجامعة الأشرفية بـ «نيابهوجبور» بولاية بيهار(١١).

كان يكره التصنع في كل شيء؛ في الملبس والمأكل والمظهر، حتى في الكتابة والتأليف، لا يسرف في استخدام الكلمات، ولا يطيل العبارة

ولادته ونسبه وأسرته

ولد رحمه الله في الساعة الخامسة صباحاً من يوم ٤/ رجب سنة ١٣٣٤هـ الموافق ٧ أيار/مايو عام ١٩١٦م ببلدة مباركبور «بمديرية أعظم جراه بولاية أترابرديش وسماه جده من الأم مولانا أحمد حسين الرسول بوري المتوفى سنة ١٣٥٩هـ «عبدالحفيظ» ولكنه اشتهر في دنيا العلم بالقاضي أطهر المباركبوري.

أما نسبه فهو عبدالحفيظ المعروف بالقاضي أطهر المباركبوري بن الشيخ الحاج محمد حسن بن الشيخ الحاج لعل محمد بن الشيخ محمد رجب بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ إمام بخش بن الشيخ علي.

توفي والده الشيخ الحاج محمد حسن في ١١/ربيع الأول سنة ١٣٩٨هـ، أما والدته السيدة حميدة بنت مولانا أحمد حسين بن الشيخ عبدالرحيم بن الشيخ جمال الدين... فقد استأثرت بها رحمة الله تعالى يوم ٢٢/ ذي القعدة سنة ١٣٥٢هـ(١٢).

وخلف القاضي رحمه الله وراءه بالإضافة إلى زوجته - حفظها الله تعالى - أربعة بنين وبنتين كلهم متزوجون ولهم أولاد.

صورة عن شخصيته

إن معرفتي به - رحمه الله تعالى - ترجع إلى نحو ربع قرن، وكان لقائي الأول معه عام ١٩٧٢م، في إحدى رحلاته إلى مدينة لكهنؤ، ثم تكررت لقاءاتي معه بمدينة ديوبند حيث كان يختلف إلى المنتجع العلمي ومركز الإشعاع الإسلامي الأكبر الأعرق في شبه القارة الهندية المعروف ب «دار العلوم - ديوبند» كثيراً، بدعوة رسمية منه أو من دون دعوة، لأنه كان من المنتمين إلى المدرسة الديوبندية في الفكر والدعوة والمنهج. ومع أنه كان متخرجاً - رسمياً - في جامعة (١٣) تابعة لجامعة ديوبند في العقيدة والمنهج، لكنه كان يعدُّ نفسه متخرجاً في جامعة ديوبند رأساً، وكانت الجامعة بدورها تتعامل معه كأحد أبنائها الخريجين منها مباشرة.

وكانت أذني قد عشقته قبل عيني، بما كنت قد سمعته عنه وعن غزارة علمه، وسعة اطلاعه، وعمق دراسته للتأريخ الإسلامي، ولا سيما الذي يتعلق بالعلاقة العريقة بين العرب والهند، وغيره من الموضوعات ذات الأبعاد التأريخية غير المطروقة من قبل بتلك الموضوعية التي تناولها رحمه الله.

فلما سعدت بلقياه أيقنت أن أذني لم تسمع - والله - أحسن مما قد رأى بصري.

كل من رآه من العلماء أو المتعلمين إلا وجده قارئاً في كتاب أو مكباً على أوراق يكتب فيها.

وكان يكره التصنع في كل شيء، في الملبس والمأكل والمظهر، في مناحي الحياة كلها، حتى في الكتابة والتأليف، فكانت كتاباته سلسلة جزلة، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني، مشرقة الديباجة، ذات تعبير مباشر، لا يسرف في استخدام الكلمات، ولا يطيل العبارة.

وظلت قناعته خصيصة مميزة من خصائصه، ولذلك لم تعد لديه مع مرور الأيام قضية في الحياة إلا قضية احدة هي الدراسة والبحث ومواصلة الرحلة في بطون الكتب والصدور عنها إلى نتيجة علمية وحصيلة فكرية تنفع الناس، فتمكث في الأرض.

فقد كان عاشقاً للعلم صادقاً، يستعذب العناء في سبيله، ويستطيب الصبر والمثابرة في الدراسة والتأليف والكتابة في غنى عن الشهرة الكاذبة والنباهة المؤقتة؛ ويرجع إلى عشقه للعلم أنه لم يهتم بالكم بمثلما اهتم بالكيف، ولذلك جاء كل مؤلف من مؤلفاته، بل كل مقالة من مقالاته عصارة دراسة واعية، بل إنه لم يجعل الحقوق محفوظة فيما يتعلق بمؤلفاته حتى يدع الطريق مفتوحة أمام الاستفادة العامة، وانتشار العلم والمعرفة، وبقاء كتبه حية متداولة؛ لأن المؤلفات المحفوظة الحقوق تموت في الأغلب بموت مؤلفيها أو تتعرض لنزاع مستطير الشر فيما بين ورثته. وقد أثبتت التجارب أن عملية «حفظ الحقوق» ضرها أكثر من نفعها.

فكانت البساطة والتواضع والعفوية والقناعة واللقاء الباش والمعاشرة المؤنسة،ولين الجانب، والانقطاع التام للعلم، والتفرغ للدراسة والكتابة، والرغبة عن زينات الدنيا في مباهج القراءة وبحث القضايا العلمية، وكراهية الشهرة والجري وراء الماديات؛ كانت عناصر رئيسة لشخصية الشيخ القاضي أطهر المباركبوري.

كان ربعة من الرجال ضارباً إلى القصر، كثّ اللحية، واسع الجبين، معتدل الجسم لا نحيلاً ولا مفتولاً، أسمر اللون، قوي الذاكرة، ذكي الفؤاد، كثير الذكر لمن عرفهم مهما بعد لقاؤهم، قد ضعف بصره بسبب الإكثار من القراءة في وقت مبكر، على عينيه نظارة طبية ذات قوة كبيرة، أبياً، كبير الثقة بالذات متفائلاً تفاؤلاً أبعد بالحياة وبالناس، مقدراً لأوقاته، منصرفاً إلى المشاغل العلمية، متفادياً من الهموم الدنيوية لا يترفع ولا يفتخر، ولا يمدح نفسه، ولا يحقر غيره، هادئاً في التحادث، محباً لطلبة العلم، كارهاً للمتعالين مهما كانوا، وأينما كانوا.

وفاته

توفي البحاثة والمؤرخ والكاتب والصحفي الإسلامي الهندي المعروف القاضي أطهر المباركبوري ليلة الإثنين ١٤١٧/٢/٢٨هـ الموافق ١٩٩٦/٧/١٥م في وطنه مباركبور بمديرية أعظم جراه بولاية أترابراديش بالهند؛ بعدما عاش حياة حافلة بالإنتاج الثقافي الغزير امتدت على ثمانين عاماً، فقد كان من مواليد ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م.

رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فردوسه، وأثابه عما صنعه في سبيل خدمة الدين والعلم، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان، وأجزل مثوبتهم فيه، وأفاض علينا كأساً من سيرته العلمية والخلقية، ولا حرمنا أجره، ولا فتننا بعده، وأعاض الأمة بديلاً عنه.

المراجع والهوامش

١. من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري (باللغة الأردية) ١٨ - ١٩.
٢. المرجع نفسه، ص١٩.
٣. المرجع نفسه، ص١٣ - ١٦.
٤. المرجع نفسه، ص٢٣ - ٢٤.
٥. المرجع نفسه، ص٢٥ - ٣٦.
٦. المرجع نفسه، ص٣٦.
٧. المرجع نفسه، ص٤٩ - ٥١.
٨. المرجع نفسه، ص٥٢ - ٥٣.
٩. المرجع نفسه، ص٥٣ - ٥٥.
١٠. المرجع نفسه، ص٥٥ - ٥٦.
١١. المرجع نفسه، ص٥٦.
١٢. المرجع نفسه، ص٩.
١٣. وهي الجامعة القاسمية بمدينة مراد آباد بولاية أترابراديش، التي كان قد أسسها الإمام محمد قاسم النانوتوي (المتوفى سنة ١٢٩٧هـ الموافق عام ١٨٨٠م) وذلك يوم ١٩/ من صفر سنة ١٢٩٦هـ. وكان اسم الجامعة لدى تأسيسها «مدرسة الغرباء قاسم العلوم» «نداي شاهي» العدد الخاص بتأريخ الجامعة القاسمية الصادر بجمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ ص١٤٤.



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٨١)

ذو القعدة ١٤٢٠هـ ـ فبراير/مارس ٢٠٠٠م

الفائزالأول: **صفاء عمر عربش ـ سورية.**

الفائزالثاني: **فاروق شاهر النفوري ـ سورية.**

الفائز الثالث: **مهدي أنيس محمد سليمان ـ الأردن .**

الفائز الرابع: **فيصل عبدالله الشدي ـ السعودية .**

حل مسابقة العدد (٢٨١)

ذي عين: قرية قديمة تتبع «منطقة الباحة» في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية.

قائل البيت: صالح بن عبدالقدوس.

جون دايفيس: ملاح إنجليزي اكتشف جزر فوكلاند.

البارجيل: برج التهوية الشائع في الدور الخليجية التقليدية.

من أشهر الأطباء العرب صاحب كتاب الحاوي: أبو بكر الرازي.

مسابقة الشهر (العدد ٢٨٤)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) مناص ☐ ملحمة شعبية قرغيزية ☐ جارية اشتهرت بالغناء في عصر الخليفة المتوكل.

(٢) من قائل هذا البيت: كُلٌ يدور على البقاء مُؤَمِّلاً وعلى الفناء تُديرهُ الأيامُ ☐ أحمد شوقي ☐ أبو العتاهية .

(٣) أبو منصور الثعالبي ☐ لغوي وأديب ومؤرخ عربي، صاحب «يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر»

☐ أديب عربي، صاحب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر».

(٤) زيتا ☐ الحرف السادس من الأبجدية اليونانية ☐ من مجموعة السليكات المائية تعرف بالزيوليتات.

(٥) (الميغاطن) قوة انفجارية تعادل قوة انفجار: ☐ مليون طن من ثالث نتريت التولين ☐ ألف طن من ثالث نتريت التولين.

الاسم: ---------------- ص.ب: ----------------

العنوان: ---------------- الرمز البريدي: ----------------

المدينة: ---------------- هاتف: ----------------

الدولة: ---------------- ناسوخ: ----------------

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يوماً من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ......)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وقرعة أخيرة للفائز الأخير.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

الجوائز

الجائزة الأولى:
١٥٠٠ (ألف وخمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الثانية:
٧٠٠ (سبعمئة ريال سعودي).

الجائزة الثالثة:
٥٠٠ (خمسمئة ريال سعودي).

الجائزة الأخيرة:
(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

أوّل قصيدة حب

فيصل أكرم
الرياض ـ السعودية



ودّعتها، قبل السماء بنجمتين
واليوم قد شاهدتها..
بعد التراب بحفرتين؛ ولم أزل
أتذكّر الأيام، والأحلام
والزمن الوديع:
كانت تحب قصيدتي
كانت تقول الشعر أحيانًا
وأحيانًا تضيء بصيرتي..
كانت على خجل الصبايا
تسكب الخصر الجميل على ذراعي
لا تفكّر في وداعي،
لا تقول سوى: أحبك
يا قصير العمر ـ أدري..
لم تكن تدري بأن العمر معترفٌ بنا
سنعيشه، حتى نقول له: كفى
قلنا، وكانت لا تفارق كفَّها كفّي..
ويجمعنا التساؤل: «كيف حالك؟»
كنت أعرف أنها كانت تنادي
في الصدى، كانت تناديني
تنادي حالتي الأخرى..
بلادي، والمنارات العظيمة
مكّة النور الذي سكن القلوب
كتابنا العالي..
أحبك؛ لا أقول
كما يقول العاشقون
ولا أنادي غير نفسي:
يا كتاباتي القديمة، لم يزل إهداؤك المنسيّ
جرحًا لا ينزّ.. ولا يسيح مع البياض
ولم أزل وحدي، أغيب ولا أغيب
ولم أكن غير الحبيب
ولن أكون سوى الغريب

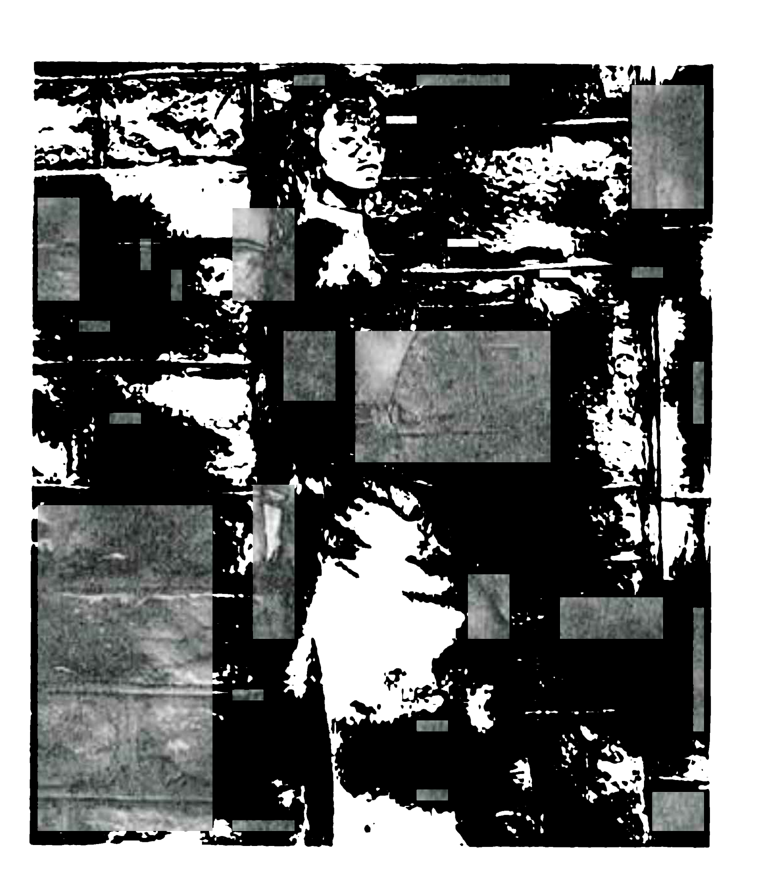
أنا أحبك، كنتُ من قبل الزمان
بفرحتين..
الفرحة الأولى: الولادةً
والأخيرة لم تزل تجري، وأجري خلفها..
سأحبّ من؟ من بعد حبك
من أحبّ؟
أحب أوراقي.. تطيرُ؟
أحب عمري؟ راح يحرقه الضميرُ..
قضيّتي كانت لديّ، وكنتُ فيكِ
وكان يسعدني الكلامُ..
الآن يفزعني الظلامُ، يهدّني..
ويعضّ جفني
يستريح إذا رماني للبعيد،
فلا أصيح ولا أنام..
فهل أقول الشعر؟
إني لن أصبَّ الماء في الشفة العظام..
ولن أذوب، كما يذوب الملح في حلقي
إذا مرّت دموعي فوق خدّي
لن تكون «الآه» ردّي..
سوف أرجع مثل طفلٍ عائدٍ للبطن..
قبري، حيث أمي في المكان الرّطب
حيث العطر، والعشب المخضّب في ثيابي
حيثُ جيراني القدامى
حيث أنت، وأنت في عيني تمامًا.. يا حبيبه

هل تنامين الصباح؟
وهل تنامين المساء؟
فلا تخافي، إنني آتٍ إليكِ
سوف آتي قبل أن يصل السلامُ
وقبل تفسير الكلام
أنا سآتي..
سوف أحضر فوق نعش الطيبين
ورغم أنف القابضين على الحياةِ
أنا سآتي..
لا أقول كما يقول الشاعر الذهبيُّ
في عرض القصيدة، لا وربّي
إن عمري قد مضى، أدري بهذا
إن كل الصدق في قولي: سآتي
واسألي عني التراب
أو اسألي عني الغياب
أو اسألي من مات قبلاً
مثل أمي، أو شبابي، أو أبي..
أنا لا أريد سوى الرحيل
ولا أحبّ الأرض من أعلى
سأدخلها أفتش عن كلام الحب
عن قدري، وأهلي، والحساب الصعب
عن عمري الذي ما عشتُ طفلا
إنني سأحبّ ذلك جيدًا..
سأحب ذلك جيدًا..

«عامان... قد مرّا!»

محمد السيد جاب الله

الإسكندرية - مصر



القرحُ.. إستشرى..
والجُرحُ.. لايَبْرا!
والرّوحُ في كَبَدٍ
والقلبُ قد هُصِرا..
«أمُسافري».. مهلاً
«عامانِ قدْ مرّا!»
يكوي الأسى نفْسي

ooo

ما أقْصَرَ اللُّقيا
ما أطْولَ السّفَرا
دَمْعُ النّدى يَهْمي
والرّوْضُ.. إقْفَرا
والدّمْعُ لا يَطْفي
بيْنَ الحشا جَمْرا
قد ذاب في كاسي

ooo

كيفَ «المنى» وُئِدت؟
والبَيْنُ قد.. أمَرا
والحُلمُ قد.. ولّى!
واللّيلُ ما مَرّا!
وسكينتي راحتْ
قد أصبحتْ ذِكرى
واليومُ.. كالأمسِ

ooo

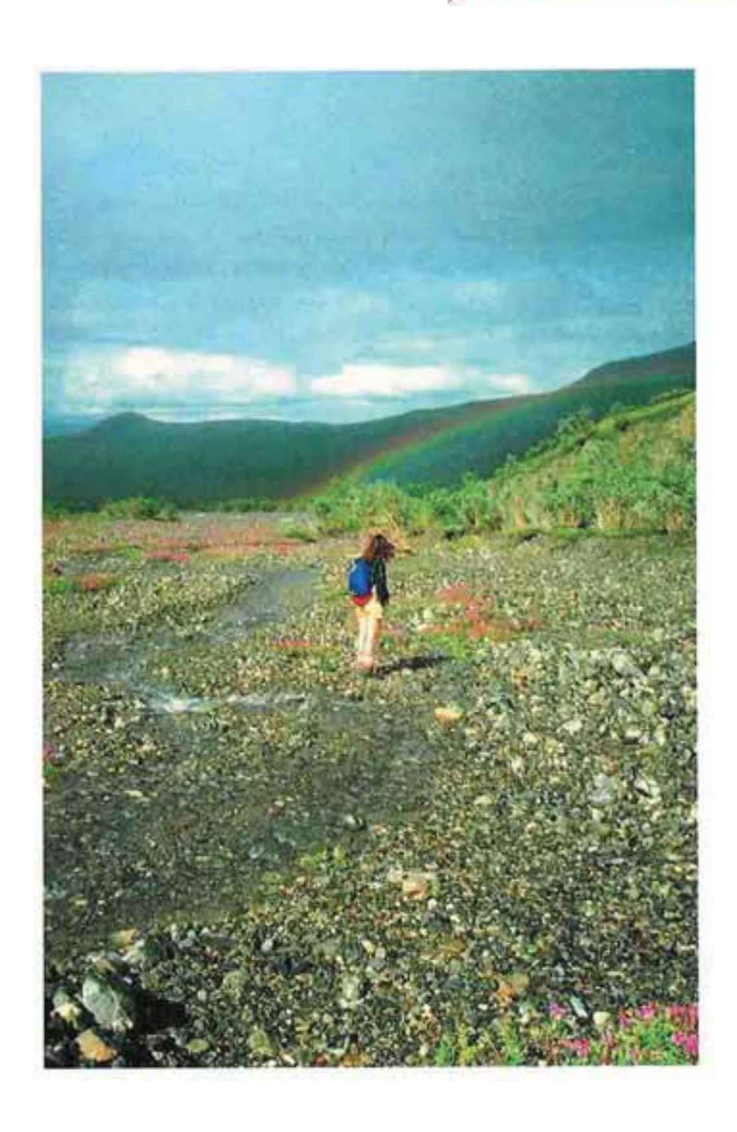
ما للهوى أضْحى
في ناظري قَفْرا!!
وتيبّس العُودُ
والنّايُ قد كُسِرا
والشّجوُ في لحْني
مُنذ «الهَنا» فَرّا
بالصّفو.. والأُنسِ

ooo

ما أهْوَنَ الدُّنيا
ما للوَرَى حَيْرى
والدّرْبُ.. محتومْ
لحياتِنا الأخرى
لا خَيْرَ في عيشٍ!!
إنْ قلّ أو كَثُرا
ماضٍ.. إلى «الرّمْسِ»

قصائد قصار

أحمد موفقي مخلوف
الجلفة - الجزائر



-١-

تحتويك الفصولُ،
تضلُّ معي والشواطئ تذكرها
والمدى والمكان..!..
وفراغ الحدائق،
أسيجة العشب،
هامشُنا بعد شاي الظهيرة،
والأقحوان،،
كُلُّ صُبح على ما يَسُرُّ،
لا نيّةَ ستؤدي إلى صيفك المشتهى،
أشعلي عزلتي، واحرقي موكب النّار،
لن تخفقي في دمي.

-٢-

الطريق إليك جُسور،
من الموت،
أحصنة لا تؤدي إلى الفتح
عاصفة لا تهبُّ..؟
كيف أكتب كل الرسائل؟
بعض الرسائل؟
ها أنت أبعدُ من لحظتي
فيحن إليك المصبُّ.

-٣-

سهو

نسينا على الماء أشرعة أنهكتنا،
نسينا نشيد القوارب في الليل،
أيُّ فضاءٍ تبرأ، من دمنا،
يا أسيرَ الغيوم، تكسَّر فوق الخطى،
مَرمر الوقتِ،
أين سيمضي بنا.؟

-٤-

ذكرى

نشأنا على الحبِّ،
مُنذ رياحين أشجارنا
ومُنذُ التقينا
ملأنا،
فراغ الأزقة بالحبِّ
كنا ابتدأنا معًا،
نُرددُ كلَّ أغاني الغزل،
ولما كبرنا افترقنا.

٢٥ أغسطس ١٩٨٣

خورخي لويس بورخيس

ترجمة: فائز محمود أبّا

جدة - السعودية

عرفت من ساعة المحطة الصغيرة أن الوقت تجاوز الساعة الحادية عشرة. أخذت أمشي في عمق الليل قاصدًا الفندق.. أحسست - مثلما حدث في الماضي - باستسلام وراحة من النوع الذي نشعر به في الأماكن التي تألفنا. كانت البوابة العريضة مفتوحة، والمنزل الريفي الضخم متلفع بالظلام.. دخلت في الدهليز الذي تعكس مراياه الشاحبة أخيلة نباتات البهو.

الغريب أن المالك لم يعرفني. قلب لي دفتر الضيوف لأوقع فيه. التقطت القلم المقيد بسلسلة بالسجل. غمسته في المحبرة النحاسية ثم انحنيت على الدفتر المفتوح، ووقعتْ أولى المفاجآت التي كانت تلك الليلة تدخرها لي. فاسمي خورخي لويس بورخيس كان مكتوبًا ولم يكن الحبر قد جف بعد «حسبتك قد صعدت إلى فوق» قال لي المالك ثم نظر إليّ بمزيد من التدقيق وصحح لنفسه: «عذرًا سيدي، إنك تبدو كالسيد الآخر تمامًا ولكنك أصغر سنًا».

«في أي غرفة هو؟» تساءلت.

«لقد طلب الغرفة رقم ١٩» جاءت الإجابة.

كان الأمر كما كنت أخشى.

ألقيت القلم ثم عدوت إلى الأعلى. الغرفة ١٩ في الطابق الثالث. كانت تطل على ممر حزين مهترئ، وكان به مقعد من نوع كراسي المتنزهات، ووفقًا لما أتذكر كان محاطًا بقضبان حديدية. كانت الغرفة أكثر غرف الفندق انعزالا.

حاولت أن أفتح الباب فانفتح بلمسة يدي. كان الضوء العلوي ما يزال مشتعلا. وفي النور «المتوحش الذي بلا شفقة» وجدتني إزاء نفسي. وهناك في السرير النحاسي الضيق، كنت ممددًا - أكبر سنًا، شبه متلاش، وناحلاً على ظهري.

عيناي كانتا تجولان بنظرات فارغة تحدجان باتجاه الـ... في السقف. بعدئذ سمعت الصوت. لم يكن صوتي بالضبط، كان الصوت الذي أسمعه دائمًا في تسجيلاتي، صوتًا غير بهيج وبلا تموجات.

«يا للغرابة!» كان يقول: نحن اثنان لكننا واحد.. ولكن لا شيء غريبًا في حلم.

«إذًا» قلت بهلع: «فكل هذا حلم؟»

«أجل، أنا متأكد، إنه حلمي الأخير.

أشار نحو زجاجة فارغة على المنضدة الرخامية.

«أما أنت فلديك الكثير لتحلم به قبل أن تجيء إلى هذه الليلة.. ما هو تاريخ اليوم بالنسبة لك؟».

«لست متأكدًا»، «قلت بشيء من الفحيح» لكن يوم أمس كان عيد ميلادي الواحد والستين.

«حين تبلغ هذه الليلة في حال يقظتك مرة أخرى.. ستكون ليلة البارحة عيد ميلادك الرابع والثمانين. اليوم هو الخامس والعشرون من أغسطس ١٩٨٣م»

«موعد بعيد لمن ينتظر».

«ليس بالنسبة لي» قال بإيجاز «بالنسبة لي لم يتبق زمن فسأموت في أي لحظة.. وفي أي لحظة قد أتلاشى في ما هو مجهول بالنسبة لي وما زلت أحلم بقريني.. تلك الموضوعة التي أخذتها من ستيفنسون والمرايا»

أحسست أن اسم ستيفنسون كان وداعًا لا تشدقًا فارغًا.. فهمست

كنت أنا هو... أدركت ذلك.

إن إيجاد شكسبير قادر على اجتراح التعبيرات الحالمة (و) يقتضي أكثر من كل لحظات الحياة الدراماتيكية القصوى.

لكي أشتت انتباهه.. قلت:

«كنت أعرف أن هذا سيحدث لك.. فهنا تحديدًا وفي هذا الفندق قبل عدة سنوات وفي إحدى الحجرات في الطابق السفلي بدأنا كتابة مسودة هذا الانتحار.

«أجل» أجاب ببطء كأنه يستعيد شتات الذكريات ويضفرها بعضها ببعض.

لكنني لا أرى أية صلة. في تلك المسودة ابتعت تذكرة ذات اتجاه واحد إلى أدروجو، وحين استيقظت في فندق لاس ديليكياس ذهبت إلى الغرفة ١٩ أبعد الغرف عن البقية.. هناك اقترفت انتحاري»

«ولذلك أنا هنا» قلت مجيبًا / معلقًا

«هنا، لقد كنا دومًا هنا.. في هذا المنزل في كال مايبو أحلم الآن بك (أحلمك).. وهنا في هذه الغرفة التي كانت لأمي سأتخذ درب الرحيل.

«الغرفة التي كانت لماما؟» رددت دون رغبة في الفهم.

«أحلمك في الغرفة (١٩) في الطابق العلوي قرب ممر السطح.

«من يحلم بمن؟» أعرف أنني أحلمك ولا أدري إن كنت تحلم بي والفندق الذي في أدروجو تحطم منذ سنوات وسنوات، عشرين وربما ثلاثين من يدري؟..

«إنني أنا الحالم» أجبت بشيء من تحد.

«ألا تدرك أن أول ما ينبغي أن تتحقق منه هو إن كان ثمة حالم واحد فقط أم رجلان يحلمان الواحد بالآخر؟»

«أنا بورخيس. رأيت اسمك في السجل وصعدت».

«ولكني أنا بورخيس وأنا الآن محتضر في منزل في كال مايبو»

ساد صمت ثم قال لي:

«فلنحاول أن نجري اختبارًا.. ما هي اللحظة الأشد هولاً في حياتك؟»

فتكلمنا في الوقت نفسه، كنت أعرف أن كلينا كان يكذب.

أنارت وجهه المتغضن ابتسامة شاحبة.

أحسست أن تلك الابتسامة كانت على نحو ما تعكس ابتسامتي.

«لقد كذبنا على بعضنا» قال هو «لأننا نحس أننا اثنان لا واحد، الحقيقة أننا اثنان ولكننا (شخص) واحد».

كنت قد بدأت أحس الاستفزاز والضيق من هذه المحادثة وأخبرته بذلك. فأضاف عندئذ «وأنت هناك في سنة ١٩٨٣م لن تخبرني أي شيء

عن السنوات التي تركتها».

ما الذي أستطيع أن أخبرك به يابورخيس البائس؟ إن سوء الطالع الذي اعتدته سيتكرر، ستترك وحيداً في هذا المنزل، وستلمس كتباً ليس بها حروف، وميدالية سويدنبرغ، والطبق الخشبي ذا الصليب الفيدرالي، العمى ليس هو الظلام.. إنه شكل من أشكال الوحدة، ستعود إلى آيسلندا، آيسلندا المطوقة بالبحر.

«في روما ستعاود تلاوة أشعار كيتس الذي كتب اسمه ككل الرجال على صفحة الماء».

«أنا لم أذهب إلى روما مطلقًا»

«ثمة أشياء أخرى، ستكتب أجمل قصائدنا...مرثية».

«في موت...، بدأت أقول ولم أستطع أن أنطق الاسم».

«لا، ليست هي، فهي ستعيش بعدك».

أخلدنا إلى الصمت ثم تابع هو:

«ستكتب الكتاب الذي حلمنا به طويلاً، وفي سنة ١٩٧٩م سترى أن مسارك المفترض لم يكن سوى سلسلة من المسودات، مسودات منوعة وستذعن للإغراء العقيم والخرافي لتكتب كتابك العظيم الذي أنزل علينا فاوست جوته سلامبو ويوليسيز. لقد ملأت ـ وهذا أمر لا يصدق ـ العديد من الصفحات».

«وفي النهاية تحققت أنك قد فشلت»

بل أسوأ من ذلك، أدركت أنها كانت رائعة بكل ما في الكلمة من معنى، فنواياي الحسنة لم (تبق لأكثر من) تدم أبعد من الصفحات الأولى.

الصفحات التي تلت احتوت المتاهات، الخناجر، الرجل الذي يظن نفسه خيالا، الخيال الذي يحسب نفسه حقيقة/ي، النمر الذي يطوف في الليل، المعارك التي تجري في دم المرء، خوان موراناّيا الأعمى المميت، صوت ماسيدونيو فيرنانديز، السفن المصنوعة من أظافر الموتى، الإنجليزية العتيقة التي تردد في الأمسيات.

«ذلك المتحف يسترعي الانتباه» علقت ساخراً: هذا إن لم نذكر الاستعادات المزيفة، ازدواج الرموز، الكتالوجات الطويلة، التعامل البارع مع الحقيقة العادية/النثرية، التواؤمات غير الكاملة التي يكتشفها النقاد باغتباط، والاقتباسات التي لا تكون دوماً موثوقة..

«وهل نشرتها؟»

ظللت أعبث ـ بلا اقتناع ـ بالاحتمال الميلودرامي لتدمير الكتاب، حرقه بالنار ربما.. لكنني انتهيت إلى نشره في مدريد باسم مستعار واعتبرت مقلداً لبورخيس... شخصاً ـ لديه نقطة ضعف كونه ـ يعيبه أنه ليس بورخيس ولكنه يبرز كل الخصائص الخارجية للأصل.

«لست مندهشًا» قلت «فكل كاتب سيصبح عاجلاً أم آجلاً أسوأ مقلد لذاته هو، وأقلهم ذكاء»

وذلك الكتاب كان أحد الطرقات التي قادتني إلى هذه الليلة.. الآخرون.. إذلال الشيخوخة.. الاعتقاد بأنك قد عشت كل الأيام من قبل.

«لن أكتب ذلك الكتاب» قلت:

«بل ستكتبه برغم ذلك. إن كلماتي التي هي حاضرة الآن ستصبح ذات يوم أكثر ما يتبقى من ذكريات الأحلام غموضاً».

ألفيت نفسي أضيق ذرعًا بلهجته الجازمة؛ اللهجة نفسها التي استخدمها في الصفوف التي أدرس لها، كنت متضايقًا جدًا من الطريقة التي كنا نتشابه بها والتي أتاحت له أن يستغل الحصانة التي وفرها له الدنو من الموت».

هل أنت متأكد؟ سألته لأنال منه قليلاً «إنك سوف تموت؟» «نعم» أجاب «إنني أحس بعذوبة وراحة لم أشعر بهما قط من قبل. لا أستطيع أن أصفهما إذ تتطلب كل الكلمات تجارب مشتركة، لماذا تبدو متضايقًا مما أقول؟»

«لأننا نتشابه كثيراً. أمقت وجهك فهو (صورة) كاريكترية من وجهي، وأمقت صوتك لأنه تقليد ساخر لصوتي.. وأكره طريقة ترتيب الكلمات لديك لأنها طريقتي...

«وأنا كذلك» قال مبتسماً «ولذا قررت أن أقتل نفسي».

صدح طائر في الحديقة

«إنه الأخير» قال الرجل الآخر (ثم) حركني نحوه. بحثت يده عن يدي استبد بي الهلع وخشيت أن تتلامس أيدينا.

«لقد كان الرواقيون يعلموننا «قال لي» أن لا نشتكي من الحياة ـ فباب السجن مفتوح... كنت أنا نفسي أرى الحياة كذلك. لكن الكسل والجبن قعدا بي. قبل اثني عشر يوماً كنتُ ألقي محاضرة في لابلاتا عن الكتاب الرابع من الإنيادة، وفجأة وبينما كنت أقوم بعملية تقطيع عروض للبحر السداسي اهتديت إلى السبيل التي سأسلكها أخذت قراري ومنذ تلك اللحظة وأنا أحس نفسي منيعًا حصينًا.



يومًا ما ستلقى ذلك المصير.. وستأتيك لحظة التجلي تلك فيما أنت منهمك في قراءة اللاتينية وتلاوة أشعار فيرجيل.. لكنك حتمًا ستنسى هذا الحوار... التنبؤ العجيب الذي يجري في موضعين وزمنين مختلفين.

وعندما تحلم في المرة الثانية ستكون أنت أنا وستكون حلمي «لن أنساه وسأكتبه غدًا».

«سيقبع في أعماق ذاكرتك تحت تيارات أحلامك. وحين تكتبه ستحسب أنك تنسج حكاية فانتازية. ولن يكون ذلك في الغد.. بل بعد سنوات طويلة من الآن.

كفَّ عن الحديث. أدركت أنه قد مات، وبطريقة ما متّ معه.. وبحزن ملت على وسادته ولكن لم يكن ثمة أحد.

هربت من الغرفة. في الخارج لم يكن ثمة فناء، لم تكن هناك سلالم رخامية، لا منزل صامتًا عظيمًا، لا أشجار، لا تماثيل وما من ساحة للعرض في حديقة، لا نواعير، لا بوابة في السور المحيط بالفندق في مدينة أدورجي.

في الخارج كانت أحلام أخرى تنتظر.

* إن نص بورخيس هذا يترجم إلى العربية للمرة الأولى فيما نعرف. ويزيد من فداحة هذا اليقين أن هذا النص من آخر ما كتب أديب القرن التاسع عشر كما كان يحلو لهذا البصير أن يصف نفسه. قبل ذلك كان قد نسج للفكرة غزلاً آخر في مقطوعة بعنوان بورخيس وأنا فاقتضى التنويه.

الأم المتوحشة

غي دو موباسان
ترجمة:
محمد نبيل النحاس الحمصي
الرياض - السعودية

بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على آخر زيارة لي إلى قرية فيرلون، عدت إليها في الخريف المنصرم لزيارة صديقي سيرفال، بعد أن فرغ من إعادة بناء قصره الذي دمره الألمان.

كم أحب هذه البقعة! ثمة أماكن رائعة تسبي العيون، وتأخذ الألباب، وتوقع الناظر بحبالها. إنني من أولئك الذين يحبون الأرض، ويحتفظون بذكريات عذبة لبعض الينابيع، والغابات، والمستنقعات، والهضاب التي طالما تأملتها عيونه، وأثارت في نفسه الحنين، كما تفعل المناسبات السعيدة بالإنسان. يحدث في بعض الأحيان أن ترجع الذاكرة إلى ركن من أركان غابة، أو بقعة على ضفة نهر، أو بستان زينته الأزهار والورود. أماكن رأتها العين مرة واحدة، في يوم سعيد، ولكنها بقيت محفورة في القلب، كما تفعل صورة امرأة جميلة، ذات حسن وبهاء ينمان عن شفافية ونقاء، نصادفها على الطريق، في صباح ربيعي، وتترك في النفس إحساساً بالسعادة، ورغبة لا تهدأ ولا تنسى.

أحب في فيرلون ريفها الذي تزينه، هنا وهناك، غابات صغيرة، وتنساب في ثناياه جداول رقيقة عذبة، أوردة تحمل الدم إلى التربة، اعتدنا أن نصطاد فيها الربيان والترونة والأنقليس، وأن نستحم في مياهها من وقت إلى آخر، ونعثر على أعداد من الشنقب في كنف الأعشاب العالية التي تنمو على حواف تلك الجداول! يالها من سعادة غامرة!

كنت أنظر إلى كلبيّ الاثنين وهما يدوسان العشب بقوائمهما، ويعيثان فيه فساداً. بينما كان صديقي سيرفال على مسافة مئة متر إلى يميني يجوب حقلاً من البرسيم. وعندما بلغت الشجيرات التي ترسم حدود غابة «سودر» لمحت بيتاً خراباً.

فجأة، تراءت في مخيلتي صورة البيت كما رأيته آخر مرة: نظيفاً جميلاً، مكسواً بأوراق الكرمة، تحوم أمام بابه بضع دجاجات. ما أتعس مشهد بيت ميت، لم يبق منه سوى هيكل عار، كئيب!

تذكرتُ أيضاً تلك المرأة التي استضافتني فيه ذات يوم بلغ فيه مني التعب مبلغه، وقدمت لي كأساً من الشراب، وروى لي سيرفال بعدئذ قصة شاغليه. كان رب الأسرة يتعاطى الصيد من دون ترخيص، ولقي حتفه على يد الدرك. له ابن شرس، لابد أنه كان يحذو حذو أبيه في التعامل مع الطرائد. كان الجوار يلقبونهم «الوحوش».

هل كان هذا هو اسمهم يا ترى، أم إنه مجرد لقب؟ لست أدري.

ناديت سيرفال. فأتاني مسرعاً بساقيه الطويلتين.

سألته:

- ماذا حل بساكني هذا البيت؟

فراح يروي لي المصير الذي آلوا إليه.

عند اندلاع الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧٠م، انخرط الابن في صفوف الجيش الفرنسي وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، تاركاً والدته وحيدة في المنزل. لم تكن العجوز تثير الشفقة، لأن الكل يعرف أنها تملك المال.

بقيت وحيدة في هذا البيت المنعزل على تخوم الغابة، في منأى عن القرية. لم تكن تشعر بالخوف لأنها تنتمي إلى نفس الفصيلة التي ينتمي إليها رجلها ونجلها. كانت عجوزاً شمطاء شرسة، طويلة القامة، نحيلة الجسم، يندر أن تبتسم، ولا يجرؤ أحد على ممازحتها. شأنها، في الواقع، شأن نساء الأرياف اللواتي قلما يضحكن. فالضحك شأن الرجال! تلمس في أعماقهن، وفي تفكيرهن ضيق الأفق، ويملأ حياتهُنّ غمّ وكدرٌ قلما ينقشعان.

رجالهُنّ يتعلمون قليلاً من المرح الصاخب في المقهى الذي يرتادونه من حين إلى آخر، أما هن فيحتفظن بجديتهن ووقارهن، وترى القسوة بادية على سحنتهن. ربما لأن عضلات وجوههن لا تتقن حركات الضحك.

واصلت الأم المتوحشة حياتها المعتادة في ذلك الكوخ الذي سرعان ما غطته الثلوج.

كانت تذهب إلى القرية، مرة في الأسبوع، لتبتاع خبزاً ولحماً، ثم تعاود أدراجها إلى مسكنها. وعندما سمعت بقصة ذئاب يحومون في المنطقة، باتت لا تخرج إلا والبندقية على ظهرها، بندقية ابنتها الصدئة، التي اهترأ أخمصها لكثرة ما أمسكت به الأيدي. كان مشهدها لافتاً للنظر ومدعاة للاستغراب، منحنية الهامة، تسير بخطا وئيدة فوق الثلج، وفوهة سلاحها تتجاوز غطاء رأسها الأسود الذي اعتادت أن تحبس به شعرها الأبيض، هذا الشعر الذي لم يسبق أن رآه أحد على الإطلاق.

وذات يوم وصل الجنود الألمان. وجرى توزيعهم على أهالي القرية، بعد الأخذ بالحسبان موارد كل منهم، ووضعه المادي. كان نصيب العجوز أربعة مجندين لأنها ميسورة الحال.

كان المجندون الأربعة بيض البشرة، بديني الجسم، زرق العيون. احتفظوا ببدانتهم على الرغم من التعب الذي عانوا منه أياماً طويلة، وكانت تصرفاتهم لائقة مع أنهم جاؤوا غزاة. كانوا يبادلون مضيفتهم كل لطف

ومودة ورعاية، ويعملون ما في وسعهم لتجنيبها التعب وإنفاق المال الكثير.
كان العابرون يشاهدونهم يغتسلون في الصباح حول البئر، بملابسهم الداخلية، والطقس قارس مثلج، يسكبون الماء غزيراً على أجسام بيضاء وردية لا تراها إلا في بلدان الشمال، بينما كانت العجوز منهمكة في تحضير الفطور. بعد ذلك، كانوا يقومون بتنظيف المطبخ، ومسح البلاط، وتقشير البطاطس، وغسل الملابس، وغيرها من الأعمال المنزلية، كأربعة أبناء أوفياء يحومون حول أمهم ويحنون عليها.

ولكن الأم كانت دائمة التفكير بابنها الذي كان طويل القامة، هزيل الجسم، ذا أنف معقوف، وعينين بنيتين، وشاربين أسودين طويلين يتدليان على شفته. كانت كل يوم تسأل الجنود الأربعة المقيمين في شقتها:

- أتعرفون أين ذهبت كتيبة المشاة الفرنسية الثالثة والعشرون، إن ابني مجند فيها.

فيجيبونها بالنفي مضاعفين جهودهم في العناية بها والسهر على راحتها، مقدرين قلقها ومأساتها، لأنهم هم أيضا تركوا أمهاتهم هناك. كانت تحب أعداءها الأربعة؛ لأن القرويين عادة لا يكنون أحقاداً يمليها حب الوطن؛ فهذا الأمر من شأن الطبقات العليا. أما البسطاء، أولئك الذين يدفعون أكثر لأنهم فقراء، ويكلفون بكل عبء جديد، أولئك الذين يقتلون بمجموعات كبيرة، الذين يشكلون، لوفرة أعدادهم، هدفاً لقذائف المدفعية، أولئك الذين يعانون ويقاسون من ويلات الحرب، لأنهم الأضعف والأقل مقاومة، ولا يدركون هذه الحماسة الشرسة، ولا ذاك الاعتزاز والفخر، ولا تلك الدسائس والمكائد السياسية التي أرهقت في ستة أشهر متوالية أمتين اثنتين، الغالبة والمغلوبة، على حد سواء.

كان القرويون يقولون عن الألمان الأربعة، ضيوف الأم المتوحشة:

- لقد وجد هؤلاء الجنود الأربعة المأوى الجيد.

ذات صباح، بينما كانت العجوز وحيدة في المنزل، لمحت، من بعيد في السهل، رجلا يحث الخطا باتجاه بيتها، سرعان ما عرفته، إنه ساعي البريد المكلف بتوزيع الرسائل سيراً على الأقدام. سلمها ورقة مطوية، فأخرجت نظارتها التي تستخدمها في الخياطة، ثم قرأت:

«يؤسفني أن أنقل إليك خبراً محزناً، لقد قتل ابنك فيكتور يوم أمس بشظية قنبلة، شطرته نصفين. كنت قريباً منه، لأننا دائماً في الكتيبة جنبا إلى جنب، وكان دائما يحدثني عنك، ويوصيني أن أخطرك فيما لو حل به مكروه.

«أخذت ساعته من جيبه لأعيدها إليك عندما تضع الحرب أوزارها.

«أحييك بكل ود.

«سيزير ريفو، مجند من الصنف الثاني في كتيبة المشاة الثالثة والعشرين».

حملت الرسالة تاريخاً انقضى منذ ثلاثة أسابيع.

للوهلة الأولى، لم تذرف الأم دمعة واحدة، ولم تأت بأية حركة لشدة ما أصابها من ذهول، بل لم تشعر حتى بالأسى. قالت في نفسها: «ها هو ذا فيكتور قد مات». عندئذ أخذت الدموع تنهمر من عينيها تدريجياً، واجتاح الحزن قلبها دفعة واحدة. وبدأت الأفكار تساورها الواحدة تلو الأخرى، فظيعة، مؤلمة. لن تعانق ولدها بعد اليوم إذن أبداً!

الدرك قتلوا الأب، والألمان الابن... شطروه نصفين بقذيفة.

وتراءى لها مشهد ابنها ميتاً أمامها، مشهد مروع: الرأس يتدحرج، والعينان مفتوحتان، بينما يلوك بفمه طرفاً من شاربه العريض، كما كان يفعل في ساعات الغضب.

ولكن ماذا فعلوا بجثته؟

ليتهم أعادوها لها، جثة ابنها، كما فعل الدرك بجثة زوجها، والرصاصة في وسط جبينه!

وفجأة سمعت أصواتاً تقترب شيئاً فشيئاً. كان الألمان الأربعة عائدين من القرية. فما كان منها إلا أن سارعت إلى إخفاء الرسالة في جيبها، واستقبلتهم بنظرتها المعتادة، بعد أن مسحت الدموع من عينيها.

كان الجنود يضحكون، والسرور باد على محياهم، حاملين أرنباً سميناً، لابد أنهم سرقوه، وراحوا يبادرون العجوز بإشارات لإفهامها أنهم سيأكلون طبقاً شهياً اليوم.

وبدأت الأم على الفور بتحضير الغداء. ولكنها لم تقو على قتل الأرنب. مع أنه ليس أول أرنب تقتله! فأجهز عليه أحد الجنود بضربة من قبضة يده خلف أذنيه.

وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة، عمدت العجوز إلى نزع جلده؛ ولكن مشهد الدم الذي يسيل من يديها، دم فاتر تتحسسه يبرد شيئاً فشيئاً، ثم يتخثر، يجعلها ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها، وتتراءى لها صورة ابنها، مبتور الرأس، قاني اللون، كهذا الحيوان الذي بين يديها.

جلست إلى المائدة مع الألمان، ولكنها لم تأكل شيئاً على الإطلاق، ولا حتى لقمة واحدة. بينما افترس الجنود الأرنب ولم يلتفتوا إليها. كانت تنظر إليهم شذرا دون أن تنبس ببنت شفة، تداعبها فكرة ما، إلا أنها حافظت على رباطة جأشها ولم يظهر على وجهها أي تعبير يجعلهم يتوجسون منها.

وقالت فجأة: «مضى شهر كامل على وجودنا معاً، ولست أعرف

أسماءكم بعد». فهم الجنود ما تريده العجوز بلا عناء، وأفصحوا لها عن أسمائهم. ولكنها لم تكتف بذلك؛ بل طلبت منهم أن يدونوها على ورقة مع عناوين أسرهم. رفعت نظارتها، وركزتها على أنفها الكبير، وراحت تتأمل هذه اللغة المجهولة، ثم طوت الورقة ووضعتها في جيبها، إلى جانب الرسالة التي حملت لها نبأ وفاة ابنها.

عندما فرغ الجنود من الطعام قالت لهم:

ـ سوف أحضر شيئًا من أجلكم.

وبدأت تحمل كميات من القش وترفعها إلى السقيفة التي ينام فيها الجنود.

استغرب هؤلاء عملها هذا؛ ولكنها شرحت لهم أن ذلك يخفف عنهم عناء البرد؛ فهرعوا لمساعدتها. وأخذوا يكومون حزم القش على محاذاة جدران السقيفة إلى أن وصلت إلى ارتفاع السقف؛ وأصبح لديهم غرفة كبيرة جدرانها من قش، تشعرهم بالدفء، وينامون فيها نومًا عميقًا.

على مائدة العشاء، لاحظ أحد الجنود أن العجوز لا تأكل أيضًا هذه المرة، ادّعت أنها مصابة بالمغص، ثم قامت وأوقدت نارًا لتدفئة المنزل، وصعد الجنود إلى غرفتهم مرتقين السلم كما يفعلون كل مساء. وما إن أغلق باب المصيدة، سحبت السلم، وفتحت الباب الخارجي بهدوء شديد، وراحت تجلب حزمًا من القش لتملأ بها المطبخ. كانت تمشي فوق الثلج حافية القدمين، وبحذر بالغ، كي لا يسمع الجنود شيئًا. ومن وقت إلى آخر، كان يصل إلى مسامعها، بحدة متفاوتة، شخير الجنود النيام.

وعندما رأت أن استعداداتها باتت كافية، رمت في الموقد حزمة من القش، ثم أخرجتها بعد أن اشتعلت، وبعثرتها على بقية الحزم، وخرجت تنتظر.

أنار الكوخ في غضون ثوان قليلة بريقٌ ساطعٌ، تحول بعدها إلى كتلة هائلة ملتهبة، إلى فرن كبير يتأجّج نارًا، وكانت ألسنة اللهب تظهر من النافذة الضيقة، وتنعكس منها على الثلج في خارج المنزل.

انطلقت من أعلى المنزل صيحة عالية، تلتها صيحات أشبه بالعويل، استغاثات تمزق الأحشاء لشدة ما تعبر عنه من ذعر وهلع. وعندما انهارت المصيدة في الداخل، انطلق لسان هائل، اخترق سقف البيت، وارتفع عاليًا في السماء، والتهب الكوخ برمته.

لم يعد يسمع من الداخل سوى أزيز النيران، وأصوات تصدعات الجدران وانهيارات الأعمدة. وفجأة، انهار السطح، وارتفعت من الكوخ المضطرم ألسنة لهب هائلة وسط سحابة كبيرة من الدخان.

أضاءت النار السهل الأبيض المكسو ثلجًا، وبات أشبه بغطاء فضي كبير مطلي بالأحمر.

ودوت من بعيد دقات جرس الكنيسة.

ظلت العجوز واقفة أمام بيتها المضطرم الخرب، حاملة البندقية، بندقية ابنها، خشية أن يتمكن أحد الجنود من النجاة.

وعندما تحققت من أن كل شيء قد انتهى، قذفت بسلاحها في النار. فخرجت منه طلقة كسر صوتها سكون الليل.

توافد الناس إلى المكان، قرويون، وألمان.

وجدوا المرأة العجوز جالسة على جذع شجرة، هادئة، مطمئنة، راضية.

سألها ضابط ألماني، يتكلم الفرنسية بطلاقة أبنائها:

ـ أين الجنود الألمان؟

فمدت ذراعها النحيلة باتجاه الركام الأحمر الذي خلفه الحريق، وبدأ يخمد الآن، ثم أجابت بصوت قوي:

ـ هناك في الداخل!

وبينما كان الناس يتجمهرون حولها ويتدافعون، وجه لها الضابط سؤالاً آخر:

ـ كيف اندلعت النار؟

فأجابت قائلة أنا التي أوقدتها.

لم يصدقها أحد، ظنًا منهم أن الكارثة التي ألمت بها أفقدتها صوابها. عندئذ، وبينما كان الجميع يتحلقون حولها ويصغون إلى ما تقول، روت القصة من أولها إلى آخرها، منذ وصول الرسالة إلى آخر صيحة أطلقها الجنود وهم يحترقون مع بيتها.

لم تنس شيئًا مما أحست به، ولا مما فعلته.

وعندما ختمت قصتها، أخرجت من جيبها ورقتين، ووضعت نظارتها لتميزهما على ضوء ألسنة النار الأخيرة، وقالت، وهي تظهر إحدى الورقتين: «هذه هي موت فيكتور». ثم أبرزت الثانية، وأردفت قائلة، وهي تشير برأسها إلى الحطام الأحمر: «وهذه هي أسماؤهم، لتكتبوا إلى أهاليهم» وبكل هدوء ورباطة جأش قدمت الورقة الثانية إلى الضابط وقالت:

ـ اكتبوا كيف حصل ذلك؟ وقولوا لأهلهم إنني فعلت ذلك، أنا، فيكتوار سيمون، المتوحشة! لا تنسوا.

أطلق الضابط أوامر باللغة الألمانية. فأمسك بها الجنود، ورموا بها على جدار منزلها الذي مازال ساخنًا. ثم اصطف اثنا عشر جنديًا في مواجهتها، على بعد عشرين مترًا منها. لم تأت العجوز بأية حركة بانتظار مصيرها.

ودوى أمر جديد، تبعته رشقات البنادق. لم تصبها منها سوى طلقة واحدة متأخرة، انطلقت وحيدة، بعدما سكتت البنادق الأخريات.

لم تهو العجوز أرضًا، وإنما انهارت على بعضها كما لو قطع ساقاها.

اقترب الضابط من العجوز التي بدت وكأنما شطرت نصفين، وبيدها الرسالة الغارقة بالدم.

وأردف صديقي سيرفال قائلاً:

ـ عمد الألمان بعدها إلى تدمير القصر الذي كنت أمتلكه في المنطقة انتقامًا لهذه الحادثة.

أما أنا، فرحت أفكر بأمهات الشبّان الأربعة الظرفاء الذين قضوا حرقًا في الداخل؛ وبطولة تلك الأم العجوز الشرسة التي قضت نحبها ببنادق الألمان أمام هذا الجدار.

والتقطت حجرًا صغيرًا أسود من مخلفات الحريق، وتابعت المسير.



عبدالعزيز بن محمد الفارسي

شناص - سلطنة عُمان

أجلس على حافة الكرسي الخشبي منذ زمن قد تمرد على أدوات الحصر والقياس؛ أيمم وجهي شطر طاولة صغيرة تمتشق المسافة بيننا، تعلوها ساحة معركة لم نبدأ بعد. يسكن رأسي مثقلا بأوهام كثيرة على راحتيّ اللتين تتألمان من طعنات الشعيرات المتناثرة على ذقني، ألمٌ كذاك الذي يندلق من عينيّ وهما تبحثان عن وجهك؛ عن عينيك؛ عن خصلة الشعر الذي يختلط سواده بهواجسي المطعونة.

ها أنذا أجد عينيك بُعيد عناء، أجدهما مغروستين في الأحجار الشطرنجية المصفوفة بتناسق وتضاد على رقعةٍ يتقاسمها الليل والنهار.

الضوء المنبعث من النافذة التي تقع على يميننا يشكّل ظلالا لا تقيم وزنًا لتنافر لوني الأحجار، لا تقيم وزنًا لأحجامها الصغيرة، أرى الظل أكبر بعشرات المرات من حجم الحجر الواحد، أهي لعبة الحياة في النور والظلام؟ أحاسيس غريبة تبعث في النفس الرهبة الشديدة. «خديجة.. منذ متى ونحن نعبدُ هذه الأصنام بالتأمل؟! نظل لها عاكفين، ننتظر اللحظة وأختها، ولا نبادر بتحريك الجيوش، أعطيني شارة البدء، كما أهوى تلك الملكة المُندسة خلف الصفوف، أراها تسترق النظرات إلى ملكي، تناوشه، هل نبدأ؟ هيا كسّري صمت الأصنام..».

نقلة أولى:

بيدق أبيض بلون اللؤلؤ، بنصاعة القلب، يتقدم تجاهك، يقتل المسافة، يرمي بكل ثقله أمام قلبك. كان البيدق فيما مضى أسيرًا يتحيّنُ الفرصة ليغازل الهروب. رآك بعين قلبي ذات لحظة كالغيث يهمس في أذن الأرض، يدغدغ الشعور، ورآك عشقًا لا يعترف بحاجز الطفولة. أدمن النظر إليك من مكانه، فكان أن أعلن لنفسه ذات لحظة بأنك «حلم الطفولة».. كان يعي ـ إذ بات يختلس المجيء إلى مدرستك ليشاهدك من بعيد ـ أنه إذا ما امتلك السلاح سيلقيه لا محالة، وسيسعى لتحقيق الحلم. وبقي يسترق النظرات بضع سنين إلى أن جاءت هذه اللحظة. مشغول بالكلمات التي أود أن أنثرها لأبارك لك نجاحك الباهر في الدراسة، أتحين الفرصة المناسبة للاعتراف.. «أتعرفين اللؤلؤ يا سمراء؟ هو امتدادي، هو عشقي.. أحبك». ها هو ذا يتقدم يا خديجة.. يا حلم الطفولة، لا يملك السلاح حتى يتخلى عنه.. أتقبلين؟.

تتحرك نحوي يا أيها البيدق الأسمر... «سأفكر».

نقلة ثانية:

ركود المشاعر صار يفترش الرقعة. الهدوء البغيض لا يعجبني، سأتقدم يا حلم طفولتي، سآتي على هذا الحصان الأبيض كي أقتنص اللحظة، كي أناور الملك الذي أهوى امتلاكه. الحصان.. الحصان الأبيض يتخطى جيوش المماطلة، ينتهز جموح الانتظار، أكرر الطلب، خديجة.. أتقبلين؟، أقف زمنًا طويلاً أمام القلاع، أشهر كثيرة وأنا أرقبُ أن تطل الملكة برأسها من على قمة برج القلعة. إلامَ هذا العبث؟. سقط الحصان صريع العطش على أبواب قلاعك، قذفوا بجثته خارج الرقعة، رفضت بإلحاحي المستمر، ماطلتني.

الفيل.. تقدم، عليك ألا تسلك طريق المواجهة، حاول الإلحاح بالضغط عليها من الجوانب. خديجة.. أتقبلين؟. أطلّت الملكة على استحياء.. «لا مانع».

نقلة أخرى:

كالهمس يأتي القبول جميلا، يفتح للمدى أذرع الأحلام المستلقية على فراش التمني، يعطي اللؤلؤ نكهة التميز. خديجة تسمع الكلمات من الأحجار التي باتت مسالمة، تهمس لها بالوجد الذي يسكن بين صُلب وترائب. تصمت خديجة كثيرًا إذا ما أسررتُ لها بذلك، وأفترض بلا وعي أنه الخَجل، .. يعجبني إذا ما أنصتت.. وإذا ما حققت لي حلم الطفولة. ألقت الأحجار أسلحتها، صارت تجلس القرفصاء في مواقعها، تتبادل الابتسامات مع نظائرها، تعجبت الأحجار الشطرنجية كيف أنها يومًا قد قررت الخوض في الحرب، وكيف أنها الآن مغرمة ببعضها، مضت تتبادل التهاني عبر الهاتف، تعبر عن ذاتها، لم تقرر الاختلاف لحظة ما... وفي يوم أغر، أرادت أن توحد الأزياء.. اللؤلؤ أم السمرة؟.

تأبين:

خديجة تتهرب كثيرًا. تأبى أن تنطق بكلمة واحدة توضح المشاعر. تضايقت أحجاري اللؤلؤية. تركت الاسترخاء وهبّت وقوفًا تستطلع الأمر.. الوزير: أنت مكلّف بمعرفة دوافع الصمت في النفوس، مطلوب منك أن تقدم تقريرًا مفصلا يوضح لماذا يلجأ البشر إلى الصمت؟ لماذا تكون الكلمات ضعيفة؟ لماذا يكون الصمت أبلغ إجابة؟ اذهب إليهم أو لنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها!.

أرسلت لي الملكة هدية لا تنسى. جاءني رأس الوزير منفصلاً، وقد كُتب على جبينه: «أرجو أن نفترق». قيل لي: إن السبب الرئيس لهذا الرجاء كان قد كتب على جسد الوزير.. مضيت أبحث عن الجسد في أحراش المآسي، وفي أحشاء الصمت الذي تسترت خلفه خديجة.. وكان الجسد قد اختفى!!. قررت العودة إلى أسوار القلعة لأناشد الملكة أن تجيب عن السؤال..

كانت الملكة قد تحصنت وراء جدران التأبين، رفضت الكلام، رفضت التصريح، تمنعت، وحشدت الجيوش من أمامها. وبقي السؤال خنجرًا يرفض الرحيل، يطعنني كلما حزمت أمتعة الأفكار ونويت الذهاب إلى حدائق النسيان... «خديجة، لماذا تتركيني؟».

نقلة أخيرة:

«كش ملك».. كان هدف الملكة حينئذ أن تقضي على حياتي. جاءني صوتها عبر أسلاك الهاتف ساخرًا: ..«أدعوك لزفافي من..».

والسؤال؟. السؤال يا خديجة. موتٌ يرقص داخلي، جنون يشوي انتظاري، صخبٌ يصارع الرحيل بلا إجابة. أجيبي السؤال.. «كش ملك»..

سقطت أدمع الملك، حاول التقدم نحوك، فانزلقت قدماه في بحيرة الدمع، ولكنه لم يغرق، ولم يمت على يديك. بدأ يحشد الجيوش، يلملم الكتائب، ينسج الخطط، قرر أن يغتال أول جنود الهزيمة، وأتى يبحث عن جسد الوزير، وها هو ذا قد وجده، قضى على دفقة الشوق. مزق أفكار الهزائم. أعلن وقد مزق حلم الطفولة.. «كش، ماتت خديجة».



مراجعة: مصطفى الغديري
وجدة - المغرب

ظل هذا الكتاب حبيس مكتبات بعض المحققين والدارسين في المغرب وخارجه مدة تزيد على أربعة عقود من الزمن، استثمره بعضهم في الاستعانة به في تحقيق بعض النصوص الشعرية، أو الإشارة إلى بعض تراجم أدباء الأندلس(١)، لكن الكل تهيب من الإقدام على تحقيقه ونشره لعراقيل كثيرة، منها: أن الكتاب لم يصل إلينا إلا في نسخة مخطوطة يتيمة، وهي كثيرة التصحيف والتحريف، فضلاً عن ذلك أن كاتبها ممن لا يتقن النسخ، إذ نجده يسقط في كثير من الأخطاء.. وهي كلها عراقيل حالت دون إخراج الكتاب إلى الوجود، مع أن هذه المخطوطة كانت بيد الشيوخ الذين تمرسوا بتحقيق النصوص الأدبية الأندلسية والمغربية، من أمثال العلماء الأجلاء: الشيخ محمد المنوني، والأستاذ محمد بن تاويت التطواني، والشيخ محمد إبراهيم الكتاني الفاسي - تغمدهم الله برحمته الواسعة - والدكتور عبدالسلام الهراس، والدكتور محمد بن شريفة، والدكتور إحسان عباس، والفقيه محمد بو خبزة الحسني، بالإضافة إلى مستعربين إسبان. ولكل هؤلاء، حسب علمي، محاولات في قراءة هذه المخطوطة وتحقيقها منذ سنين، ولكن لم يخرجوا نصوصها إلى الوجود للأسباب التي ذكرناها؛ إلى أن قيض الله لهذه المهمة باحثاً جريئاً تمرس بالمغامرة العلمية والبحث في حقل الدراسات المغربية والأندلسية(٢)، وهو الدكتور عبدالله المرابط الترغي الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبدالملك السعدي بتطوان، فأخرج هذا الكتاب في حلة سيراء، تحقيقاً وتعليقاً وضبطاً وتقديماً، لتضفي عليه دار الغرب الإسلامي ثوباً قشيباً آخر في طباعته وتجليده وإخراجه.

والكتاب في أصله يمثل تكملة لكتاب ابن عسكر المالقي - خال المؤلف - الموسوم بـ «الإكمال والإتمام، في صلة الإعلام، بمحاسن الأعلام، من أهل مالقة الكرام»، أو «مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار، وتقييد ما لهم من المناقب والآثار». فلما مات ابن عسكر قرر حفيده هذا إتمامه بقسم آخر، مصرحاً بذلك في ديباجة هذا القسم بقوله: «كتاب جمع فيه بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائهم مما ابتدأ تأليفه الفقيه المتفنن محمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني المشهور بابن عسكر. وقد كمله ابن أخته محمد بن محمد بن علي بن خميس بعد أن عاجلته منيته»(٣).



أعلام مالقة
تأليف
أبي عبدالله بن عسكر
وأبي بكر بن خميس
تقديم وتخريج وتعليق
الدكتور عبدالله المرابط الترغي
دار الغرب الإسلامي
ودار الأمان للنشر والتوزيع
بيروت: ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

أما محتواه فقد لخصه في قوله: «وجمع في هذا الكتاب من سكن مالقة ودخلها أو اجتاز عليها، وجملاً من أخبارهم وأدبهم ومحاسنهم ومراسلاتهم وبلاغتهم، وذكر من أخذوا عنه من فقهاء الأندلس وغيرهم»(٤).

ولعل في هذه الإشارة الوجيزة تلخيصاً لمحتواه ومضمونه.

والقسم الذي وصل إلينا تبتدئ تراجمه بحرف الميم إلى غاية حرف الياء بحسب الترتيب المغربي والأندلسي لحروف الهجاء (م - ن - ص - ض - ع - غ - ف - ق - س - ش - هـ - و - ي.)؛ معنى هذا أن تراجم ابن خميس غطت ما يقرب من نصف حروف الهجاء، بينما غطى قسم خاله الذي ما يزال محجوباً عنا ما يزيد على هذا العدد؛ ابتداءً من حرف الألف إلى غاية حرف اللام (ا - ب - ت - ث - ج - ح - خ - د - ذ - ر - ز - ط - ك - ل)، وهو ما يمثل نظير القسم الذي وصل إلينا أو أكثر.

أما أهمية الكتاب الذي وصل إلينا فقد عبر المحقق عنها بقوله: «فهو يسد ثغرة كبيرة في تاريخ الأندلس وأدبه في التراث العربي، فيختص بما أنتجه رجال مالقة من علم وأدب، وما ساهموا به من جهتهم في تجلية

الصورة الثقافية العامة والخاصة في الأندلس. ولم يكن غيره ليسد ذلك مادام ينفرد بعدد من نصوص الأدب التي ارتبطت بأصحاب هذه التراجم شعراً ونثراً»(٥).

وتزكية لما قاله المحقق أؤكد ذلك بأن كثيراً من النصوص الأدبية التي تضمنها المؤلف لا نجدها في المصادر التي وصلت إلينا حتى الساعة، بالإضافة إلى غناه الأدبي؛ إذ يضم بين دفتيه اثنتين وسبعين ومئة ترجمة لرجال مالقة أو ممن عاش فيها أو زارها من الأدباء والعلماء والفقهاء في مختلف الأعصر السياسية بالأندلس، فأقدمها ترجمة عبد الأعلى بن موسى بن نصير ابن أول وال على الأندلس زمن فتحها أواخر القرن الأول الهجري(٦)، وآخرها ترجمة أبي عبدالله محمد بن عيسى بن مع النصر المومناني المقتول سنة ثمان وثلاثين وسبعمئة للهجرة(٧). بذلك يكون قد غطى الأعصر السياسية الأندلسية كافة إلى حدود عصر المؤلف.

أما مادته الأدبية فهي غزيرة؛ إذ يضم ثماني وثمانين وأربعمئة قطعة شعرية، بين مطولة ومقطوعة ومقطعة، عددها خمسة ومئتان وثلاثة آلاف بيت شعري، وهو ما يمثل ديواناً ضخماً لشاعر مكثر من المشاهير في ميدان القريض، بالإضافة إلى نصوص نثرية مهمة وكثيرة.

والحق أن متصفح الكتاب لا يملك إلا أن يثمن هذا العمل، ويقدر ما بذله المحقق من جهد في قراءة النصوص وضبطها وتوثيقها وتخريجها وترميم المفقود منها، سواء بالعودة إلى المصادر التي نقلت عن أصل الكتاب أو التي نقل منها مؤلف الكتاب، أم تلك التي اجتهد في ترميمها بقراءته التي كانت موفقة في أكثر الأحيان(٨) على الرغم من الصعوبات التي واجهته - كما أشرت من قبل وأشار المحقق في تقديمه - مستفيداً مما يقرب من مئة مصدر ومرجع من أمهات كتب الأدب والتراجم التي اهتمت بتراث الغرب الإسلامي.

فجاء عمله جيداً تتضح جودته في أقسام الكتاب كافة، إذ قدمه بمقدمة مركزة ومفيدة، خصها بسبعين صفحة عرف فيها بالمؤلفين: ابن عسكر، وابن خميس وبمضامين الكتاب، ومنهج صاحبه وخطة عمله وجهود السابقين في قراءته، والصعوبات التي واجهته في تحقيقه على مدى عقدين من الزمن(٩)، كما خص المتن المحقق بست وثلاثمئة صفحة، ثم ذيله بمجموعة من الفهارس؛ وهي فهرس التراجم، وفهرس الأعلام، ففهرس الأماكن، وفهرس الكتب والرسائل الواردة في المتن، ثم فهرس القوافي، وفهرس المصادر والمراجع في إحدى وخمسين صفحة، كما أن المحقق ضبط النص ضبطاً علمياً رفيعاً بشكله كل كلماته والإحالات الكثيرة التي خرج فيها النصوص والتراجم، ووضح فيها اجتهاده في قراءة كثير من الكلمات والعبارات، وهو عمل يدل على إخلاصه، وبذل جهد عظيم، وإنفاق قدر كبير من وقته مدة اشتغاله في هذا الكتاب.

ومن تواضع المحقق وأمانته العلمية أنه صرح في مقدمة عمله هذا باستفادته من جهود من سبقه من المحققين الذين حاولوا تحقيق الكتاب من أمثال العالمين الجليلين الشيخ محمد المنوني، والأستاذ محمد بن تاويت التطواني - تغمدهما الله برحمته، وأسكنهما فسيح جناته لما قدما من أفضال للعلم والعلماء في حقل تحقيق التراث ودراسته - والفقيه محمد بو خبزة الحسني، وهو تواضع أضفى على عمله هذا مزيداً من التقدير والإكبار.

وفي ختام هذه الكلمة المختصرة لا نملك إلا أن نهنئ الدكتور عبدالله المرابط الترغي على هذا العمل الذي يضيف لبنة أخرى إلى لبنات صرح تراث أمتنا. كتب الله له جزاء هذا العمل في صفحته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المراجع والهوامش

١. ومن الذين استفادوا منه في تحقيقاتهم الدكتور إحسان عباس في كثير من تحقيقاته نصوص الأدب الأندلسي (كما هو واضح في إحالاته بكتاب «نفح الطيب» للمقري، و«الذخيرة» لابن بسام واستدراك كثير من أشعار الرصافي البلنسي...) وكذلك الدكتور محمد بن شريفة في مختلف الكتب التي حققها «أخص منها بالذكر كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبدالملك المراكشي»، والعلامة المرحوم محمد الفاسي، وقد كتبت عنه مقالاً في مجلة المناهل المغربية عدد ١٣، عام ١٩٧٨م، والدكتور إبراهيم بن مراد التونسي في تحقيقه كتاب «مختارات من الشعر المغربي والأندلسي»، والدكتور حسن عبد الكريم الوراكلي في كتابه «ياقوتة الأندلس»، والدكتور عبدالحميد عبدالله الهرامة في كتابه «القصيدة الأندلسية في القرن الثامن الهجري»، وكاتب هذه المقالة في جمع شعر ابن مرج الكحل وتوثيقه المنشور بمجلة كلية الآداب بجامعة محمد الأول بوجدة، عدد:٥، عام ١٩٩٥م، وغيرهم... وللأمانة أذكر أن الزميل الدكتور صلاح جرار من الأردن الشقيق كان قد أخبرني منذ أربع سنوات أنه على وشك الفروغ من تحقيق هذا الكتاب، ولا علم لي بمصير عمله هذا.

٢. خير ما استشهد به على هذه المغامرة العلمية الموفقة كتابه القيم «فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري» منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبدالملك السعدي بتطوان ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، وهو في أصله أطروحة جامعية هيأها بكلية الآداب، ظهر المهراز، بجامعة محمد بن عبدالله بفاس تحت إشراف أستاذنا الجليل الدكتور عبدالسلام الهراس عام ١٩٨٣م.

٣. الورقة الأولى من المخطوط، ص:٧٣ من الكتاب المحقق.

٤. نفسه.

٥. مقدمة المحقق ص:٧.

٦. رقم الترجمة: ١٠٢، ص٢٦٢، ٢٦٣.

٧. رقم الترجمة:٥٢، ص١٩٢، ١٩٣.

٨. ولنا عودة إلى إبداء بعض الملحوظات بعد الانتهاء من قراءة متأنية في نصوص الكتاب، لأن المجال لا يتسع لذلك، علماً أن صاحب هذه المقالة كان قد قطع شوطاً بعيداً في محاولة تحقيقه، ولم يتوقف عن ذلك إلا حين أخبره المحقق بانتهائه من قراءته وتحقيقه في «ندوةالتراث الأندلسي بين الإبداع والاتباع» التي جمعتهما بمدينة شفشاون أيام ٢٥، و٢٦، و٢٧ من مايو/أيار عام ١٩٩٤م، وكان المحقق قد شارك في الندوة بعرض يتعلق بالكتاب الذي نحن بصدد عرضه تحت عنوان «آفاق العمل الأدبي واتجاهاته في كتاب أعلام مالقة لابن خميس».

٩. وهو ما صرح به المحقق في مقدمة الكتاب، ص:٥٥.

من يدفع الثمن؟

الإطار الثقافي الاجتماعي للأزمة البيئية

مراجعة: محمد حيان الحافظ
الرياض - السعودية

من يدفع الثمن؟
الإطار الثقافي الاجتماعي
للأزمة البيئية
تحرير:
باربرا روز جونستون
ترجمة: صادق إبراهيم عودة
مراجعة: د. عودة الجيوسي
عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع
ط ١، ١٩٩٨م

اقترنت الثورة الصناعية التي ظهرت في العالم الغربي في القرن السابع عشر بتزايد الطلب على الموارد الطبيعية لتلبية احتياجات التصنيع، وخصوصاً من إمدادات الطاقة الأحفورية، والمواد الخام الأولية. وبمرور الوقت، وازدياد حدة التنافس الاقتصادي بين الشركات والدول، تزايدت وتيرة استنزاف موارد الطبيعة، على نحو ما نرى من انحسار رقعة الغابات، وانخفاض زحف الصحراء، وتلوث التربة والمياه والهواء، بل والغلاف الجوي نتيجة للنشاطات الفضائية المختلفة والتجارب الصاروخية والنووية.

الاستغلال السيئ لموارد الطبيعة

أدت السياسات الحكومية الجائرة التي تتسم بالاستغلال الجشع لموارد الطبيعة دون العمل على إنمائها، إلى تدهور الأوضاع المعيشية والصحية لكثير من التجمعات السكانية التي مازالت تعتمد في حياتها على الطبيعة بشكل مباشر. ومن هؤلاء: الأقليات، والشعوب المحلية الأصلية، والفقراء. وقد تعرضت حقوق هؤلاء الضعفاء في الرعاية الصحية، وحماية الموارد والبيئة للانتهاك بصورة متكررة ومنتظمة. ودرجت الحكومات على تسويغ التدابير الظالمة التي اتخذت ضد هؤلاء باسم الأمن الوطني، أو المصالح الاقتصادية الحيوية، أو التنمية الاقتصادية.

وكتاب «من يدفع الثمن؟» يسلط الأضواء على هذه المظالم الناتجة من التعدي على البيئة؛ ومن ثم فهو يضيف بعداً جديداً إلى قضية حقوق الإنسان، ألا وهو البعد البيئي، وهو ما غفل عنه كثير من المواثيق والمحافل الدولية. وفي استقائه لمادته من دراسة لجمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية حول حقوق الإنسان والبيئة، يبرز العواقب الوخيمة للسياسات الاقتصادية الحكومية في عدد من مناطق العالم على التوازن البيئي ورفاهية السكان وأمنهم. وقد ساهم في إعداد هذا الكتاب القيم فريق بحث مؤلف من ١٧ شخصاً، وتم تعزيز الأفكار المطروحة بالكتاب بدراسات حالات لكل من الصين وروسيا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة وكندا وإفريقيا وجنوب المحيط الهادي.

قامت بتحرير الكتاب باربرا روز جونستون وهي عالمة متخصصة في الأنثروبولوجيا البيئية وباحثة مشاركة في مركز الدراسات البيئية السياسية في سانتا كروز بكاليفورنيا. جاء الكتاب في ٣١٠ صفحات، ويتألف من ستة أجزاء.

حقوق الإنسان والأزمة البيئية

في الجزء الأول «حقوق الإنسان والأزمة البيئية» يناقش المؤلف فيه الآثار السلبية لتآكل البيئة على مستوى معيشة الإنسان، ويسوق مثالاً لذلك الاستخدام المكثف للمبيدات الكيماوية في الولايات المتحدة في مجال الزراعة؛ وذلك للقضاء على الآفات. وقد أدى هذا إلى إصابة العمال الزراعيين وكذلك سكان المناطق المحيطة بالمزروعات (وخاصة الأطفال) والمستهلكين بالتسمم. وتعاني الأقطار النامية التي تمثل ٢٠٪ من استهلاك المبيدات في العالم من ٥٠٪ من حالات التسمم و ٩٠٪ من الوفيات التي يبلغ عنها رسمياً بأنها ذات علاقة بهذه المشكلات. وهكذا، يكون ثمن ثقافتنا الاستهلاكية هو التدهور البيئي، وانحطاط الصحة البشرية، وهو ما يؤذن - بمرور الوقت - بانهيار حضاري مروع. لأن تدهور البيئة معناه تدهور المجال الحيوي المادي الذي يقوم بدعم البشر وأشكال الحياة الأخرى على كوكبنا في محاولته للبقاء على قيد الحياة والازدهار. ووفقاً للمؤلف، فإنه يمكن تفسير ظهور عدد من المجتمعات الغابرة وارتقائها ثم انحطاطها في مجالها الحيوي، في قدرتها على تكييف البيئة اللاصقة لها مباشرة، ثم عجزها - فيما - بعد عن الحيلولة دون التدهور البيئي المتفاقم.

ويشير المؤلف إلى أن دراسة السياق الثقافي الاجتماعي للتدهور البيئي تفضي إلى الاستنتاج الواضح الذي مضمونه أنه، على الرغم من الهيكليات الدولية والقطرية الرامية إلى إقامة صرح حقوق ثابتة لجميع الناس، يمر بعض هؤلاء الناس بتجارب أكثر أذى من تلك التي يمر بها آخرون. وفي عدة حالات تكون هذه التجربة التباينية نتيجة لعمل قامت به الحكومة أو سمحت به.

إن التدهور البيئي والتحيف على حقوق الإنسان أمران مترابطان، ومع ذلك، فإنه، وفي إطار المواثيق والتشريعات والخطابات الدولية والقطرية، يتم

عرض قضايا حقوق الإنسان والقضايا البيئية على أنهما موضوعان متمايزان منفصلان الواحد عن الآخر، حيث يطرح موضوع احترام حقوق الإنسان في سياق حجج أخلاقية، ويتم التركيز عادة على الحقوق السياسية؛ أما قضايا البيئة وما تتعرض له من جور واستنزاف جشع، فإنها تطرح في سياق اقتصادي، ولا تحظى بالدرجة نفسها من الاستنكار والإدانة التي يحظى بها انتهاك حقوق الإنسان السياسية. كما تقاس تكلفة تدهور البيئة وفق حسابات اقتصادية، مع تجاهل لانتكاساتها الاجتماعية.

ويذكر المؤلف أنه كثيراً ما يحدث انتهاك حقوق الإنسان نتيجة لمحاولات السيطرة على الأرض، والقوى العاملة، وموارد الشعوب الواقعة على الأطراف أو الحدود السياسية والجغرافية.

ويوضح المؤلف أن التعدي الانتقائي على الآخرين، واستنزاف موارد البيئة بشكل يضر بالسكان في المناطق المستهدفة، ينطلقان من منطلقات عنصرية ظالمة، إذ تنظر بعض الحكومات والشركات المتعددة الجنسية، ورجال الأعمال، وعصابات المافيا إلى سكان بعض المناطق الغنية بالموارد الطبيعية على أنهم رعاع أو بدو، وأنهم أدنى مكانة اجتماعية وعرقية، ومن ثم تستبيح مواردهم دون تعويض مناسب، بل ودون توعيتهم بمضار التلوث البيئي، ودون أن تمد إليهم مظلة الرعاية الصحية والتأمين الصحي. بل إن الدولة قد تتجاهل قوانينها تحت ستار الأمن القومي أو المصلحة الوطنية. ولعل المثال الصارخ لذلك هو قبول بعض حكومات الدول الإفريقية رشوة من بعض الشركات الغربية مقابل السماح لها بدفن نفاياتها في أراضي هذه الدول.

تنظر بعض الحكومات والشركات المتعددة الجنسية، ورجال الأعمال، وعصابات المافيا إلى سكان بعض المناطق الغنية بالموارد الطبيعية على أنهم رعاع أو بدو، وأنهم أدنى مكانة اجتماعية وعرقية، ومن ثم تستبيح مواردهم دون تعويض مناسب، بل ودون توعيتهم بمضار التلوث البيئي

الصراعات حول الموارد الطبيعية

في الجزء الثاني «حقوق السكان المحليين الأصليين» يتناول المؤلف مسألة الصراعات بين الدول والقوميات حول الموارد الطبيعية. ففي العالم حالياً أكثر من ١٩٠ دولة تضم ضمن حدودها ما يزيد على ٦٠٠٠ قومية. وحتى الآن لم تنجح دول كثيرة في استيعاب القوميات التي في كنفها. فالدولة الحديثة (وخاصة في العالم الثالث) يتم حكمها على شكل إمبراطوريات. وترفض حتى الاعتراف بالتنوع الثقافي فيها، وهو ما أدى إلى بروز الروح القومية والصراعات العرقية والطائفية على نحو ما نرى في تركيا، والسودان، وسيريلانكا، وأفغانستان، والفلبين.

ووفقاً للمؤلف، فإن الدول تغولت بشكل أدى إلى تقزم القوميات بل واندثار بعضها. فبرامج التنمية التي اتبعتها هذه الدول قد أدت إلى استنزاف موارد السكان الأصليين، وتم تطوير مجموعة كبرى من القوانين الرامية إلى إنكار حق الأمم في الموارد الطبيعية عندما ترى الدولة أنها ذات قيمة بالنسبة إليها. وعلى سبيل المثال، خسرت الأمم الهندية في الأمريكتين أراضيها التي ذهبت إلى المستعمرين الذين يتمتعون برعاية الدولة. وتذهب الإيرادات المتحققة من بيع الموارد الطبيعية (كالمعادن والأخشاب والأسماك) إلى خزانة الدولة.

أما ما يسمى بـ (الدول المتقدمة) فإنها ضالعة أيضاً في هذا الظلم؛ إذ إنها شاركت في إيجاد نظم حكم شديدة المركزية لكي تضمن للدول الصناعية المتقدمة استمرار استغلال البلدان النامية. وتساعد الاستثمارات والمساعدات التي تقدمها أمريكا الشمالية واليابان والاتحاد الأوربي، إضافة إلى الضغوط السياسية في الإبقاء على قاعدة السلطة للنخب الحاكمة. وتدعم المعونات الأجنبية والعسكرية الدكتاتوريات ودول الحزب الواحد التي تسيطر على العالم اليوم، وتوفر التدفق (الحر) للموارد التي تحتاج إليها الشركات المتعددة الجنسيات لإشباع شهية ما يسمى بالعالم المتطور، المتشوقة باستمرار إلى السلع الاستهلاكية.

ووفقاً للمولف، فإن التقدم التقني الحديث قد سهل عملية الاستنزاف السريع للموارد الطبيعية؛ فقد أتاحت الأقمار الصناعية وعمليات الفحص والتنقيب باستخدام الأشعة تحت الحمراء، والمروحيات، والمناشير الآلية ذات السلاسل والجرافات المجال للدول والشركات لاختراق أقصى المناطق على سطح هذا الكوكب بحثاً عن الموارد.

ويسوق المولف عدة أمثلة للتعديات الحكومية على حقوق السكان الأصليين، نذكر منها وضع الأشانتكا (كامبا) في شرق بيرو، وهم قوم ينحدرون من شعوب عاشت حياة ناجحة في منطقة أوكايالي العليا طوال ما يربو على ألفي عام. وبينما كان يستفاد بصورة مكثفة من مواطنهم التقليدية من أجل الزراعة البديلة والصيد وإنتاج الأعلاف، فإن النظام البيئي للغابات المطيرة الإقليمية لم يتعرض للتهديد من وجود الأشانتكا الطويل الأمد، بيد أن الوضع قد تغير الآن تماماً بعد أن جردت سياسات التنمية الوطنية التي اتبعتها حكومة بيرو منطقة الأشانتكا من مواردها الطبيعية واستغلالها بإقامة مشروعات تنموية فيها ممولة من البنك الدولي. وقد تركت هذه المشروعات السكان الأصليين إما دون أراض وإما بقطع أراض مجزأة لا تكفي لنشاطات كسب الرزق التقليدية، ولا لأغراض الزراعة التجارية الطويلة الأمد. ولم تؤد احتجاجات المنظمات المحلية للسكان الأصليين، وجماعات الحقوق الدينية، وحقوق الإنسان، وعلماء الأنثروبولوجيا سوى إلى إصلاحات رمزية تمثلت في صكوك تمليك لأراضي القرى، وتعيين مستشارين لتنمية المجتمع، وتقديم قروض زراعية أثقلت كاهل السكان بالديون فيما بعد.

تجاوزات بيئية

في الجزأين الثالث والرابع «باسم التنمية الوطنية»، «باسم الأمن القومي» يسوق المؤلف عدداً من التجاوزات التي تقترفها السلطات المركزية في بعض الدول بحق التجمعات العرقية باسم التنمية الوطنية، ويشمل ذلك تجريف التربة الزراعية لإقامة منشآت سكنية، وإزالة أشجار الغابات لأغراض شق الطرق أو بناء المطارات أو الزراعة. كما يشمل أيضاً إعادة توطين السكان، وإجراء تجارب على الأسلحة النووية في بعض المناطق. والمثال الأوضح الذي قدمه المؤلف بصدد هذا هو الصين الشعبية التي انبعت

سياسات منطلقة من فلسفة شيوعية ظالمة أدت إلى تدهور البيئة، وإلحاق أضرار اقتصادية وصحية فادحة بالمجموعات السكانية الأخرى خلاف الهان الذين يمثلون الأغلبية الحاكمة.

لقد أسهمت الأساليب غير المنضبطة وغير المنسقة وغير الملائمة في تقطيع أشجار الغابات في الأراضي المرتفعة - على سبيل المثال - في تعرية التربة وانجرافها وفقدان الاستقرار في المنحدرات، وازدياد الجريان المسطحي للمياه، مما أدى إلى حدوث فيضانات مدمرة في المناطق المنخفضة، وأدى ازدياد الطلب على المياه الجوفية لري محاصيل الغلال إلى تدني مناسيب المياه العذبة، وتسرب المياه المالحة إليها على محاذاة الساحل، وأدت النفايات الصناعية والزراعية إلى تلوث المياه تاركةً نحو ٦٠٪ من سكان البلاد محرومين من الوصول إلى المياه النقية الصالحة للشرب. وثبت أن تلوث الهواء والماء في الصين هو أحد الأسباب الرئيسة في تكرار الانتشار الواسع لالتهاب الكبد وأمراض الشعب الرئوية وسرطان المعدة والكبد والرئة والقولون.

وفي سنكيانغ - ذلك الإقليم الذي يعد الوطن التقليدي للأويغور المسلمين - تصر الصين على رفض منح الإقليم حكمًا ذاتيًا، بل تنحاز ضدهم لمصلحة الهان البوذيين. وقد قامت السلطات الصينية بعمليات تهجير منظمة للهان إلى سنكيانغ وتوطينهم فيها وإمدادهم بالتسهيلات التي تتيح لهم السيطرة على أراضي الإقليم على الرغم من أن الإقليم غني بموارده الطبيعية، إلا أنه يعد الآن من أفقر أقاليم الصين، حيث تستنزف الحكومة الصينية ثرواته، ولا تبقى لسكانه سوى الفتات. كما أنها دأبت على إجراء تجارب نووية في موقع بالإقليم اسمه (لوب نور)، وكذلك دفن نفاياتها الذرية فيه. ومن ثم حدث تلوث إشعاعي خطير أدى إلى ارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان في صفوف السكان. ويقدر أن أكثر من مئتي ألف أويغوري قد شوهوا أو ماتوا نتيجة لهذه النشاطات.

وظهرت مؤخرًا، بعض الأدلة المشابهة من الاتحاد السوفييتي السابق على استخدام البشر في تجارب علمية هادفة إلى تحديد الآثار القصيرة والطويلة المدى للإشعاعات الصادرة من الأسلحة النووية.

وكذلك ثبت أنه أجريت اختبارات للأسلحة النووية في المناطق المنعزلة القليلة السكان في العالم، مثل: مواطن الكرونيزيين في جزيرة كريمساس، وجزر بيكيني، وإينيوتياك، وجونس المرجانية، وعلى شعوب المورورو، والفانغوتوفا في بولينيزيا الفرنسية، وقبائل الشوشون الغربية، والبايوت الجنوبية في ولاية نيفادا، وشعوب الكازاخ، والخانتي، والمامسي في كازاخستان، والقاسم المشترك في هذه الحالات جميعًا هو استيلاء الدولة على أراضي المجموعات السكانية العرقية أو الطائفية أو الجهوية وذلك لمباشرة نشاطاتها النووية فيها باسم الأمن القومي، ودون تعويض السكان الأصليين عن هذه المصادرة، أو عما يصيبهم من أضرار صحية من جراء الإشعاع النووي.

الرد والمسؤولية

في الجزء الخامس «الرد والمسؤولية» تم عرض مقالات ودراسات تتناول نقائص الجهود المؤسسية الرامية إلى الرد على قضايا الحقوق الإنسانية والبيئية؛ فعلى الرغم من أن تقدير الآثار البيئية أضحى عنصرًا من عناصر دراسات الجدوى للمشروعات الاقتصادية، إلا أنه يؤخذ على النماذج القائمة المتعلقة بتعرف الآثار البيئية وتقويمها؛ أنها لا تعطي الجوانب البيئية حقها كما ينبغي، إذ يجري تصورها وفهمها من الجوانب الاقتصادية والسكانية والحكومية، أما الجوانب الاجتماعية والنفسية فنادرًا ما تؤخذ في الحسبان. فمثلاً، قد يمكن تقدير حجم الإيرادات السياحية المفقودة بفعل تدمير الشعاب المرجانية، ولكن كيف يمكننا قياس الآثار النفسية السيئة المترتبة على ذلك كتناقص متعة الجمهور الذي اعتاد الترويح عن نفسه بمشاهدة هذه المناظر الطبيعية الخلابة.

ثم يتطرق المؤلف إلى مخاطر المسلسل المتواصلة لاستنزاف الموارد الطبيعية دون إخلال. وأشار في ذلك إلى حقيقة خطيرة فحواها أن رأس المال البيئي قد تحول بصورة متزايدة إلى رأسمال اقتصادي منذ الثورة الصناعية حتى إن استهلاك الموارد الطبيعية اليوم صار يفوق نسب الإنتاج الحيوي (البيولوجي) الثابتة المستديمة. وهذا الوضع من شأنه ازدياد حدة الصراع مستقبلاً على الموارد الطبيعية بشكل يهدد أمن العالم.

> إن رأس المال البيئي قد تحول بصورة متزايدة إلى رأسمال اقتصادي منذ الثورة الصناعية حتى إن استهلاك الموارد الطبيعية اليوم صار يفوق نسب الإنتاج الحيوي (البيولوجي) الثابتة المستديمة

ووفقًا للمؤلف، فإن الإسراف في استخدام رأس المال البيئي لا يقف عند حد انحطاط البيئة، بل يثير أيضًا قضايا أخلاقية مهمة حول العدالة الاجتماعية والاقتصادية. ويعود شروع الحكومات الوطنية والهيئات الدولية في توجيه اهتمامها نحو قضايا التنمية المستديمة والعادلة في معظمه إلى الاعتراف بهذه الحقيقة المرة. كما أجريت بحوث على مستوى عال جدًا للتوصل إلى سبل التوفيق بين قضايا التنمية الاقتصادية مع الاحتفاظ بالتنوع الحيوي والتوازن البيئي. ومن ذلك مثلاً، البحوث المتعلقة بترشيد استهلاك الطاقة، وتطوير أبدال أخرى للطاقة الحفرية أقل تلويثًا للبيئة كالطاقة الشمسية، وطاقة الرياح، وطاقة حرارة جوف الأرض. وهناك أبحاث بشأن الإدارة المشتركة للموارد المشتركة، ولكن يؤخذ على هذه الأبحاث أنها تغفل الأبعاد الاجتماعية - الثقافية للأزمة البيئية؛ إذ يجب تبني منظور تنموي يتضمن تغيير عادات السكان ومعتقداتهم وسلوكياتهم تجاه البيئة والموارد الطبيعية، ويعمل على حل مشكلاتهم، وتحسين أوضاعهم المعيشية، ورفع مستوى وعيهم بقضايا البيئة عبر برامج إعلامية وتربوية ودينية هادفة.

مناطق التجارة الحرة الدولية

وفي ختام هذا الباب يتناول المؤلف قضايا حقوق الإنسان البيئية في مناطق التجارة الحرة. وذكر أن ٧٠٪ من التجارة العالمية تخضع لسيطرة ٥٠ شركة. وأن هذه الشركات تتحكم بـ ٨٠٪ من الاستثمارات الأجنبية و٣٠٪ من الناتج القومي الإجمالي في العالم. والملاحظ في غالبية مناطق

التجارة الحرة الدولية أن شروط العمل وظروفه تحددها الإدارة دون إفساح المجال لمفاوضة أو أية مدخلات أخرى من جانب العمال، كما أن تنظيم اتحادات مهنية مستقلة أمر مخالف للقانون. ويمر العمال في المشروعات المقامة في هذه المناطق بظروف عمل قاسية مثل سوء التهوية والإضاءة، والتعرض للتلوث الكيماوي والإشعاعي، والتعرض لحوادث العمل من حرائق وانهيارات في المباني. وفضلاً عن ذلك فإن هناك إهمالاً جسيماً لقضايا الصحة والسلامة البيئية في مناطق الصناعات التصديرية، كمنطقة التجارة الحرة التي أقامتها اتفاقية (نافتا) بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك.

ويرى المؤلف أن اتفاقيات التجارة الدولية والمساعدات التنموية تمثل فرصاً مميزة لتشجيع احترام حقوق الإنسان البيئية، ولكن الأهم من ذلك هو الأسلوب الذي تنفذ به قوانين حماية البيئة، وحماية حقوق الإنسان داخل كل قطر. كما يجب أن يكفل للعمل والمجتمع الحق في أن يعرفوا مقدماً المخاطر التي ينطوي عليها النشاط الصناعي، والحق في طلب إجراءات واقية للبيئة، والصحة البيئية والاجتماعية، والحصول على إجراءات الحماية هذه، إضافة إلى حق المراقبة.

ثمن التعديات البيئية

في الجزء السادس «من يدفع الثمن؟... استنتاجات ختامية» يعرض المؤلف خلاصة للممارسات الخاصة بانتهاك حقوق الإنسان البيئية، حيث أوضح أن الإجراءات الحكومية وتلك التي تمت بموافقة الحكومات، تسببت في الإخلال بالتوازن البيئي واستنزاف المواد - على نحو ما بينا - وأن هذه التدابير تركت بصماتها على الإنسانية أيضاً؛ إذ يدفع بعض الناس ثمناً لها أكبر مما يدفعه الآخرون. وأكثر المتضررين من هذه التعديات على البيئة هم سكان مناطق توصف بأنها «قفار» و«حدود» و«مناطق نائية» و«أدغال» وغير ذلك من مسميات يراد بها تهميش هؤلاء المنكوبين، والإيحاء بأن هذه المناطق قليلة السكان أو خالية من السكان مما يسوغ النشاطات الحكومية الجائرة فيها، والحقيقة هي أن هذه المناطق مأهولة بالفعل، وكثيراً ما تقطنها أقليات أصلية وعرقية تشتمل أنماط حياتها التقليدية على اقتصاد يقوم على الكفاف أو البقاء على قيد الحياة، ويتطلب أراضي واسعة لتمكينهم من إنتاج الغذاء بصورة دائمة.

ويشير المؤلف إلى أن الإجراءات القاسية بحق البيئة التي تتخذها الحكومات باسم الأمن القومي لا تُوَزّع أعباؤها على السكان بشكل عادل، ففي الولايات المتحدة الأمريكية أسست هذه الإجراءات على التفاوت وفقاً لقواعد عرقية.

ويتمثل الرد الاجتماعي على هذه التدابير الجائرة في ثلاثة أمور:

الأول: هو مواجهات عنيفة بين التجمعات السكانية المتضررة والحكومات، ويمكن أن نضع أيدينا على أمثلة كثيرة في العالم للحروب التي تنشأ حول الموارد، إذ إن السكان الوطنيين الأصليين وغيرهم من الجماعات المحلية تناضل في سبيل السيطرة على موارد رزقها في وجه المساعي الوطنية والمتعددة القوميات، التي كثيراً ما تعمل بالتنسيق مع النخبة المحلية، الهادفة إلى استخراج موارد حيوية أو إستراتيجية.

ففي تشياباس بالمكسيك حدث تمرد عنيف رداً على قيام الحكومة بإزالة أشجار الغابات والتنقيب عن النفط والغاز. وفي الوقت الذي كانت تستغل فيه الموارد، كان يتم دفع أعداد كبيرة من الفلاحين الفقراء إلى الغابات الاستوائية. وقام هؤلاء بتقطيع أشجار الغابات، مما أدى إلى تدهور الأراضي وتدني إنتاجها، ومع تفاقم الموقف، قام متمردو زاباتستا - ومعظمهم فلاحون معدمون - بانتفاضة مسلحة في كانون الثاني/يناير عام ١٩٩٤م احتجاجاً على قرار الحكومة بالتخلي عن التزام تاريخي بإصلاح الأراضي، وقد أدى ذلك إلى مصادمات عنيفة مع القوات الحكومية استمرت عدة سنوات لاحقة.

الثاني: هو الهجرة التي تحدث نتيجة كوارث طبيعية أو مشروعات حكومية جائرة، فمثلاً، أرغمت المجاعة في إفريقية عام ١٩٩٢م عشرات الملايين من الناس على الانتقال من أماكن إقامتهم، كما تحول ١٠ - ٢٠ مليوناً من الناس إلى لاجئين في الهند وحدها بسبب مشروعات التنمية.

والملاحظ أن اللاجئين يمرون بظروف معيشية قاسية. فهم كثيراً ما يحرمون من حقوق الإنسان الأساسية كحرية التنقل داخل البلد المضيف، كما لا تتاح لهم فرص العمل بمثل ما هو متاح للمواطنين.

> إن ٧٠٪ من التجارة العالمية تخضع لسيطرة ٥٠ شركة، وإن هذه الشركات تتحكم بـ ٨٠٪ من الاستثمارات الأجنبية و٣٠٪ من الناتج القومي الإجمالي في العالم

الثالث: هو ظهور حركات أنصار البيئة المطالبة بالعدالة الاجتماعية، حيث تقاوم هذه الحركات تعديات الدولة على البيئة، كما أنها تقاوم خطط الدولة الرامية إلى التضحية بموارد القلة ووسائل معيشتها خدمة (للمصلحة العامة) مثل مشروعات الطاقة أو تنمية موارد المياه على نطاق واسع، كما تعمل هذه الحركات على تعديل أو إيقاف النشاط الصناعي الذي يؤثر سلباً في صحة المجتمع والعمال، وتعمل أيضاً على إعاقة إغراق النفايات في المجاري المائية، وتعترض سبيل الدول الكبرى التي تحاول إجراء تجارب نووية في قاع المحيطات.

وفي ختام الكتاب، يوصي المؤلف بوجوب أن تكون هناك آليات دولية ووطنية لمساءلة المنفذين المؤسسيين، من حكومات وشركات متعددة الجنسيات، ووكالات إقراض متعددة الأطراف، ومؤسسات وأفراد، حول أدوارهم في التحريض على انتهاك حقوق الإنسان البيئية، وينبه على الصلة الوثيقة بين جودة البيئة والعدالة الاجتماعية، فالعمل على إشباع احتياجات الإنسان مع تجاهل السياق البيئي لا يعد حلاً جوهرياً، بل ربما يعمل على بداية أو إدامة حلقة من الانتهاكات لحقوق الإنسان.

ويرى المؤلف وجوب أن تتاح للمواطنين والجماعات إمكانية الحصول على معلومات عن المشروعات التنموية، الصناعية، والزراعية، وغيرها، وتقويمها، والمشاركة الحرة فيها، فالوعي البيئي أضحى ضرورة حياتية وأمنية.

ويؤكد المؤلف ضرورة تحقيق عدالة اجتماعية بيئية توزع الأعباء والمسؤوليات بالعدل، وتعوض الطوائف التي أصابها ضرر من برامج التنمية.



ردًا على أحمد الرمادي:

ردًا على الشيخ أبي عبدالرحمن الظاهري

النص العلمي لا يجوز عليه المبالغة

كلام الله والتهويم الصوفي

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

الرياض - السعودية

كتب الأخ في الله أحمد الرمادي من القاهرة بمجلة الفيصل عدد ٢٧٩ ص ١٢١ - ١٢٢ ردًا على بحثي «لا مفاضلة بين قرآنين(١)»، وجعل رده بعنوان «النص العلمي لا يجوز عليه المبالغة».

قال أبو عبدالرحمن: لو نشر رده على أنه بحث مستقل ليس ردًا عليّ: لكان أعذر له وإن كان مليئًا بضلالات أهل التصوف.. وإنما قلت: ولم يجعله ردًا عليّ.. لأن مقالته لا علاقة لها ببحثي لا من قريب ولا من بعيد؛ فكل ما فيها إنشاء بحث من عنده لا يتعلق بحرف واحد مما كتبته، ثم إنه كذب عليّ وقوّلني ما لم أقل بعنوان بارز يُضلّل به القارئ بدعوى أنني قلت في كتاب الله: هذا مبالغة!!.. وهذا لا تجده في بحثي ألبتة.. وبعد هذا فمقالته مشحونة بافتراء على الله لا يُفهم من لغة العرب التي نزل بها القرآن، ولا يفهم من كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا من كلام الصحابة وتابعيهم بإحسان رضي الله عنهم، ولا تنتجه ضرورة عقل أو حس، وإنما هو من جنس دعاوى الصوفية والباطنية التي لا تنضبط.. وقد توعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من فسّر كلام الله برأيه، وللأسف فهذا تفسير بدعاوى لا تستند إلى ضرورة فكر، وذلك أخطر من التفسير بالرأي؛ فعليه أن يندم على هذا الهذيان المفترى، ويرجع إلى ربه بتوبة نصوح، ويعزم على عدم العودة إلى مثل هذا التلاعب.. ومن فسر كلام الله بغير لغة العرب، ومصطلحات الشرع، والمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد ضل ضلالاً مبينًا؛ لأنه لا سبيل إلى فهم مراد الله بغير لغة العرب، وبيان الرسول صلى الله عليه وسلم.. فإن احتاج الأمر إلى جمع بين النصوص، واستنباط معانٍ خفية: فلابد من توسط العقل في الفهم بضروراته الفطرية والمكتسبة؛ لأن الله سبحانه جعل العقل شرط التكليف، وخاطب العقول، وخاطب القلوب التي تعقد على المراد - نيةً، وعقيدة - بعد أن يمدها العقل بضروراته.. والله سبحانه امتحن العقول والحواس بالنظر في الكون، وبالنظر في الشرع استنباطًا.. وامتحن القلب (اللب) لبوجه المسلوك بما أفعمته آيات الله من براهين.

قال أبو عبدالرحمن: ولقد لخصت ما جاء في بحثه في العناصر التالية:

١- أن ملكًا تقال حالة التعبير عن الأمر الذي لا يرد عليه التغيُّر، وأن مالكًا لما يرد عليه التغير.. والملك القدوس مع الإطلاق فإن ملك الله لا يتغير، وكذلك الملك الحق؛ فالحق لا يتغير.

٢- ملك الناس فالناس في خلقهم هم هم، ثم استشهد بالآية من سورة لقمان.

٣- ملك يوم الدين هي ملك، وليست مالك.

٤- مالك الملك ملك الله.

٥- الفرق بين رحمان ورحيم لا يفسر على أساس المبالغة.

٦- الرحمان خالق المنظومة العلمية.. إلخ.

٧- الرحيم من ينتهي من المنظومة إلى الموجودات.

٨- في الكيمياء والفيزياء لا تجوز المبالغة.

٩- إسناد الكلمة من القرآن إلى كامل منظومة القرآن.

١٠- العلم لا يقاس بمقاييس النقد الأدبي.

١١- العلم ينتهي إلى تقويم القيمة.

وهناك عظائم لابد أن أنقلها نصًا، ثم أقف عندها وقفات؛ حتى لا يظن أحد أنني تصرفت في كلامه تصرفًا يخرجه عن معناه.

قال أبو عبد الرحمن: أما المبالغة التي افتراها عليّ فلم ترد في مقالتي ألبتة(٢)، بل قلت: «بل الرحمان لبلوغ الغاية في اتصاف الخالق بالرحمة، والرحيم لبلوغ الغاية في حصول الرحمة من الخالق لمن خصهم بالرحمة من المؤمنين».

ولم يكن تعبيري ببلوغ الغاية - بدل المبالغة - عبثًا؛ فقد كتبت كثيرًا في مناسبات عديدة عن المنع من استعمال المبالغة في كلام الله سبحانه، وقلت في أحد كتبي في معرض مناقشة الزمخشري في تعبيره عن خطاب الله بالمبالغة، وإيضاح أن المراد بلوغ الغاية في البيان: «ليس في كلام ربنا مبالغات بل هو سبحانه يقول الحق، وإنما في كلام ربنا بلوغ الغاية في البيان، أو إبلاغ ما يكفي من البيان».

وعبّر الزمخشري بالمبالغات على أسلوب وعرف العلماء في التعبير عن أساليب الادعاء بالمبالغة.

قال أبو عبدالرحمن: ويجب أن نفرق بين ما يصدر عن الله، وما يصدر عن البشر؛ فنقول: كلمة رحيم في حق زيد من البشر: مبالغة؛ لأنها ادعاء في حقه، وهو لن يبلغ الرحمة لكل شيئ.. وهي في حق الله بلوغ غاية لا مبالغة.. إلخ»(٣).

قال أبو عبدالرحمن: ووصف الله عبده ورسوله محمدًا صلى الله عليه

وسلم آخر سورة التوبة بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم لبلوغ الغاية البشرية.

وأما قول الرمادي: «الملك تقال عن أمر لا يرد عليه التغير»: فذلك هذرٌ لا يستطيع أن يسنده إلى كلام العرب بأي وجه يعقل، وهذه لغة العرب بمتنها وأصولها منذ العين للخليل إلى تاج العروس للزبيدي إلى متون اللغة وأصولها للمعاصرين؛ فهذا إذا فسر به كلام شاعر كان افتراء على لغة العرب وعلى الشاعر، وهو ها هنا افتراء(٤) على الله وعلى اللغة.. وقل مثل ذلك عن تفسيره المالك.

وقال: «الملك القدوس مع الإطلاق فإن ملك لا يتغير»!!.

قال أبو عبدالرحمن: لا شيئ يخرج عن ملك الله، أما أن ملكه سبحانه لا يتغير فكلام فاسد، بل ملك الله مخلوقاته، ومخلوقاته هي موضع التغير والصيرورة.. ولا معنى لقوله: «مع الإطلاق»!!.. أما فعله سبحانه فصفة له إذا أطلق الملك بهذا المعنى. وقال: «الملك الحق كذلك الحق لا يتغير».

قال أبو عبدالرحمن: ليس مجال الكلام عن الحق، بل الكلام عن الملك - بضم الميم، وسكون اللام -.. والملك اسم ووصف لله سبحانه، والحق اسم ووصف لله سبحانه، وهو سبحانه لا يتغير ببراهين الربوبية والكمال لا بمدلول ملك؛ فليس في لغة العرب ما يعطي هذه المادة هذا المعنى.

وقال: «ملك الناس.. الناس في خلقهم هم هم.. ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [سورة لقمان/٢٨]».

قال أبو عبدالرحمن: ما علاقة هذا الكلام ببحثي عن المنع من الترجيح بين قراءتين ثابتتين، وما علاقة البعث بتفسير ملك الناس، وأي إفادة في قوله: «هم هم»، وما علاقة ذلك بتفسير ملك الناس؟!.. إنه شهوة كلام فحسب.

وقال: «ملك يوم الدين هي ملك، وليس مالكاً؛ فالتغير في الحياة الدنيا تقوم على توالي القضاء - وهو منتظم على نظام -.. أما إذ تقوم الساعة فيقع القضاء مرة واحدة ﴿لقضي بينهم﴾ [سورة يونس/١٩].. ثم لا يكون بعد ذلك قضاء جديد - ﴿يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ [سورة الزخرف/٧٧].. ونلاحظ هنا أن يا مالك تتناسب مع قولهم هم؛ إذ يريدون الانتقال من حال إلى حال، ولكنه الثبات، المسك، الظل؛ فهو الخلود على حال واحد.

مالك الملك.. ملك الله يقوم في منظومة تبدأ في الأرض بعد السماء من كلمة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. على منظومة ربها؛ فالرب هو مربيها ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى﴾ [الشورى/١٤»].

قال أبو عبدالرحمن: هاهنا عجائب تضحك الحزين، وواجبي أمام الله - نصحاً للأمة عن هذر الصوفية - أن أقف عند النص هذه الوقفات:

الوقفة الأولى: ما دام أورد ﴿ملك يوم الدين﴾ فمن المعلوم أن الملك غير المالك؛ فتفسيره تحصيل حاصل.. ولكن هذا لا ينفي قراءة «مالك يوم الدين» الصحيحة.

الوقفة الثانية: أن التغير في مخلوقات الله هو الصفة الثبوتية قبل دنيا البشر، وخلالها، وبعدها.. وليس ذلك قاصراً على الدنيا كما قال الرمادي.. ولكنني أقول: ما علاقة هذا بتفسير قوله تعالى ﴿ملك يوم الدين﴾، وما علاقته ببحثي؟.

الوقفة الثالثة: قضاء الله في خلقه يوم القيامة يكون مرة واحدة كما قال الرمادي، ولكن ليس ذلك بإطلاق، إنما ذلك في الموقف الذي يحشر فيه الناس، وهو الأرض الجديدة التي يخلقها الله يوم القيامة، وهي الأرض المستوية التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبز الحوارى.. ثم قضاء الله لا ينتهي، فيخرج ناساً من النار إلى الجنة بعد تطهيرهم، ويقضي بقبول شفاعة من أذن له بالشفاعة، وكل يوم هو في شان، وربك فعال لما يريد.

الوقفة الرابعة: الآية من سورة يونس ليست عن يوم القيامة كما زعم الرمادي، وليست عن قضاء سيقع كما زعم الرمادي.. وإنما الآية عن قضاء منفي ولرد جوابًا لأداة (لولا)؛ فالله قضى بسابق علمه أن الناس سيختلفون، ولولا ما سبق منه سبحانه لجعلهم أمة واحدة بقضا!(٥) منه ينفي الاختلاف.. فكفى هذا التلاعب بكتاب الله.

الوقفة الخامسة: قوله: «ثم لا يكون بعد ذلك قضاء جديد»: افتراء على الله، وتعطيل لمشيأته(٦)، وحكمته، وكل يوم هو في شان، وهو فعّال لما يريد.

الوقفة السادسة: زعم أن كلمة «مالك» تناسب ثبات أهل النار!!.. قال أبو عبدالرحمن: مالك اسم لخازن جهنم عليه السلام، ولا ثبات لفعله إلا بأمر الله ومشيئته؛ فأي علاقة بين اسمه وبين خلود من يخلد في النار لولا التلاعب بكلام الله؟!.. وقد أسلفت أنه لا علاقة للمالك بالثبات والتغير في لغة العرب.

الوقفة السابعة: قوله: «المسك، والظل» كلام فضولي لا علاقة له بمعنى الخلود في النار، ولا علاقة له بتفسير محاورة مالك لأهل النار، ولا علاقة لهذا الموضوع كله ببحثي!!.

الوقفة الثامنة: زعم أن ملك الله يقوم في منظومة تبدأ في الأرض بعد السماء!!.

قال أبو عبدالرحمن: كلا، بل الملك اسم الله وصفته، وهو سبحانه الأول لا شيئ قبله، والسماوات والأرض من ملك الله الحادث، ولله مخلوقات أسبق من خلق السماوات والأرض لا يعلمها ولا يحصيها ولا يعلم أوليتها إلا هو سبحانه، وكان عرشه على الماء قبل أن يخلقهما، وقد قدر خلقهما وما فيهما قبل أن يخلقهما بخمسين ألف سنة.

الوقفة التاسعة: يقال لهذا الرمادي: ما علاقة الكلمة الطيبة التي ذكرها ربنا في سياق خاص له معناه بملك الله للسماوات والأرض، وما معنى منظومة ربها، وما علاقة الآية من سورة الشورى بذلك، وما علاقة كل هذا بما سماه رداً علي؟.. ألا ما أعظم مصيبته إن لم يتب عن مثل هذا التلاعب بكتاب الله.

وهذا نص آخر يغيظ كل مسلم؛ لما فيه من عبث بكلام الله.. قال: «إن النص العلمي - والقرآن نص علمي - لا يجوز عليه المبالغة؛ فالفرق بين رحمن ورحيم لا يمكن أن يفسر على أساس قيام مبالغة.. الرحمن هو خالق المنظومة العلمية، وهي بذاتها التي انتهت إلى المنظومة الوجودية.. ﴿ربنا وسعت كل شيئ رحمة وعلما﴾ [سورة غافر/٧]..

فالوجود بمنظومته التي هو عليها من أمر الله.. ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [سورة النحل/١].. والروح من أمر الله، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ [سورة الإسراء/٨٥].. لم يقل: إن أمر الروح من أمر ربي؛ فالله يوحد بينه وبين الروح في الأمر؛ فالله هو ذو القوة، والوجود من قوته، القوة مطلقة لا نقف لها على كنه.. أما ظاهر الوجود فهو آثار لقوة الله.. هو آلاء الله.. هو ما آل من الله، ثم يعود فيؤول إليه».

قال أبو عبدالرحمن: تعمدت تأخير الرد على هذه الزندقة الحلولية الاتحادية؛ لأنني كنت أظن أن العلماء سيدحضون هذا الإفك، ولكن أكثر

العلماء لا يقرؤون الصحف والدوريات مع أن تتبُّع ذلك من الحسبة، وها هنا عدة وقفات:

الوقفة الأولى: لم يبين هذا الرمادي معنى أن القرآن نص علمي.. فإن كان يريد العلم المادي التجريبي فالقرآن ليس كتاباً في الطب أو الفيزياء أو الأحياء، وإنما فيه لفتات هي من آيات الله في الأنفس والآفاق، وفيه حث الحواس والعقول على التدبر والعمل.. وإن كان يريد بالعلمي أنه خبر عن قضاء الله الشرعي والكوني الصادر عن علمه سبحانه: فليس ذلك محل خلاف، ولا علاقة لهذا الكلام من قريب أو بعيد بكلامي عن امتناع المفاضلة بين قراءتين صحيحتين.

الوقفة الثانية: من قال إنه يجوز على كلام الله المبالغة؟.. هل في بحثي حرف واحد من هذا الزعم.. أما بلوغ الغاية فصحيح، لأن بلوغ الغاية منتهى الكمال، ولله الكمال المطلق.

الوقفة الثالثة: ليس في بحثي كلمة واحدة عن الفرق بين رحمان ورحيم على أساس المبالغة، وإنما بينت أن كل وصف منهما بلغ الغاية في بابه، وأن مدلول الرحمان أعم، وأن الرحمان بلغ الغاية في اتصاف الخالق، وأن الرحيم بلغ الغاية في المرحوم المخلوق، وذلك فعل الله سبحانه بمقتضى صفته الكريمة.

الوقفة الرابعة: يجوز أن يقال: «الرحمان خالق المنظومة العلمية» بمعنى المعلومة المدبرة المخلوقة.. ولكن الرمادي لما قال بعد ذلك «وهي بذاتها التي انتهت إلى المنظومة الوجودية»: صار معنى كلامه أن العلمية بمعنى العلم قبل أن يكون المعلوم موجوداً.

قال أبو عبدالرحمن: هذا ضلال مبين؛ لأن علم الله هو فعله من صفته العليم، فلا يجوز وصفه بأنه مخلوق؛ لأن المخلوق مفعوله لا فعله سبحانه.

الوقفة الخامسة: يقال لهذا الرمادي: ما علاقة الآية من سورة غافر بأن الله خالق علمه.. إنما المخلوق معلومه، والعلم يأتي أحياناً بمعنى المعلوم.. وهكذا الرحمة تكون بمعنى فعله، وبمعنى مفعوله.

الوقفة السادسة: عن الطامة الكبرى من دعواه أن الرحمة والرحيم والرحمان مشتقة من روح!!.. فهذا افتراء على الله، وعلى لغة العرب؛ فلا علاقة لتلك المعاني بالروح لا في لغة العرب، ولا في تفسير مأثور، ولا في نظر - ولو كان نظراً محتملاً -.. ومادة الرحمة راء وحاء وميم، ومادة الروح راء وواو وحاء، ودعوى اشتقاق معنى مادة من مادة أخرى لم يرد في اللغة، ولا يتصوره عقله، ولم يقل به لغوي ولو كان بليداً.. ودعك من جهابذة ذكاء وتحصيلاً!!.

الوقفة السابعة: قال: كل ما عدا الله من روح الله.

قال أبو عبدالرحمن: بنى هذا على أن الله روح، أو أن الروح من صفته، وهذا افتراء على الله، وافتراء على شرع الله بدون نص صحيح أو حسن أو ضعيف محتمل.. والله سبحانه مقدس عن أن يسمى أو يوصف بدون توقيف شرعي صحيح.. وعيسى عليه السلام روح الله؛ وذلك أن عيسى عليه السلام روح وجسد مضاف إلى الله إضافة ملك وخلق كبيت الله وناقة الله.. ووصف الله سبحانه بأنه روح، وأن كل روح جزء من روح الله هو أساس أقانيم النصارى (التثليث)، وهو أساس وحدة الوجود والاتحاد، نسأل الله العافية.

الوقفة الثامنة: لا شك أن كل موجود من أمر الله الكوني، وليس كله من أمره الشرعي، بل منح سبحانه الخلق حرية الفعل للخير والشر بقضائه الكوني، وأمرهم بالخير بقضائه الشرعي؛ فإذا فعلوا ذلك باختيارهم كان فعلهم خلاف قضاء الله الشرعي.. ولكن ما علاقة أمر الله بنسبة الروح إلى الله، أو وصفه بها بلا توقيف شرعي، وما علاقة كل ذلك ببحثي عن المنع من المفاضلة بين قراءتين صحيحتين؟!.. ألا ما أعظم حلم الله على من يعبثون بكلامه، ويلحدون في أسمائه وصفاته؟!.

الوقفة التاسعة: يقال لهذا الرمادي: ما الفرق بين «أمر الروح من أمر ربي» و«الروح من أمر ربي»؟!.. إنه بالتفريق بين عبارتي «الروح من أمر ربي» و«أمر الروح من أمر ربي» يريد ادعاءً فرق يجعل الله بمعنى الروح، وأن الخلق جزء منه تعالى الله علواً كبيراً.. إن الله يقص علينا سؤال البشر: ﴿يسألونك عن الروح﴾.. ولم يسألوا عن أمر الروح.. إن المسؤول كلام البشر لا كلام الله، وإنما قص الله علينا سؤالهم(٧)؛ فهل يتوقع بعد ذلك أن يقص الله علينا غير سؤالهم؛ فيقول: يسألونك عن أمر الروح؟!.. والسؤال عن الروح أشمل من السؤال عن أمرها.. والله سبحانه لم يقل: قل أنا الروح، أو قل الروح جزء من روحي.. سبحانه وتعالى علواً كبيراً، بل قال من أمر ربي.. وأمر ربي في المعهود الشرعي هو قضاؤه الكوني أو الشرعي.

الوقفة العاشرة: كذب هذا الرمادي على الله جهاراً نهاراً بلا حياء ولا وازع؛ فقال: «فالله يوحِّد بينه وبين الروح في الأمر».

قال أبو عبدالرحمن: كلا؛ فلا وحدة في الآية الكريمة بين الله وبين أرواح البشر المسؤول عنها إلا بدعوى الأقانيم والحلول والاتحاد كما أسلفت، ولا في الأمر كما زعم نصاً؛ فلا شراكة للروح المخلوقة في الأمر مع الله سبحانه؛ بل الله الأمر المدبر الخالق، والروح مأمورة مدبَّرة مخلوقة.

الوقفة الحادية عشرة: أن الرمادي يمجمج بالحلول والاتحاد، ويروج لهما بقوله: «فالله هو ذو القوة، والموجود من قوته.. القوة مطلقة لا نقف لها على كنه»!!.

قال أبو عبدالرحمن: سياقه السالف عن الروح يدل على أنه يجعل قوة المخلوقات جزءاً(٨) منه سبحانه، ونص على أن القوة بقسميها مطلقة لا نقف لها على كنه؛ فهذا هو الحلول والاتحاد بعينه.. ونرده إلى دين الله؛ ليعلم أن قوة المخلوق غير مطلقة، ولها كنه، وصفة الله سبحانه القوي، وقوة الله ذات معنيين:

أولهما: صفته من القوي، وفعله سبحانه؛ فهذا مطلق لا يوقف له على كنه، ولا يشاركه فيه أحد.

وثانيهما: قوة الله مفعوله ومخلوقه الصادر عن قوته.. أي عن صفة القوي؛ فهذا غير مطلق، ويوقف له على كنه، وليس جزءاً من الله سبحانه، ولا حالاً فيه، بل القوة فيه مخلوقة.. ثم بعد هذا ما علاقة هذا الهذيان بتفسير أن الروح من أمر ربي، وما علاقة ذلك ببحثي عن المنع من المفاضلة بين قراءتين صحيحتين؟!.

الوقفة الثانية عشرة: لما زعم أن الوجود من قوة الله، وسوَّى بين القوتين في الإطلاق وخفاء الكنه: قال: أما ظاهر الوجود فهو أثر لقوة الله.

قال أبو عبدالرحمن: الوجود خالق ومخلوق.. والمخلوق سواء أحطنا بكنهه، أم لم يبد لنا نحن البشر غير ظاهره: فهو مخلوق بقوة الله، ولا فرق بين القسمين في هذا المعنى، وإنما الفرق في نوعية علمنا ومعلومنا نحن البشر.

الوقفة الثالثة عشرة: قال عن الوجود المخلوق - والوجود ها هنا بمعنى الموجود -: «هو ما آل من الله، ثم يعود فيؤول إليه».

قال أبو عبدالرحمن: إن أراد عود البشر إلى الله يوم البعث، ولأن لكل شيء نهاية تعود إلى مقتضى أمر الله فهذا صحيح.. وإن أراد ـ وهو ما يدل عليه سياقه ـ أن هذه الموجودات جزء من الله تعود إليه: فذلك هو الحلول والاتحاد نسأل الله العافية.. ثم ما علاقة ذلك بتفسير أن الروح من أمر ربي، وما علاقة ذلك ببحثي عن المنع من المفاضلة بين قراءتين صحيحتين؟!.

وها هنا نص ثالث من التهويم الصوفي الساذج العاجز عن إحكام سياج المغالطة: قال: «الرحيم هو من ينتهي من المنظومة إلى موجودات الوجود، والهادي إلى المنظومة علماً بها.. والرسول بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ لأنه ينتهي بهم إلى العلم الصحيح؛ فينتهون إلى الفعل الصحيح، ولا يكون الفعل صحيحاً إلا إذا انتظم على منظومة الخلق.. ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [سورة الإسراء/١١٠]..

كلمة الله تعادل كلمة الرحمن، الله هو من منه الألاء.. ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ [سورة المائدة/٧٣].. وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله.. والرحمن هو خالق منظومة عليها الآلاء.. منظومة آلاء الله وفق أسمائه الحسنى.. الأسماء الحسنى هي الأسماء الفعلى للأسماء الحسنة.. الأسماء الحسنة هي أسماء الكلمات الطيبة؛ فهي الأسماء التي لها ما بعدها في التحقيق العلمي الصحيح.. الله يختلف عن الإنسان في العلم والتعبير؛ فالناس لا تنتهي إلى كامل الشمول العلمي، ولا تنتهي إلى نهائيته.. أما الله فهو إذ يسوق علمه في القرآن العظيم؛ فالعلم ينتهي إلى الشمول والنهائية.. ولأن الناس على مشاعر؛ فلهذين السببين يختلف تعبير الله بالكلمة عن تعبير الناس.. الكلمة من القرآن تنضبط على الكل العلمي الصحيح؛ فتعبير الله كعلمه يقع في منظومة متكاملة اسمها اللسان العربي.. اللسان المُعرب عن العلم».

قال أبو عبدالرحمن: لا أحاسب الرمادي على تلعثم أسلوبه، وهجنة تعبيره وهو يتكلم عن كلام الله الذي هو أحسن الحديث وأصدقه وأبلغه وأفصحه، وإنما أحاسبه في الأمر الخطير من شؤون الديانة بمقتضى هذه الوقفات:

الوقفة الأولى: تفسيره للرحيم بمن ينتهي من المنظومة إلى موجودات الوجود: تفسير لا تعرفه لغة العرب، ولم يقل به أحد من العلماء الربانيين، ويناقض بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويناقض معاني لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم؛ فلا يفهم بغيرها.. وما ذكره يصلح تعريفاً ملتوياً للعلم، ومعنى العلم غير معنى الرحيم، وتفسيره لعلم الله، وتقديره قبل الإيجاد بالمنظومة: تفلسف لا يقتضيه اصطلاح، ولا تأصيل توجبه الضرورة.

الوقفة الثانية: ومن تمام عبارته في الوقفة الأولى قوله: «والهادي إلى المنظومة علماً بها».

قال أبو عبدالرحمن: الهادي ليس من معاني الرحيم لغة، ولكن هدايته تكون رحمة، وليس ذلك لأن الهادي بمعنى الرحيم؛ بل لأن الرحمة بمعناها اللغوي وصف يوجد في مسميات كثيرة كالهداية، والشفاء من المرض، والزحزحة عن النار، وإرسال السماء مدراراً، والإمداد بالأموال والبنين.. والصواب أن يقول: «عن علم بها».. والله لم يضمن لنا أن نعلم بكل موجود؛ لتفرُّده بالعلم المحيط.. وفيما حجب الله عنا العلم به ما هو رحمة بنا؛ فلا معنى لجعله الهداية رحمة بإطلاق.

الوقفة الثالثة: الرسول صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم ليس بالهداية إلى العلم الصحيح فحسب، بل بسلوكه الخيِّر بأبي هو وأمي مثل صبره على الأذى، وامتناعه عن الدعاء باستئصال قومه إذ كذبوه، وحرصه على إيمان الناس حتى قال له ربه في سورة الشعراء: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾.. أي مهلكها، وقال له في سورة فاطر: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾.. وكذلك شفاعته عليه السلام.

الوقفة الرابعة: قال الرمادي: «ولا يكون الفعل صحيحاً إلا إذا انتظم على منظومة الخلق».

قال أبو عبدالرحمن: هذا كلام متلعثم لا يخرج منه كلام معقول: لا بلغة، ولا بشرع، ولا بعقل.. فإن أراد أن العلم لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مطابقاً للخارج: فهذا تحصيل حاصل، كما أنه تعميم غير صحيح؛ لأن الله لم يضمن لنا العلم بكل منظومة الخلق، ثم إن العلم بالمعلوم يكون صحيحاً وإن لم يكن علماً بجميع الخلق؛ فهذا نقص في معلومات الإنسان، وليس نقصاً في علمه بما علم.

الوقفة الخامسة: أن إيراده للآية الكريمة من سورة الإسرى إقحام لا يقتضيه سياق؛ فلا علاقة للعلم الصحيح في عمومه بأمر الله أن يُدعى بأسمائه الحسنى.

الوقفة السادسة: قوله كلمة الله تعادل كلمة الرحمان: إن أراد بذلك أن المسمى واحد فذلك تحصيل حاصل، وإن أراد أن معناهما اللغوي واحد فلا، وإن أراد أنهما اسما علم لا يختلفان في المعنى كما يقول الجهمي فلا.. والمحقق أن الله اسم له سبحانه، والرحمان صفته واسمه معاً.. تقول: الله الرحمن على سبيل الوصف.. ولا تقول: الرحمان الله على أن الله وصف للرحمان، بل على سبيل الخبر.

الوقفة السابعة: أن الله سبحانه منه الآلاء بلا شك ولا ريب، ولكن لا علاقة للآلاء بالله لغة، بل الله من يحبه المؤمنون ويعبدونه.. هذا معنى التألّه.

الوقفة الثامنة: هو سبحانه إله في السماء وفي الأرض، وليس معنى ذلك الحلول والاتحاد، بل معناه أنه المتفرد بالعبادة بحق في السماوات والأرض.

الوقفة التاسعة: الله سبحانه خالق النعم والآلاء، ولكن ليس هذا هو معنى كلمة الرحمان.

الوقفة العاشرة: ليس بصحيح أن آلاء الله وفق أسمائه الحسنى بإطلاق، بل نعم الله العامة المؤمن والكافر من اسم الرب، ونعمه على المؤمنين وغير المكلفين مقتضي الرحيم اللطيف الودود وما إلى ذلك من صفات اللُّطف والكرم والجود.. ونقمه سبحانه التي هي عدل وحكمة مقتضى أسماء وصفات أخرى كالجبار العزيز.

الوقفة الحادية عشرة: تفسيره الحسنى بالفعلى كلام لا يتحصل منه معنى معقول لا بلغة ولا بشرع ولا بعقل، وإنما الفعلى وزن الحسنى وصيغتها.. وكذلك قوله: «الأسماء الحسنة هي أسماء الكلمات الطيبة.. إلخ».

الوقفة الثانية عشرة: وصف الله بالتعبير، وهذا من تخرصه وجرأته على دين الله بلا برهان من الله.

الوقفة الثالثة عشرة: وحدانية الله سبحانه في الكمال ليس محل مساومة، وذلك في العلم وغيره.

الوقفة الرابعة عشرة: كمال علم الله ليس في القرآن وحده، بل لله غيب لم ينزله في كتبه، ولم يعلمه أحداً من خلقه.. وغيب الله من علمه.

الوقفة الخامسة عشرة: جعل شمول علم الله، وكون الناس على مشاعر.. سببين لمخالفة كلام الله لكلام خلقه.

قال أبو عبدالرحمن: لا أدري ما هي دلالة المشاعر هنا، والله واحد في الكمال المطلق في العلم وغيره.

الوقفة السادسة عشرة: افترى على الله بحصره علم الله في "اللسان العربي، بل علم الله أشمل مما جاء باللسان العربي من الشرع، ومن كل شرع ورد بلغات أخرى؛ لأن لله غيباً لم يخبر به بأي لسان.

الوقفة السابعة عشرة: وبعد هذا فكل هذا الهذر لا علاقة له ببحثي عن المنع من المفاضلة بين قراءتين مختلفتين، ولا علاقة له بالتفريق بين معنى الرحمان ومعنى الرحيم.

ثم يرد هذا النص الثالث - وهو آخر كلامه -، وفيه من الجهل والتقوُّل والإقحام ما يثير الغثيان.. قال: «الكلمة من القرآن لا يجوز أن تقاس على قول البشر ﴿ولقد نعلمُ أنَّهم يقولون إنما يُعلِّمهُ بشرٌ لسان الذي يُلحِدُون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربي مبين﴾ [سورة النحل/١٠٣].

وفي الكيمياء والفيزياء لا تجوز المبالغة؛ فالعلم لا يقوم إلا على التعادل القيمي: سواء أثبتنا التعادل في معادلة حسابية، أو كان في جملة علمية.. يجب إسناد الكلمة من القرآن إلى كامل منظومة القرآن في العلم والتعبير لنقف على المراد بها.

كمبدأ(٩) لا يجوز الاعتداء عليه: العلم لا يقاس بمقاييس النقد الأدبي، والقرآن كتاب علم.. العلم ينتهي إلى تقويم القيمة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين/٤].. أي في أحسن مكنة علمية ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [سورة التين/٥].. فكان بعد أول خلق له على خلاق.. أتاه إذ قاسمه إبليس ﴿فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم﴾ [سورة التوبة/٦٩].. هنا قامت المشاعر الإنسانية.. اعتمال المشاعر أمر، وإعمال المكنة العلمية أمر آخر، لكل منهما أدوات قياس».

قال أبو عبدالرحمن: ها هنا وقفات:

الوقفة الأولى: لا معنى لقوله: «الكلمة من القرآن لا يجوز أن تقاس على قول البشر بها» سواء أراد بالكلمة المفردة، أم الجملة؛ فلا قياس ها هنا، بل استعمال المفردة من القرآن استعمال للغة العرب، واقتباس من القرآن الكريم.. وإن أراد أن موضع الكلمة المفردة في سياق القرآن الكريم لا يقاس بسياق الكلمة في كلام البشر من جهة البلاغة والإعجاز فهذا صحيح، وعليه أن يقول: كلام الله لا يجوز.. إلخ».

قال أبو عبدالرحمن: هذا الجواب على التسامح، ولكن إذا علمنا أن القياس عمل لا حكم، وأنه عمل من أجل الحكم بالتساوي أو التفاضل: فالكلام المحقق أن يقول هذا الرمادي: وإذا قيس كلام البشر بكلام الله فلا مجال للتساوي، ولا مجال لتفضيل قول البلغاء من العرب؛ لأن القرآن قمة الفصاحة والبلاغة، معجز في بيانه، ومعجز في معاني بيانه، ومعجز في علمه وحكمته، وهو تنزيل من خلق الإنسان وعلَّمه البيان.

الوقفة الثانية: أن كلام الله سبحانه يفسر بكلام بلغاء العرب؛ لأنه نزل بلغتهم؛ فلا يكون في قول الرمادي: «لا يجوز أن تقاس» ذريعة لإنكار هذه الظاهرة الصحيحة.

الوقفة الثالثة: إنني لا أعلم أي علاقة لتقرير إعجاز القرآن، وأنه ليس من قول البشر - وهذا عقيدة كل مسلم، وعليها بحول الله وقوته أحيا وأموت - ببحث لي يمنع من المفاضلة بين قراءتين صحيحتين، ولم يتعرض بحثي لخدش هذه العقيدة؟!.

الوقفة الرابعة: الكيمياء والفيزياء ليست نصوصاً تُثبت لهما المبالغة أو تنفى، وإنما هما عمل واكتشاف، والمبالغة فيهما عملاً حسنةٌ لا سيئة؛ لأن المبالغة في العمل إحسان، وتثبُّت، وطموح إلى نتيجة مرضية.

الوقفة الخامسة: ما علاقة الكيمياء والفيزياء بمنعي من المفاضلة بين قراءتين صحيحتين؟!

الوقفة السادسة: التعادل القيمي غير مفهوم، بل المفهوم أن العلم محض تجارب تبدأ: بالملاحظة، والاستقراء، والسبر، وإعادة الاختبار بشروط ووضعيات زمانية ومكانية وموضوعية مختلفة؛ فتنتج التجربة حالات لكل حالة حكمها.. والتعادل بين القيم موضوع آخر، وهو يعني المعادلة لا التعادل، والمعادلة تنتج تساوياً أو تفاوتاً بالأحسن والأقبح والأشد والأظهر.. إلخ.

الوقفة السابعة: القيمة لا تتصف بالمبالغة إلا إذا كانت غير صحيحة؛ فإذا صحت فلها صفة الثبات والمعيار، وإنما المبالغة في العمل البشري من أجل تحصيلها.

الوقفة الثامنة: المبالغة في كلام العرب أظهر من الشمس، وهي للتحسين والاستحثاث..ولاينفي المبالغة في الكلام انتفاءُ المبالغة في العلوم غير النُّصيَّة؛ لاختلاف أحكام القول عن أحكام المعارف المستقرة قيمها.. والمبالغة كذبٌ مستحسن أدبياً؛ لأنه لا يراد به الإيمان بالكذب ذاته، وإنما يراد به إظهار قوة الأثر في المبالغ فيه؛ ولهذا منعتُ من إطلاق صيغ المبالغة - المعروفة لدى النحويين والصرفيين -، ودعوتُ إلى صيغة بلوغ الغاية؛ لأن كلام الله منزه عن المبالغة.. وإذا كان القرآن نزل بلغة العرب رابطة وصيغة ومادة وتركيباً ونحواً وبلاغة" فليس معنى ذلك أنه جاء بجميع لغتهم؛ فكم من مفردة لم يستعملها القرآن الكريم.. وهكذا التركيب البلاغي - وهو النحو الثاني للعرب - لم يرد كله في كتاب الله؛ لأن مبنى كلام الله على العصمة؛ فلا يرد فيه ما استحسنه العرب من مبالغة؛ لشائبة الكذب.

الوقفة التاسعة: يقول هذا الرمادي: «يجب إسناد الكلمة من القرآن إلى كامل منظومة القرآن لنقف على المراد بها»: كلام متلعثم لا يتحصل منه قاعدة، ولكنني أبيِّن له أن كلام الله يُفسر بكلام الله، وبكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.. إلا أن كلام الله ليس كله مفسراً بكلام الله، ولا بكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فالمأثور من الحديث الشريف الذي تقوم الحجة به ثبوتاً لا يغطي آي الذكر الحكيم تفسيراً؛ فوجب الرجوع إلى لغة العرب لمعرفة المفردات، ووجب الرجوع إلى بلاغة العرب ونحوهم لتحصيل دليلي التصحيح والترجيح من الكلام المركب من المفردات، ومن الجمل، ومن دلالات السياق، ومن جمع النصوص في معنى واحد؛ لأجل مدلول ليس فيه تناقض ولا تضاد.. ويتم هذا بعمل العقل ببدهياته وضروراته وشواهده من الحسِّ؛ لأن الله جعله شرط التكليف؛ ليفهم المكلف بيان ربه.. وهذا الرمادي أحق بالتذكير بهذا الأصل والرجوع إليه؛ لأن هذا الأصل من مسلمات السلف، ولأن الرمادي تلاعب بكلام الله؛ ففسر القضاء المثبت يوم القيامة بآية من سورة يونس عن قضاء لم يتم في الدنيا.. فإن كان تفسير كلام الله بكلام الله على هذا النحو من التلاعب فذلك هو الضلال المبين.

الوقفة العاشرة: أسلفت القول عما يتعلق بقوله: «القرآن كتاب علم».

الوقفة الحادية عشرة: قوله: «العلم لا يقاس بمقاييس النقد الأدبي، والقرآن كتاب علم»: كلام ممعن في المغالطة الساذجة، بل القرآن كلام الله

مؤلف من كلام العرب الذي يستعملونه، وهذا الكلام الكريم: إما خبر؛ فهو إخبار بشيئ من علم الله، وإما إنشاء؛ فهو طلب لتحقيق مراد الله من العباد.. وملاحن العرب مفردة وصيغة ورابطة ونحواً وبلاغة: تتعلق بالكلام، لاستظهار معناه الذي هو خبر عن شيئ من علم الله، أو تكليف بأداء شيئ من مراده.. ثم بعد هذا ما علاقة هذا الكلام ببحث لي عن المنع من المفاضلة بين قراءتين صحيحتين لم أتعرض فيه لنفي خبر الله في القرآن: أنه خبر عن شيئ من علمه سبحانه.. ولم أتطرق فيه لمقاييس نقدية.

الوقفة الثانية عشرة: ومن المغالطة قوله: «العلم لا يقاس بمقاييس النقد الأدبي»؛ لأن ذكره للنقد الأدبي - والأدب أجناس جمالية من شعر ورواية وقصة وأقصوصة وحكاية وأسطورة ومسرحية ومقالة - إيهام بأن القرآن الكريم في نصاب الأجناس الأدبية التي منها الشعر، وأعذب الشعر أكذبه، ومنها التخيُّل في أنواع القصص.. وبذلك الإيهام يُنفِّر الناس من أي معيار عربي يوزن به الأدب؛ فلا يبقى إلا افتراآت وظنون الصوفية والباطنية.. إنه فر من ذكر الواجب من تفسير كلام الله بكلام العرب إلى ذكر المقاييس والنقد الأدبي للتضليل والتلبيس!!.

قال أبو عبدالرحمن: القرآن كلام الله نزل بلغة العرب، وهو يُفسَّر، ويُرجَّح بين معانيه المحتملة بكل ملاحن لغة العرب مفردة وصيغة ورابطة ونحوا وبلاغة باستثناء ما ألغيته آنفاً من شوائب الكذب في مثل المبالغة.. وكل ذلك يكون بواسطة العقل الذي هو شرط التكليف.. ومن لا عقل له فلا فهم له.. والأدب بكل أجناسه يقوم بما أسلفته آنفاً.. ولما كان القرآن الكريم المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة والإيجاز كان مقياساً للنقاد والنقد دون عكس.. غاية ما هنالك أن نقاد الأدب، والأدباء الموهوبين أحذق الناس بفهم كلام الله إذا حصلت لهم بقية أدوات الاجتهاد في الشريعة وبقية علومها.

الوقفة الثالثة عشرة: قوله: «العلم ينتهي إلى تقويم القيمة»: كلام غير مفهوم، بل العلم يُظهر القيمة، وبالقيمة تقوَّم الأشياء الأخرى.. أما تقويم القيمة فهو أول مراحل النظر والبحث، ولا يتحقق العلم إلا بعد تحصيل القيمة أو نفيها.

الوقفة الرابعة عشرة: تلاعب هذا الرمادي بكلام الله تلاعباً لا يفترق عن الاستهزاء بالقرآن؛ فجعل الآية الكريمة من سورة التين شاهداً على تحصيل العلم للقيمة التي يشتق منها معايير الأشياء والحكم فيها، ويجمعها ثلاث قيم مع أضدادهن، وهن قيمة الحق، وقيمة الخير، وقيمة الشر.. مع أن الآية من سورة التين عن حسن الخلقة الآدمية لا عن القيمة الحكمية، وهذا مثل تلاعبه بالآية الكريمة من سورة يونس.

الوقفة الخامسة عشرة: افترى الرمادي على الله؛ ففسر قوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾ بقوله: «في أحسن مكنة علمية».

قال أبو عبدالرحمن: ليس كل البشر يعلمون، وليس البشر في أحسن مكنة علمية؛ بل يعلم ملائكة الرحمان عليهم السلام ما لا يعلم البشر.

الوقفة السادسة عشرة: أنه أيضاً افترى على الله بتفسير قول الله تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ بمعصية آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة، وهو نبي كريم تاب عليه ربه، فلم يجعله أسفل سافلين عليه وعلى نبينا محمد وعلى جميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة والسلام.. وإنما المراد بالآية الكريمة الرد إلى أرذل العمر كما بيَّن ذلك النصوص القرآنية الأخرى، وكان يجب عليه أن يفسر كلام الله بكلام الله كما تشدق بزعم ذلك قولاً لا فعلاً.

الوقفة السابعة عشرة: أنه افترى على الله مرة بعد مرة؛ فجعل الآية من سورة التوبة عن آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله.. وإنما هي بنص الآية وسياقها عن المنافقين والمنافقات والكفار والمشركين من ذرية آدم عليه السلام الذين قبل قوم محمد صلى الله عليه وسلم.

الوقفة الثامنة عشرة وهي الأخيرة: قوله عن خلاق الكفار: «هنا قامت المشاعر الإنسانية.. واعتمال المشاعر أمر، وإعمال المكنة العلمية آخر لكل منهما أدوات قياس».. وفي هذا القول ضلال، وتمعلم، وخلط.. أما الضلال فجعله آدم عليه السلام على خلاق من ذمهم الله في سورة التوبة، وأما التمعلم فإلماحه إلى أدوات ومقاييس كأن لديه علماً شرعياً أو بشرياً عن حقل علمي اسمه المكنة العلمية، وحقل علمي آخر اسمه المشاعر الإنسانية!!.. وأما الخلط فجعله المشاعر والمكنة العلمية في تناقض وتضاد بإطلاق، وليس هذا بصحيح، بل هناك مشاعر صادرة عن قيم حقٍّ وخيرٍ وجمال، وهناك مشاعر صادرة عن قيم باطل وشر وقبح.. ومن الخلط أيضاً زعمه أن النجاة في إعمال المكنة العلمية ولا مفهوم لإعمال المكنة العلمية إلا زيادة التأمل والكشف والبحث، وليس هذا هو طريق النجاة وحده؛ فكم من عالم يُعدُّ من جند إبليس، وإنما النجاة في العمل بالعلم النافع المطلوب شرعاً، والعمل بمقتضى المكنة العلمية غير إعمالها لو كان يفقه قولاً، وهو يريد بالمكنة التمكن؛ فإعمال التمكن لغو وتحصيل حاصل، وإنما الإعمال للملكة ليحصل التمكن.

قال أبو عبدالرحمن: والخلاصة أن الرمادي جعل هذا الهذيان الصوفي رداً عليَّ، والواقع أنه ليس رداً عليَّ لسببين:

أولهما: أنه كذب عليَّ بدعوى أنني فسرتُ شيئاً من كلام الله بالمبالغة.

وثانيهما: أن جميع كلامه في موضوعات أخرى متضاربة لا علاقة لها من قريب أو بعيد ببحثي، والله المستعان.

الهوامش والمراجع

١. هكذا أختار رسم الحرف على صورته كاملة؛ إذ لا أجد مسوغاً لرسم رأس الهمزة وسط السطر.. إلا دعوى كراهة توالي الأمثال.. وليست هذه الكراهة - غير المحققة - بأعظم سوأ من تغيير صورة الحرف.

٢. المختار أن تكون ألف ألبتة مهموزة.

٣. انظر كتابي (في المقتاب) ص ٥٢ وما بعدها ط م سفير سنة ١٤١٣هـ.

٤. المحقق في اجتهادي أن الهمزة آخر الكلمة لا تكتب وسط السطر إلا إذا كانت ساكنة؛ لأنه لا يوجد حرف مد يقابل حركة السكون.. أما إذا كانت محركة فتكتب على الألف وتشكل؛ فإن كانت مكسورة كتبت أسفل الألف، ولا عبرة بكراهة توالي الأمثال.

٥. انظر تعليقة (٤).

٦. مذهبي المحقق في الرسم الإملائي كتابة الهمزة على الألف في مثل هذا الموضوع، وستتاح المناسبة إن شاء الله لنشر تحقيقات في الرسم الإملائي.

٧. المحقق في مثل هذا الموضوع إثبات الهمزة ممدودة على ألفها بخلاف ما عليه أهل الرسم.

٨. إذا نونت الهمزة آخر السطر فالمحقق لدي كتابة صورتها كاملة.

٩. الكاف هنا فضول، والصواب: بصفته مبدأ.. لأن المراد حقيقة الوصف، لا التشبيه المقارب.

الملف الثقافي



توزيع جائزة الملك فيصل العالمية

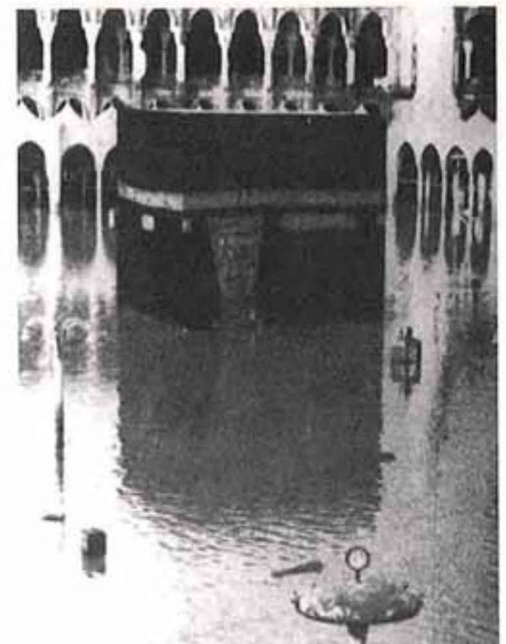
المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج يخسر القضية

برلين تستضيف ندوة «الحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات»

ترميم مخطوطات الحرم القدسي الشريف

الملتقى العالمي الأول للكاريكاتير

عصابة دولية تهرب ٢٥٠ ألف قطعة أثرية من مصر



خاتمة المطاف:

من سيول المسجد الحرام في العصر الحديث

توزيع جائزة الملك فيصل العالمية



الملك فيصل بن عبد العزيز

تحدد يوم ١٠ صفر الجاري موعداً لتوزيع جائزة الملك فيصل العالمية على الفائزين بها في فروعها الخمسة هذا العام ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز.

وقد تم منح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام للأزهر الشريف كأول مؤسسة تنال هذه الجائزة، أما العلماء الذين فازوا بها، فهم الدكتور محمد مهر علي البنغالي الجنسية على كتابه «تاريخ المسلمين في البنغال» المكون من أربعة أجزاء، والمكتوب باللغة الإنجليزية، وذلك في فرع الدراسات الإسلامية الذي كان موضوعه «الدراسات التي تناولت انتشار الإسلام في إقليم أو أكثر خارج العالم العربي وأثر ذلك الانتشار حضاريا»، ونال كل من الدكتور عبدالله الطيب السوداني الجنسية والدكتور عزالدين إسماعيل عبدالغني المصري الجنسية جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي وكان موضوعها «الدراسات التي تناولت النقد الأدبي القديم عند العرب في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضاياه»، وحصلت الدكتورة سينثيا جين كينيون الأمريكية الجنسية جائزة الملك فيصل العالمية للطب وموضوعها «الشيخوخة»، وتناصف كل من الدكتور إدوارد أوزبورن ولسن والدكتور جون كريغ فنتر الأمريكيا الجنسية جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم وموضوعها «علم الحياة - البيولوجيا».

(في العدد القادم رصد شامل لوقائع حفل التوزيع).

كما حددت الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية موضوعات الجائزة لعام ١٤٢١هـ/٢٠٠١م على النحو التالي:

- جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية وموضوعها: «الدراسات التي عنيت بكتب الفتاوى (النوازل)».
- جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي وموضوعها: «الدراسات التي تناولت فنون النثر الأدبي الحديث».
- جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم وموضوعها: «الفيزياء».
- جائزة الملك فيصل العالمية للطب وموضوعها: «زراعة الأعضاء».

وحددت يوم ٢٦ محرم الماضي الموافق ٣٠ أبريل عام ٢٠٠٠م آخر موعد لقبول الترشيحات.

الجدير بالذكر أن الجائزة تتكون من:

- براءة مكتوبة بالخط الديواني داخل غلاف من الجلد الفاخر تحمل اسم الفائز وملخصاً للإنجازات التي أهلته لنيل الجائزة.
- ميدالية ذهبية عيار ٢٤ قيراطاً، وزنة ٢٠٠جرام.
- شيك بمبلغ ٧٥٠,٠٠٠ ريال سعودي (ما يعادل ٢٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي).

معرض جدة الدولي للكتاب والمعلومات



الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز

رعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة مساء السبت ١٧ محرم ١٤٢١هـ الموافق ٢٢ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م الماضي، حفل افتتاح معرض جدة الدولي للكتاب والمعلومات الذي نظمته الغرفة التجارية الصناعية بمحافظة جدة بمركز جدة الدولي للمعارض والمؤتمرات «مركز الحارثي»، بمشاركة أكثر من ٢٠ دولة عربية وأجنبية ممثلة بأكثر من ٢٥٠ دار نشر.

وضم المعرض، إلى جانب معرض الكتاب، الكثير من الفعاليات الثقافية التي شارك فيها عدد من الأدباء والمفكرين على مستوى المملكة والعالم العربي.

معرض للكتاب الإلكتروني

رعى صاحب السمو الملكي الأمير سطام بن عبدالعزيز نائب أمير منطقة الرياض معرض الكتاب الإلكتروني الذي نظمه مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية تحت عنوان «تقنيات المعلومات في خدمة الباحثين والبحث العلمي» في الفترة من ٢١ إلى ٢٩ ذي الحجة عام ١٤٢٠هـ الموافق ٢٧ مارس/آذار ٢٠٠٠م الماضي، بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، وقد اشتمل المعرض على أحدث الموسوعات والمجموعات والكتب العربية والأجنبية في شكلها الإلكتروني.

وصاحب المعرض بعض الأنشطة الثقافية المتنوعة من ندوات ومحاضرات ذات علاقة بمجال النشر الإلكتروني، وقدم فيه عدد من المحاضرات جاءت تحت العناوين التالية: «مجالات التعليم بالوسائل الإلكترونية عن بعد»، للأستاذ براين بيري، تقديم: الدكتور إبراهيم المسند، و«تقنيات النشر الإلكتروني العربي: المميزات والتحديات»، للدكتور سليمان عبدالله الميمان، و«الكتاب الإلكتروني: الموسوعة البريطانية نموذجاً»، للأستاذ عاطف محمد عبيد، تقديم: الدكتور فهد ناصر السهلي، و«النشر الإلكتروني وأثره في خدمات المكتبات ومراكز المعلومات»، للدكتور حشمت

محمد علي قاسم، و«ترشيد المجموعات عبر الإنترنت»، للدكتور هشام ابن عبدالله عباس، تقديم الدكتور صالح بن محمد المسند، و«الإعلام القديم والإعلام الجديد: هل الصحافة المطبوعة في طريقها للانقراض؟» للدكتور سعود صالح كاتب، و«تطورات النشر الإلكتروني»، للأستاذ عبدالرحمن عبدالله الحميدي، تقديم الدكتور خالد بن عبداللطيف العرفج.


الأمير سطام بن عبد العزيز

ويأتي هذا المعرض في إطار الجهود المستمرة التي يبذلها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية لمواكبة التطورات المتسارعة في بيئة تقنية المعلومات والبحث العلمي، وقد شارك فيه أكثر من خمس وثلاثين جهة من نحو عشر دول من أنحاء العالم، وحظي بمتابعة واهتمام وحضور كبير من قبل المتخصصين والجمهور.

الطباعة العربية في الهند

بمناسبة الاحتفاء باختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، نظم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في إطار نشاطه الثقافي محاضرة بعنوان «الطباعة في الهند ـ دائرة المعارف العثمانية ودورها في إحياء التراث العربي الإسلامي»، قدمها الدكتور عباس بن صالح طاشكندي أستاذ علوم المكتبات والمعلومات في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وأدار الحوار الدكتور عبدالرحمن ابن حمد العركش.


عباس بن صالح طاشكندي

تناول المحاضر تاريخ وجود المسلمين في أرض الهند، وبيّن إسهامهم الفكري والثقافي في المجتمع الهندي.

وتعرض بعد ذلك لتاريخ الطباعة في الهند عموماً مع التركيز على الطباعة بالحروف العربية التي جاءت متأخرة عن الطباعة باللغات الأخرى.

ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى تاريخ دائرة المعارف العثمانية مفصلاً تاريخ إنشائها وإسهامها في إحياء حركة التراث العربي الإسلامي، وأهم المؤلفات التي قامت بتحقيقها ونشرها.

ثم تناول الظروف المالية الحرجة التي تمر بها الدائرة الآن والتي أثرت في برامجها وأهدافها داعياً إلى مساندتها ودعمها لمواصلة دورها الريادي في مجال طباعة الكتاب العربي في الهند.

وقد صاحب هذه المحاضرة معرض عن «الكتاب العربي المطبوع في الهند» استمر حتى يوم ٢١ محرم ١٤٢١هـ/الموافق ٢٦ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م، واحتوى المعرض على نماذج من الكتب، وصور من أغلفة الكتب المطبوعة في الهند بالحرف العربي، سواء أكانت باللغة العربية أم باللغة الفارسية أم بإحدى اللغات الهندية كالأردية وغيرها، كما وُزع خلال المعرض كتاب اشتمل على «قائمة بالكتب العربية المطبوعة في الهند من مجموعات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية» أعده حمد بن عبدالله الحماد ومحمد فاروق بكداش.

معرض للصور التاريخية بمكتبة الملك فهد

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير سطام بن عبدالعزيز نائب أمير منطقة الرياض مساء الإثنين ٢٨ ذي الحجة الموافق ٣ أبريل/نيسان الماضي مشروع ومعرض الأرشيف الوطني للصور التاريخية الذي نظمتها مكتبة الملك فهد الوطنية بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م.

يضم المشروع ٣٠ ألف صورة نادرة عن المملكة عرض منها الآن مجموعة منتقاة توثق مراحل تطور المملكة في جميع أوجه مجالات التنمية، مع صور نادرة لجلالة الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ وإخوانه وأبنائه، وصور نادرة للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة يعود تاريخها إلى عام ١٨٨١م.

ومن المقرر أن يستمر هذا المعرض ٤ أشهر.

الملتقى العالمي الأول للكاريكاتير

تحت رعاية الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولي عهد دبي نظمت مؤسسة البيان الإماراتية بالتعاون مع شركة بزنس كونكشن خلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٩ من مارس/آذار الماضي الملتقى العالمي الأول للكاريكاتير في إطار الفعاليات الثقافية لمهرجان دبي للتسوق ٢٠٠٠.

وقد شارك في هذا الملتقى، الذي يعد الأول من نوعه في المنطقة العربية، أكثر من مئة رسام جاؤوا من نحو ثلاثين دولة وقدموا ما يقرب من ٥٠٠ عمل فني. وكان من ضمن الحضور الفنان السوري علي فرزات رئيس رابطة فناني الكاريكاتير العرب، والبحريني عبدالله المحرقي، وكل من مصطفى حسين، وجمعة فرحات من مصر، وعبدالله العوضي من الكويت، وجيرمان أكزيل من الأرجنتين، وموريس فيليكوب من كندا، إضافة إلى عدد من فناني الكاريكاتير من داخل الإمارات منهم حيدر محمد، وحامد عطا، وحامد نجيب، وأحمد المهيري، وعارف عاشور، وهارون محمد وغيرهم.

وكان الملتقى قد خصص جناحاً خاصاً لتكريم ذكرى الفنان



صورة جماعية للمشاركين

ناجي العلي الذي دفع حياته ثمناً لأعماله التي دافع من خلالها عن قضية شعبه (الفلسطيني)، وحقه في البقاء والعيش الكريم، وقد عرضت فيه مجموعة من رسوماته الكاريكاتيرية التي لم تنشر من قبل.

وفي ختام الملتقى أقامت مؤسسة البيان حفلا كبيراً لتكريم الفنانين الذين شاركوا في الملتقى، وتخلل الحفل تقديم الجوائز. لأفضل الأعمال المشاركة التي قصرتها اللجنة على أعمال الفنانين المحترفين فقط مع استثناء أعمال الفنان ناجي العلي «تقديراً لمكانتها التي تنأى بها عن الدخول في دائرة التقييم والمنافسة»، كما صرح بذلك علي عبيد رئيس اللجنة.

وكانت الجائزة الأولى من نصيب الفنان الألباني ميدي بيلورتاجا، والثانية من نصيب الفنان المصري مصطفى حسين، بينما نال الجائزة الثالثة الفنان التونسي علي عبيد، وجاءت الرابعة من نصيب الفنان الأرجنتيني جيرمان أكزيل.

صدور النفتالين بالإسبانية

عن دار «المطبوعات الشرقية والمتوسطية» (إيديسيون ديل أوريونت إي ديل ميديتريانيو) في مدريد، صدرت في مطلع أبريل/نيسان الماضي رواية «حبات النفتالين» باللغة الإسبانية، للكاتبة العراقية عالية ممدوح، المقيمة في باريس، بعد صدورها بخمس لغات أخرى غير العربية منها الفرنسية والإنجليزية والهولندية.

وصدرت للكاتبة نفسها رواية جديدة عن دار الساقي تحمل عنوان «الغلامة» وتتناول مرحلة زمنية تمتد بين عامي ١٩٦٣م و١٩٧٧م، وتدور أحداثها في العراق، وتروي سيرة النساء والرجال المضطهدين في السجون، أو الذين وقعوا أسرى معتقداتهم ونزعاتهم المازوشية، وتعد الكاتبة العراقية روايتها الجديدة «الغلامة» تكملة لروايتيها السابقتين «الولع»، و«حبات النفتالين».

وستعيد دار «الآداب» في بيروت طباعة «الغلامة» بعد نفاد الطبعة الأولى منها. كما تُرجمت رواية «الولع» إلى الإنجليزية، ومن المقرر أن تصدر النسخة الإنجليزية في الخريف المقبل عن جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة.

تهريب ٢٥٠ ألف قطعة أثرية

أوردت صحيفة الأهرام القاهرية الصادرة بتاريخ ٢ أبريل/نيسان الماضي أن أحد أفراد عصابات تهريب الآثار من مصر إلى لندن اعترف في التحقيقات التي أجرتها معه الشرطة البريطانية «سكوتلانديارد» بأنه هرب كمية كبيرة من الآثار المصرية يبلغ عددها نحو ٢٥٠ ألف قطعة أثرية، وتفوق في حجمها وعددها كل ما سبق تهريبه.

وكانت سكوتلانديارد قد أجرت تحقيقاً مع أحد المتهمين في أحد مراكز الشرطة بجنوب إنجلترا خلال الأسابيع الماضية اعترف خلالها بأنه يعمل لحساب عصابة دولية لتهريب الكنوز الأثرية من مصر إلى لندن.

ومن جانبه ذكر مخبر سابق كان يعمل مع شرطة سكوتلانديارد في القسم الخاص بتعقب القطع الأثرية والفنية المسروقة أن عدة دول بينها مصر واليونان وتركيا وإيطاليا تتعرض لعمليات تهريب آثار واسعة النطاق على أيدي لصوص المقابر ومن يقومون بعمليات حفر من دون ترخيص.

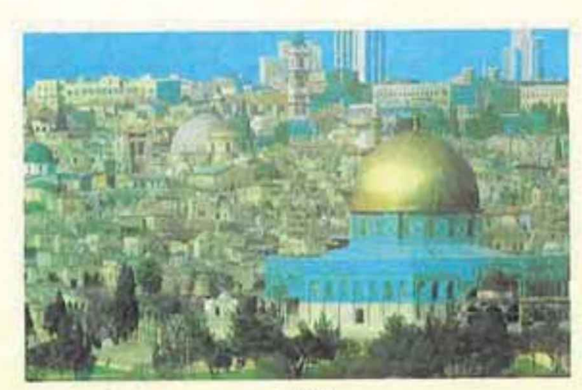
وصرح جيمس إيبسون مدير المكتب الدولي لتسجيل الآثار والأعمال الفنية المفقودة بأن عمليات التهريب الخطيرة تنفذها عصابات دولية يصعب التوصل إلى منظميها أو المسيطرين عليها، وأنه يتم القبض على أشخاص آخرين ممن يهربون الآثار من بلد إلى بلد، ويقدمون إلى المحاكمة، ويفلت من يقفون خلف هذه العمليات من العقاب.

والمعروف أن السنوات الأخيرة شهدت عمليات سرقة واسعة النطاق للآثار نفذتها العصابات الدولية في عدد من دول الشرق الأوسط لما تحويه من كنوز أثرية، وكانت الأمم المتحدة قد أقرت عام ١٩٧٠م اتفاقية حظر عمليات الحفر غير المرخص، وتحريم تصدير الآثار، إلا أن كميات الآثار المهربة الموجودة في الخارج حالياً تدل على عجز الاتفاقية عن الحد من عمليات التهريب.

موسوعة القدس

يقود فريق من الباحثين والأكاديميين الفلسطينيين منذ عدة شهور مشروعاً أكاديمياً ضخماً لإعداد «موسوعة القدس» التي سوف تصدر في أجزاء بعدد من اللغات منها العربية، والإنجليزية، والأوردو، والعبرية، ومن المقرر أن تصدر هذه الموسوعة في نهاية العام الحالي.

وقد صرح الدكتور حسين علي خاطر المدير العام لمؤسسة الصخرة للإعلام، ومقرها رام الله بالضفة الغربية، المشرف على هذا المشروع أن هناك تشويهاً إسرائيلياً متعمداً لتاريخ المدينة المقدسة على مدى أكثر من ثلاثين عاماً من الاحتلال ورأينا أن



القدس

من واجبنا إيضاح الحقائق العلمية التي تثبت عدم وجود أي تاريخ لليهود في القدس الشريف.

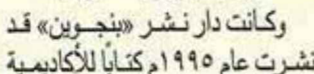
وتوقع الدكتور خاطر أن تكون نتائج هذا المشروع مخالفة للكثير من المعلومات الشائعة والمتداولة عن القدس حتى لدى الباحثين العرب والمسلمين.

المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج يخسر القضية

خسر المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج قضية التشهير التي رفعها ضد دار نشر «بنجوين» البريطانية والأكاديمية الأمريكية الدكتورة ديبرا ليبستات أستاذة الدراسات اليهودية المعاصرة في جامعة ايموري في أتلانتا بولاية جورجيا الأمريكية.

ديفيد إيرفينج

وكانت دار نشر «بنجوين» قد نشرت عام ١٩٩٥م كتاباً للأكاديمية الأمريكية بعنوان «نفي حدوث الهولوكوست: تنامي الهجمة ضد الحقيقة والذاكرة»، ذكرت فيه المؤلفة أن إيرفينج «ينكر حدوث الهولوكوست»، أي حدوث المحرقة اليهودية في العهد النازي، ووصفته بأنه من أنصار هتلر، وأنه أدى دوراً كبيراً في تزوير التاريخ.



وقد وصف القاضي تشارلز جري عند النطق بالحكم إيرفينج «بالعنصرية ومعاداة السامية»، وأضاف أن الادعاءات ضد إيرفينج على أنه «عنصري ومعاد للسامية وناكر لحدوث الهولوكوست ونشيط في أوساط المجموعات اليمينية المتطرفة» كلها صحيحة، وأورد القاضي في حيثيات الحكم «أنه يحرّف ويشوه الحقائق التاريخية لأسباب إيديولوجية».

ودافع إيرفينج عن نفسه، ونفى هذه التهم الموجهة إليه منذ بداية مداولات هذه القضية في يناير/كانون الثاني الماضي بقوله: «ليس في مقدور أي إنسان متمتع بكامل قواه العقلية، أو أن يكون عنده أدنى معرفة بما حدث في الحرب العالمية الثانية، أن ينكر حدوث المأساة مهما اختلفنا نحن المؤرخين على الوسائل، أو تاريخ أو حجم المأساة، أو أي جوانب أخرى منها»، وأضاف أنه غير مقتنع على الإطلاق بحدوث هذه المحرقة بالشكل الذي يتم تصويره.

وقال إيرفينج في مقابلة إذاعية معه قبل صدور الحكم: إنه تضرر كثيراً من كتاب ليبستات وأن سبيل معيشته قد تضرر بعد أن بدأت دور النشر ترفض نشر أبحاثه، بل إن حياته نفسها أصبحت مهددة.

وعلى صعيد ردود الفعل لخسارة إيرفينج لهذه القضية فقد رحب المحامي ألدريد تباشنيك، رئيس مجلس الأمناء اليهود في بريطانيا، في تقرير أوردته هيئة الإذاعة البريطانية «بي. بي. سي» بقرار المحكمة، قائلاً: «إنه سعيد جداً بقرار المحكمة ضد إيرفينج»، وأضاف أن إيرفينج «يهدف من نفي الهولوكوست إلى إعادة النازية» إلى الساحة السياسية الأوربية.

رحيل الكاتب السوري بوعلي ياسين

توفي في ١٣ محرم ١٤٢١هـ الموافق ١٨ أبريل/نيسان الماضي الكاتب والمفكر السوري بوعلي ياسين «ياسين حسين»، وقد شيع جثمانه إلى مسقط رأسه «عين الزهور» في محافظة اللاذقية.

ولد الكاتب بوعلي ياسين عام ١٩٤٢م، وحصل على الماجستير في العلوم الاقتصادية من ألمانيا الغربية، وظل يعمل ويعيش في اللاذقية موظفاً في مديرية التخطيط بعيداً عن الأضواء الثقافية والسياسية.

وقد صدر للكاتب الراحل أكثر من ٢٧ كتاباً، موضوعاً ومترجماً، كان أشهرها كتاب «الثالوث المحرم» الذي أعيد طبعه تسع مرات، و«خير الزاد من حكايا شهر زاد»، وهو بحوث في ألف ليلة وليلة.

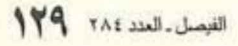
بالإضافة إلى عدد من المؤلفات الأخرى في الاقتصاد والاجتماع مثل «أزمة المرأة في المجتمع الذكوري»، و«العرب في مرآة التاريخ»، و«نحن والغير» وهو دراسة في النكتة العربية.

البرديات وكتابة التاريخ

عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، صدر العدد الثاني من سلسلة المحاضرات العامة، وموضوعه «أهمية البرديات في كتابة التاريخ الإسلامي» وهي محاضرة ألقاها الدكتور جاسر أبوصفية الأستاذ في قسم اللغة العربية بالجامعة الأردنية في ١٤٢٠/١/١٧هـ، وجاءت المحاضرة مطبوعة في ٢٤ صفحة حافلة بمعلومات طيبة عن أهمية المعلومات التي وردت في برديات وقف عليها المحاضر نفسه.

مخطوطة منمنمة في مركز الملك فيصل

اقتنى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية مؤخراً مخطوطة فارسية منمنمة بعنوان (بستان رستم) كتبت بخط



التعليق تبدأ بلوحتين تصوران جوانب من محتوى المخطوط وهناك لوحتان أخريان داخل المخطوط، وقد رسمت اللوحات بإتقان ينم على أنها من عمل فنان بارع لعله هو الناسخ نفسه الذي أشير إليه في نهاية المخطوط، وهو عبداللطيف المشتهر بأفلاطون، وقد خلص من نسخه في سنة ٩٦٨هـ.



صورة المخطوطة

مزاد للعملات والقطع الأثرية بالإمارات

أقيم في ٢٩ مارس/آذار الماضي مزاد الإمارات الثاني للعملات والأوراق النقدية، والقطع الأثرية والتحف الذي تنظمه مؤسسة العملات المعدنية والميداليات العربية بالتعاون مع شركة مزادات «بالدوين» المحدودة في لندن.

واحتوى المزاد على معروضات قدرت قيمتها المبدئية بعشرين مليون درهم شملت عملات يعود تاريخ بعضها إلى العصرين الأموي والعباسي، وتحف زخرفية تمثل مختلف العصور التاريخية الإسلامية والعربية.

وقد وجد المزاد، الذي نظم ضمن فعاليات مهرجان دبي للتسوق ٢٠٠٠، إقبالا كبيراً من الزوار والمهتمين باقتناء التحف الأثرية.

مهرجان الشعر المغربي الحديث

اختتمت بمدينة شفشاون المغربية في الثامن من شهر أبريل/نيسان الماضي فعاليات المهرجان الوطني الخامس عشر للشعر المغربي الحديث، والذي نظم تحت شعار «الشعر المغربي في عالم متغير» بمشاركة عدد كبير من الشعراء والنقاد المغاربة.



عبد الكريم الطبال

تميز مهرجان هذه السنة، الذي نظمته جمعية «أصدقاء المعتمد بن عباد» وفرع اتحاد كتاب المغرب بشفشاون بتنظيم لقاءات نقدية، وقراءات شعرية أكدت التطور الإيجابي الذي يعرفه الشعر المغربي الحديث ومواكبته «النسبية» للتحولات المجتمعية.

كما تميزت هذه الدورة بتنظيم قراءات شعرية حضرها جمهور غفير من متذوقي الشعر، إضافة إلى تنظيم معرض جماعي للفن التشكيلي استمر حتى ١٣ أبريل/نيسان الماضي.

حضر فعاليات المهرجان الشاعر المغربي عبدالكريم الطبال، وقد كرمه كتاب المغرب وجمعية أصدقاء المعتمد بن عباد بشفشاون التي أسسها الشاعر وأعطاها هذا الاسم.

رحيل الناقد العراقي المطلبي

دهم الموت فجأة فجر الثلاثاء ١١ أبريل/نيسان الماضي الناقد الدكتور عبدالجبار المطلبي في أثناء زيارة كان يقوم بها إلى العاصمة العمانية مسقط. وكان المطلبي في طريقه إلى العاصمة العراقية بغداد التي غاب عنها سنين طويلة. ودفن الجثمان في مدينة مطرح في السلطنة العمانية.

رحيل الروائي اليمني دماج



زيد مطيع دماج

توفي في ٢١ مارس/آذار الماضي بصنعاء الكاتب والروائي اليمني زيد مطيع دماج بعد صراع مرير مع مرض سرطان الدم الذي استمر معه ١٥ عاماً، وقد عد اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين - في بيان له - موته خسارة وطنية كبيرة.

ولد الكاتب الراحل في قرية «المجمر» بمحافظة إب عام ١٩٤٢م، وقد اشتهر بعدد من الأعمال الروائية والقصصية بدأها بمجموعة «طاهش الحوبان»، ثم مجموعة «العقرب»، فرواية «الرهينة»، ثم مجموعتي «الجسر»، و«أحزان البنت مياسة»، وأخيراً مجموعة «المدفع الأصفر»، وتعد رواية «الرهينة» من أهم أعماله الأدبية، وقد حصلت على عدد من الجوائز العربية والعالمية، ونشرت ضمن المشروع العالمي الذي ترعاه اليونسكو «كتاب في جريدة»، وترجمت إلى خمس لغات هي: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، واليابانية، والصينية، وطبع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.

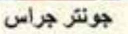
وبالإضافة إلى شهرته بوصفه كاتباً، تقلد الراحل عدداً من المناصب، فقد كان عضواً لمجلس الشعب التأسيسي، والمجلس الوطني، وعمل محافظاً لمحافظة المحويت.

ترجمة «الطبل الصفيح» إلى العربية

صدرت عن «دار الجمل» رواية «الطبل الصفيح» للكاتب الألماني جونتر جراس الحائز على جائزة نوبل للآداب مؤخراً وهي أولى ترجمات «دار الجمل» التي تنوي القيام بترجمة أعمال جونتر جراس كاملة. وقد قام بترجمة الرواية إلى العربية الكاتب العراقي حسين الموازني الذي سبق له القيام بعدد من الترجمات للأعمال الأدبية الألمانية مثل : «ثلاث نساء» للكاتب التعبيري روبرت موزيل، ورواية «التزوير» لنيكولاس بورن، ومختارات

قصصية للشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه تحت عنوان «وليمة العائلة»، وقد صدرت كلها عن «دار الجمل».

وتعد رواية «الطبل الصفيح»، التي أثارت جدلا واسعاً ومازالت، من أهم الأعمال الروائية الألمانية التي كُتبت بعد الحرب العالمية الثانية، وقد وصفها الناشر بأنها: «رواية منذرة عميقة الدلائل، اعتمدت في بعض تقنياتها على أسلوب السرد العربي القديم»


جونتر جراس

رحيل الباحثة الفلسطينية يسرى

توفيت مؤخراً في الولايات المتحدة الأمريكية الباحثة الفلسطينية يسرى جوهرية عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاماً بعد صراع مرير مع مرض السرطان.

ولدت يسرى جوهرية في مدينة القدس عام ١٩٢٥م، وورثت عن أبيها الاهتمام بالتراث والموسيقا، ويُعد كتابها «الفلكلور الفلسطيني»، الذي صدر عن مركز الأبحاث الفلسطينية تحت سلسلة كتب فلسطينية، مصدراً أساسيا لدراسة التراث الشعبي الفلسطيني، وهو يقع في ٢٥٦ صفحة من القطع الكبير.

وكانت الباحثة الراحلة قد اقترنت بالموسيقار سلفادور عرنيطة حيث التقيا معاً من خلال العمل في الجامعة الأمريكية ببيروت. وقد أقامت في عمان مدة ١٨ عاماً قبل سفرها إلى الولايات المتحدة قبل عامين.

ويذكر أن والد يسرى واصف عرنيطة كان قد أصدر كتابين قبل نحو نصف قرن الأول بعنوان «الذكريات الجوهرية»، والثاني بعنوان «تاريخ فلسطين المصور في العهد البريطاني».

مهرجان للسينما العربية في البحرين

اختتم في نهاية شهر مارس/آذار الماضي مهرجان السينما العربية الأول في البحرين بحضور عدد كبير من الفنانين والمفكرين والمخرجين من مختلف أنحاء العالم العربي، وقالت مصادر رسمية: إن المهرجان يرمي إلى دعم صناعة السينما العربية ويدفع بها نحو المزيد من النجاح والعطاء الجيد.

وقال مدير المهرجان بسام الذوادي: «إن السينمائيين في البحرين والوطن العربي وضعوا خطة لهذا المهرجان تعنى بالشكل الأكبر بإيجاد صناديق سينمائية عربية تدعم الفيلم العربي»، وأضاف أن المهرجان يرمي إلى العمل على خلق وتأسيس البنية التحتية للسينما بالتعاون مع الحكومات العربية ومحاولة جلب المنتجين العرب والأجانب لتصوير وإنتاج أفلامهم على الأراضي العربية.

وتبع المهرجان عرض لقطات من الأفلام المشاركة في المسابقة وتقديم الشخصيات المكرمة في المهرجان الذي استمر حتى نهاية شهر مارس/آذار الماضي.

معرض قصر الذهب والضوء

تحت عنوان «قصر الذهب والضوء» أقيم مؤخراً بمتحف جورجوران للفنون بالعاصمة الأمريكية معرض حول الكنوز الأثرية والفنية التي ضمها قصر توبسكابي في مدينة إستانبول التركية.

وتشمل مقتنيات هذا القصر، الذي كان مقراً لحكم الدولة العثمانية خلال الفترة من القرن الخامس عشر الميلادي حتى مطلع القرن العشرين، عدداً من المجوهرات النادرة المرصعة بالأحجار الكريمة والألماس ترجع إلى القرن الخامس عشر، بالإضافة إلى كرسي العرش للسلاطين العثمانيين، كما خصص جناح لعرض مقتنيات السلطان سليمان الأول الذي حكم تركيا خلال الفترة بين عامي ١٥٢٠م و١٥٦٦م.

ومن المقرر أن ينتقل المعرض إلى مدن أمريكية أخرى بعد الانتهاء من العرض في العاصمة والذي حدد له الخامس عشر من يونيو/حزيران المقبل.

طرق التجارة العالمية

تحت عنوان «طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ» ينظم اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ندوته السنوية خلال الفترة من ١٤ إلى ١٦ نوفمبر/تشرين الثاني المقبل.

وسوف تدور أبحاث الندوة حول المحاور التالية: النشاط التجاري على مستوى الدول والأقاليم في العصور القديمة، وطرق التجارة العالمية في العصور الوسطى، والتكامل بين الطرق البرية والبحرية عبر العالم العربي، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وأبعاده في عالم التجارة العالمية، والتنافس في السيطرة على طرق التجارة العالمية، ومكانة التجار وحرياتهم الخاصة والعامة.

تكريم الأمريكي لورن مازال

منحت أوركسترا برلين الفيلهارمونق قائد الأوركسترا الأمريكي الشهير لورن مازال ميدالية هانز فون بيولو؛ وذلك في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة بلوغه السبعين عاماً، وقد علق رودولف واتزال مدير الأوركسترا قائلا: «إن لورن يتمتع بعطاء فني خصب أهله لاحتلال مكانة مرموقة جديرة بالاحترام».


لورن مازال

وقد عرف لورن بالنبوغ منذ نعومة أظافره ليصبح في عام

١٩٦٠م أول أمريكي يقود أوركسترا متكاملة في مدينة بايروت الألمانية، كما رأس دار أوبرا فيينا خلال الفترة من عام ١٩٨٢م حتى عام ١٩٨٤م، ونال عضوية أوركسترا فرنسا منذ عام ١٩٨٨م.

العثور على الناي القديم

عثر مزارع عراقي مؤخراً على آلة موسيقية يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام، وقالت صحيفة «نبض الشباب» إن المزارع سعد سلطان الذي يسكن أحد أرياف مدينة بعقوبة على بعد ٧٠ كيلومتراً شرق بغداد، عثر في أثناء قيامه بحراثة أرضه على آلة ناي تعود إلى ما قبل الإسلام، وتابعت الصحيفة أن المزارع قام بتسليم الناي إلى الجهات الآثارية بالمدينة.

ترميم مخطوطات الحرم القدسي الشريف

في إطار سعيها لإعادة ترميم تراث مدينة القدس الشريف الذي تموله المملكة العربية السعودية، قام وفد من المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو» بزيارة «معهد الترميم للفنون» في مدينة فلورنسا في إيطاليا.

ووصفت وكالة الأنباء الفلسطينية التي أوردت النبأ هذا المعهد بأنه من أهم المعاهد في هذا المجال على الصعيد العالمي، وأضافت أن بعثة فلسطينية مكونة من خمسة طلاب تم إيفادها لدراسة ترميم المخطوطات ضمن خطة لإعادة ترميم جميع مخطوطات الحرم القدسي الشريف.

مخطوط موسيقي لجنازة الموسيقار باخ

عثر أخيراً على آخر مقطوعة موسيقية ألفها جوهان سباستيان باخ لعزفها خلال جنازته، في أرشيف ينتمي إلى أسرة الفنان حسب ما أعلنه كريستوف وولف، كاتب سيرة باخ.

وقال وولف: إن الأمر يتعلق بمقطوعة عجيبة وبليغة المعاني ستساعدنا على تكوين فكرة حول جنازة باخ التي لم نكن نعرف عنها شيئاً تقريباً.

وكان المخطوط الذي أُلف قبل وفاته في عام ١٧٥٠م منسياً في أرشيف ينتمي إلى أسرة باخ في كييف، عاصمة أوكرانيا، حسب ما أفادت صحيفة التايمز اللندنية، وقال وولف في تصريحات للصحيفة: إن هذا المخطوط البيوغرافي الرائع لم يره أحد، وقد انتقاه باخ خلال فترة مرضه قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من وفاته.

إحياء مكتبة القرويين

ضمن مشروع طموح يرمي إلى إحياء مدينة القرويين للفنون والثقافة يجري حالياً ترميم مكتبة القرويين بمدينة فاس المغربية الملحقة بأقدم جامعة في العالم تحمل الاسم نفسه بنيت في القرن الثالث الهجري «التاسع الميلادي».

وكان العاهل المغربي الراحل الحسن الثاني قد عبّر في شهر أبريل/نيسان من عام ١٩٩٨م عن رغبته في إقامة مشروع مدينة القرويين للفن والثقافة، وقرر أن تكون الساحة التاريخية باب المكينة المجاورة للقصر الملكي مكان المشروع حيث سيتم نقل المخزون العلمي للخزانة المقدر بـ ٢٥ ألف مؤلف و ٣٨٠٠ مخطوط.

رحيل الصحافي الكويتي جاسم المطوع


جاسم محمد المطوع

بعد صراع مرير مع المرض، توفي في الثاني من أبريل/نيسان الماضي الصحافي الكويتي جاسم محمد المطوع عضو مجلس إدارة وكالة الأنباء الكويتية «كونا» والعضو الأسبق في مجلس جمعية الصحافيين الكويتية ورئيس تحرير صحيفة الوطن الكويتية الأسبق.

ولد المطوع عام ١٩٤٣م، وحصل على إجازة في الأدب العربي من جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٨م، وعمل في الحقل التربوي مدة ثماني سنوات قبل أن يلتحق بالعمل الصحافي.

وقد عرف عن المطوع دفاعه عن حرية الصحافة، وإيمانه الكامل بحرية الرأي والتعبير.

معرض تاريخ المعلومة الصحفية

أقيم مؤخراً بمتحف الصحافة بنيويورك معرض بعنوان «تاريخ المعلومة الصحفية» قدمت خلاله أحدث التطورات التي أدخلت على عملية نقل المعلومة الصحفية وحرية الصحافة.

وكانت جمعية الحفاظ على حرية الصحافة - وهي مؤسسة أنشأها فرانك جانيس أحد أساطين الصحافة - قد قامت بتمويل هذا المعرض.

والمعروف أن متحف الصحافة أنشئ عام ١٩٩٧م بتكلفة بلغت ٥٠ مليون دولار.

المغرب والصحف الفرنسية

في بيان صدر عن شركة «لي نوفيل ميساجري دولابريس باريزيان» لتوزيع الصحف الفرنسية بباريس جاء فيه أن المغرب يحتل المركز الثالث بين البلدان المستوردة للصحف والمجلات الفرنسية بعد بلجيكا وسويسرا.

وأوضح بيان الشركة أن حجم الصحف والمجلات الفرنسية التي بيعت في المغرب ارتفع بنسبة ٤.٤ في المئة في عام ١٩٩٩م

لترتفع قيمة الداخيل المتأتية من هذه المبيعات إلى مليار و ٩٧٠ مليون فرنك فرنسي.

وتقول الشركة: إن الدول الخمس الأول من بين الدول المستوردة للصحافة الفرنسية هي بلجيكا وسويسرا والمغرب وإسبانيا وكندا.

ترشيح روائية سودانية لجائزة أورانج

رُشحت الروائية السودانية ليلى أبو ليلى مع عشرين كاتبة لنيل جائزة «أورانج»، وهي أكبر جائزة أدبية في بريطانيا، وتبلغ قيمتها ٣٠ ألف جنيه إسترليني، وستعلن اللائحة النهائية التي تضم ست روايات في ٨ مايو/أيار الجاري، بينما يعلن الفائز وتقدم الجوائز في ٦ يونيو/حزيران القادم في حفل يقام بهذه المناسبة.

وتحمل رواية الكاتبة السودانية عنوان «المترجمة»، قد صدرت عن دار «بوليغون» للنشر، وتدور أحداث الرواية حول الحب الإنساني والإلهي على السواء.

احتفائية ببنت الشاطئ

تحت عنوان «بنت الشاطئ: خطاب المرأة أمام خطاب العصر» أقامت مكتبة «القاهرة الكبرى» مؤخراً على مدى يومين احتفائية خاصة بالكاتبة الراحلة الدكتورة عائشة عبدالرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، وذلك بمشاركة عدد من الكتاب والنقاد ورموز الحركة النسائية في مصر.

معرض دولي للكتاب في لايبزيغ الألمانية

بمشاركة ثلاثين دولة من دول العالم ونحو ألفي دار نشر عالمية، ليس من بينها دولة أو دار نشر عربية، ، أقيم مؤخراً معرض الكتاب الدولي في مدينة لايبزيغ الألمانية.

ويعد معرض الكتاب الدولي في لايبزيغ الألمانية، الذي أقيم هذا العام تحت شعار «أوربا في زمن التحول» من أقدم المعارض، إذ يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

كتاب عربي يفوز بجائزة الآفاق البولونية


عبد التواب يوسف

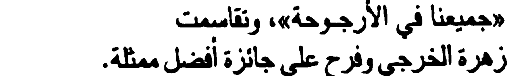
في حفلة حضرها عمدة بولونيا في القصر التاريخي الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس عشر، منحت لجنة تحكيم معرض بولونيا الدولي لكتاب الطفل جائزة «الآفاق الجديدة ٢٠٠٠» لدار الشروق كأفضل ناشر عن كتاب «حياة محمد في عشرين قصة»، للكاتب عبدالتواب يوسف، متفوقاً بذلك على ١٤٠٠ كاتب من ٣٠ دولة وصلت إلى التصفية النهائية، ولعل هذه أول مرة يفوز فيها كاتب عربي بجائزة أولى في معرض دولي.

وقد تزامن هذا الحفل مع بداية احتفالات بولونيا باختيارها العاصمة الثقافية لأوربا.

فوز الفيل بجائزة مسرح الكويت

سعد الله ونوس

فازت مسرحية «الفيل» للكاتب السوري الراحل سعد الله ونوس، ومن إخراج صابر غلوم بالجائزة الأولى لمهرجان الكويت المسرحي الرابع، وفاز بجائزة أفضل مخرج فيصل العميري عن مسرحية «رجال الأنابيب»، وفاز بجائزة أحسن ممثل الفنان جاسم النبهان عن مسرحية «جميعنا في الأرجوحة»، وتقاسمت زهرة الخرجي وفرح علي جائزة أفضل ممثلة.



كما كرم المهرجان، الذي استمر عشرة أيام، واختتم أعماله أخيراً، الفنانة المصرية أمينة رزق لتاريخها المسرحي الطويل. وكرم المهرجان أيضاً الفنان المسرحي الراحل محمد السريع، والمؤلف المسرحي الراحل حسين الصالح الحداد، وحجبت لجنة التحكيم المكونة من: الفنانة منى واصف، والناقد اللبناني بول شاؤول، والفنانة سعاد عبدالله، والمسرحي الكويتي حسن العلي جائزة أفضل مؤلف.

مثقفون وسياسيون في حوار بين الحضارات والثقافات

تعقد، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو»، ورابطة العالم الإسلامي، ومؤسسة الإمام الخوئي الخيرية في الخامس من يوليو/تموز المقبل، ندوة دولية في برلين تحت عنوان «الحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات».

وترمي الندوة إلى إبراز قيم الحوار والتعايش السلمي في المرجعية الإسلامية بين البشر، تأكيداً للريادة الحضارية التي تستند إليها مبادئ الإسلام الداعية إلى إقامة بناء حضاري، وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام، وتبديد الشبهات المغرضة المروجة عن الدين الإسلامي، وتأكيد قدرة الثقافة الإسلامية على معالجة قضايا العصر ومشكلاته، ودعي إلى جانب علماء الدين الإسلامي، صلاح الدين الجعفراوي المنسق العام لإستراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، وعدد من السياسيين لإلقاء كلمات في الندوة من بينهم الرئيس البوسني علي عزت بيجوفتش، والرئيس الجنوب الإفريقي السابق نيلسون مانديلا، وولي العهد البريطاني الأمير تشارلز.

جمعية المؤرخين والآثاريين في دول الخليج العربية


فهد السماري

شهدت الرياض خلال الفترة من ٢٠ إلى ٢٣ محرم ١٤٢١هـ (٢٥ - ٢٨ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م) نشاطاً علمياً محوره تاريخ وآثار شبه الجزيرة العربية حيث التقت مجموعة من المؤرخين المنتمين إلى جمعية المؤرخين والآثاريين في بلدان الخليج العربية في ضيافة دارة الملك عبدالعزيز بالرياض واستمعوا إلى أكثر من خمسة وعشرين بحثاً تنوعت موضوعاتها حول قضايا مختلفة تخص تاريخ شبه الجزيرة العربية في القديم والحديث.

الصدى تكرم المبدعين

أقيم مؤخراً بدبي حفل تسليم جوائز مسابقة «المبدعون العرب للشعر والقصة القصيرة» التي نظمتها مجلة «الصدى» الإماراتية المتخصصة في الشعر والأدب، والتي تحتفل هذا الشهر بمرور عام على انطلاقتها، وذلك تحت رعاية ولي عهد دبي، حيث حاز الجائزة الأولى في الإبداع الشعري الشاعر السعودي جاسم الصحيح مناصفة مع الشاعر العراقي عارف السعدي.

وقد حاز الصحيح الجائزة عن قصيدته «ارتطام بجدران الذات» التي قيل عنها: «إنها تحاكي فلسفة أبي العلاء المعري الشعرية».

الجدير ذكره أن الصحيح كان قد حصد عدداً من الجوائز منها: جائزة الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير عام ١٩٩٩م لأحسن ديوان شعر عن ديوانه «ظلي خليفتي عليكم»، وفاز مؤخراً وللعام الرابع على التوالي بجائزة الشيخ راشد النعيمي للثقافة والعلوم عن قصيدته «ساقيتان في ذاكرة الحقل»، وجائزة عبدالعزيز البابطين لأفضل قصيدة عربية عن قصيدة «عنترة في الأسر»، وفاز بجائزتي الطائف وتبوك للشعر.

القبض على سارق التحف

أكثر من ٤ آلاف قطعة أثرية ما بين إغريقية وفينيقية وفرعونية ووثائق وطنية ورسوم تاريخية غاية في الأهمية سرقها من متحف آثار كاتالوينا بإسبانيا موظف كان يتولى العمل في إدارة مخازن المتحف بين عامي ١٩٩٥ و١٩٩٧م ويدعى م.ك (٥٢ عاماً)، حيث قام بنقل الآثار من مخازنها إلى بيوت تعود إليه (جعلها مخزناً بديلاً)، وأخذ يبيعها لمحلات بيع التحف وشرائها بعد أن ترك العمل في المتحف.

بدأت الشرطة الإسبانية تحرياتها بعد أن عثرت على قطع أثرية ووثائق تاريخية وطنية تباع في الأسواق، وألقت القبض على أحد باعة التحف الذي اعترف بتعامله مع الموظف المذكور الذي ألقي القبض عليه فيما بعد، فوجد لديه ٤ آلاف قطعة أثرية في بيوته التي يملكها في مدينة كاتالوينا (شمال شرق إسبانيا).

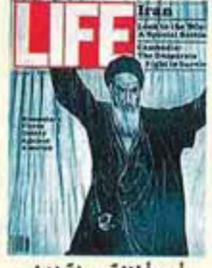
وقد أطلقت الشرطة سراح م.ك إلى أن يحين موعد محاكمته.

ملصقات فرنسية للبيع

عرضت مؤخراً في صالة فزادت بفندق شارتر بالعاصمة الفرنسية مجموعة من الملصقات (الإفيشات) السياسية التي ظهرت في فرنسا في أثناء الحرب العالمية الثانية والتي كانت تثير حماسة الفرنسيين بشأن الكفاح ضد الاحتلال الألماني بفرنسا.

ومن بينها ملصق يصور أحد العمال الفرنسيين وهو يضع يده على مدخنة أحد المصانع كتب عليها «إننا متمسكون بالعهد» والذي قدر بنحو ٨٠٠٠ فرنك، وملصق لجان دارك تحمل سيفين بين يديها، قدر بمبلغ ٨٠٠ فرنك وآخر يصور سلاح النصر قدر ثمنه بنحو ٥٠٠ فرنك.

مجلة لايف تتوقف عن الصدور



أحد أغلفة مجلة لايف

من المقرر أن تتوقف مجلة لايف الأمريكية الشهيرة عن الصدور للمرة الثانية خلال هذا الشهر «مايو/أيار» وذلك بسبب انخفاض التوزيع وتراجع العائدات الإعلانية، وسيقتصر نشاطها على إصدار أعداد دورية خاصة حول الموضوعات المهمة.

وكانت مجلة لايف المشهورة بالتحقيقات المصورة قد أدت دوراً كبيراً في التأثير في الرأي العام الأمريكي خلال حرب فيتنام عبر نشر صور مثيرة تعكس فظاعة هذه الحرب، في وقت لم تكن كاميرات التلفاز قد بدأت في نقل الصورة الحية.

وكانت المرة الأولى التي توقفت فيها هذه المجلة عن الصدور، ولهذه الأسباب نفسها، عام ١٩٧٢م ولمدة ست سنوات لتعاود الصدور بعد ذلك شهرياً بعد أن كانت تصدر أسبوعياً.

المسابقة التاسعة لنادي المنطقة الشرقية الأدبي

بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٠م، ينظم نادي المنطقة الشرقية الأدبي بالدمام مسابقة في الشعر والقصة والبحث، بحيث تعبر القصيدة عن الواقع الثقافي الذي تعيشه المملكة، وأهمية اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٠م، وتستلهم القصة القصيرة أحداثها من البيئة السعودية، وما طرأ عليها من تحولات فكرية واجتماعية، على أن يكون البحث دراسة عن شخصية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل

ابن فهد بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وأثره في خدمة الفكر بالمملكة.

وقد خصص لكل مجال من مجالات المسابقة ثلاث جوائز: الجائزة الأولى ثلاثة آلاف ريال، والثانية ألفان وخمسمئة ريال، والثالثة ألف ريال.

وفرصة الاشتراك متاحة للسعوديين والعرب المقيمين في المملكة بشرط أن تكتب الأعمال باللغة العربية الفصحى، وألا يشترك المتسابق بأكثر من عمل.

تسلم الأعمال المشاركة إلى إدارة النادي مباشرة، أو ترسل إليها على صندوق البريد ذي الرقم ٨٤٣٨ الدمام والرمز البريدي ٣١٤٨٢ في موعد أقصاه نهاية شهر ربيع الآخر سنة ١٤٢١هـ.

القند في ذكر علماء سمرقند


غلاف الكتاب

عن مركز نشر التراث المخطوط في طهران صدرت في عام ١٩٩٩م طبعة جديدة محققة من كتاب «القند في ذكر علماء سمرقند» تأليف نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي، تولى تحقيقها يوسف الهادي، واحتوت الطبعة على تراجم سقطت من النسخة التي نشرها محمد نظر الفاريابي في الرياض، واحتوت مقدمة هذه الطبعة الجديدة على نقد لعمل محمد نظر الفاريابي، ويعد كتاب القند،من أهم المراجع الخاصة بالتراجم والرجال لأعلام ما وراء النهر إلى القرن السادس الهجري، وفيه معلومات مهمة يختص بها.

العرب وموقعهم من التغيرات السياسية والاقتصادية القادمة

عقدت جامعة دمشق بالتعاون مع الأمانة العامة بجامعة الدول العربية المؤتمر السنوي الرابع للمركز العربي للدراسات الإستراتيجية والمؤتمر الأول لمركز الدراسات الإستراتيجية بجامعة دمشق في الفترة ما بين ١٠ و١٢ أبريل/نيسان ٢٠٠٠م.

وتركز الاهتمام حول التحولات العالمية على المستوى الدولي في عدة جوانب وتحليلها على ضوء المعطيات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية؛ ففي الجانب السياسي قدمت ورقتا عمل تناولت الأولى: اتجاهات التحولات الدولية القادمة مع الاهتمام بهيكلة النظام العالمي وآفاق تطوير العملية الديموقراطية؛ والحديث عن العولمة. وخصصت الورقة الثانية للحديث عن الإستراتيجية التي سيقوم عليها الوطن العربي في القرن المقبل.

وفي الجانب الاقتصادي قدمت ورقتا عمل أولاهما عن: التحولات الاقتصادية وأثرها في الوطن العربي مع حديث عن العولمة وتأثير صنع القرار الدولي وأثره في الدول النامية. وأما الورقة الثانية: فكانت للحديث عن الخصخصة وأهمية وجودها في الوطن العربي مع الاستفادة من التجربة العربية في هذا المجال.

وفي الجانب الثقافي والاجتماعي قدمت ثلاث أوراق الأولى منها: تضمنت موضوعات ثرية وجديرة بالنقاش وهي تدور في موضوعات المثقف العربي في مواجهة التحولات القادمة وخصوصية الثقافة العربية، والصدام بين الثقافات وأثره في المثقف العربي. وتناولت الورقة الثانية: أثر التحولات العالمية في التركيبة الاجتماعية في الوطن العربي. بينما كان الحديث في الورقة الثالثة: عن أثر التحولات القادمة في المرأة العربية.

سكاكا الجوف في القرن العشرين



غلاف الكتاب

عن دار بيسان للنشر والتوزيع بلبنان، صدر حديثًا كتاب «سكاكا الجوف في نهاية القرن العشرين... التحديث والتنمية وتحولات النخبة في الريف العربي السعودي» لمؤلفه الدكتور متروك ابن هايس الفالح أستاذ العلوم السياسية بجامعة الملك سعود بالرياض.

يحاول الكاتب الإجابة عن سيرورة العملية التحديثية وقواها بالمنطقة، ومدينة سكاكا الجوف تحديداً، وما آثارها في مستوى أبعاد التنمية، وما دور الإدارة المحلية والمركزية في ذلك؟ وما آثار عمليات التحديث في مستوى النخبة المحلية من حيث طبيعة تكوينها ومكانتها ومصادرها واتجاهاتها وعلاقتها بغيرها من التكوينات التقليدية، وكذلك تجاه الإدارة المحلية وفي إطار محور الدولة والمجتمع؟

علاقة المثقفين العرب بالرياض

نظمت الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ندوة بعنوان «علاقة المثقفين العرب بالرياض»، وذلك بمناسبة اختيار الرياض عاصمة للثقافة العربية، أدار هذه الندوة د. مرزوق بن تنباك، وشارك فيها: د. نذير العظمة، ود. عزالدين عمر موسى، ود. محمد خير البقاعي.

وقد تحدث الحضور عن معلوماتهم الأولية عن الرياض قبل زيارتهم لها للمرة الأولى، ومدى مطابقة ما يسمعون أو يطالعون عنها للواقع، وكان الحديث واضحاً لا تنقصه الصراحة، كما تحدث الحاضرون عن تطلعاتهم لما يجب أن تكون عليه الرياض

بمناسبة كونها عاصمة للثقافة العربية.

فمن ضمن المحاور التي تحدث عنها الدكتور نذير العظمة مشاهداته للرياض في أول زيارته لها، وعرض بشكل سريع للكثير من الأطروحات العلمية التي أشرف عليها أو راجعها للدارسين من أبناء الرياض، كما تحدث عن قصائده التي كانت الرياض ملهمة له فيها.

وتحدث د. عزالدين عمر موسى عن أول أيام إقامته بالرياض، وكيف تغيرت الصورة التي كانت لديه عنها؟ وأطال الحديث عن مجالس الرياض الثقافية، وعن الحوارات التي تعقد فيها بطرائق عالية في الطرح والجراءة الملتزمة.

بينما ذكر الدكتور البقاعي اتصاله بالمثقف السعودي من خلال مجلتي عالم الكتب والفيصل الصادرتين من مدينة الرياض.

ثم تلى ذلك عدد من المداخلات العلمية والصحفية التي أثرت الحوار.

حكايات عبدالكريم الجهيمان باللغة الروسية

صدر مؤخراً عن مركز البحوث الإستراتيجية والسياسية في موسكو كتاب: «حكايات شعبية عربية» باللغة الروسية، وهو ترجمة لحكايات مختارة من مجموعة الأستاذ: عبدالكريم الجهيمان: «أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب». قام بنقلها إلى اللغة الروسية الدكتور شاه رستم شاه موساروف أستاذ اللغة الروسية في كلية اللغة والترجمة في جامعة الملك سعود.

غلاف الكتاب

وقع اختيار الدكتور شاه رستم على نماذج من الحكايات من منطلق أن هذه النماذج هي الأكثر قدرة على رسم صورة واضحة لإنسان وسط الجزيرة العربية، فلم يكن هدفه مقتصراً على تقديم هذه الحكايات إلى القارئ باللغة الروسية فحسب، بل حرص من خلال هذه القصص على تعريف العادات والتقاليد والمعتقدات السائدة، في مجتمع شبه جزيرة العرب، الذي مازال مجهولاً للكثير، ولاسيما لشعوب جمهوريات آسيا الإسلامية. ويعد هذا العمل أول عمل يترجم بعناية حكاية شعبية من جزيرة العرب إلى اللغة الروسية.

وإن من الملاحظات الجديرة بالاهتمام التي وردت في تلك المقدمة ما يتعلق بالخصائص العامة لهذا الفولكلور، فقد تميزت حكايات مجموعة عبدالكريم الجهيمان بالقصر والتكثيف في المعنى، كما يندر في هذه الحكايات وصف الطبيعة.

تضمن الكتاب مسرداً بالكلمات والمصطلحات التي تخللت هذه القصص مثل: قاضي، فقيه، عفريت، غول، سموم، مثقال، قنطار، وغيرها.

والكتاب من القطع الصغير ويقع في ٣١٢ صفحة.

ندوة ثقافة الطفل

في إطار مشاركة وزارة المعارف في إعلان الرياض عاصمة للثقافة العربية في هذا العام أقامت وكالة الوزارة للشؤون الثقافية معرض الطفل الثقافي الأول، في الفترة من ١٧ إلى ١/٢٧ سنة ١٤٢١هـ، وعقد على هامش هذا المعرض محاضرة بعنوان ندوة ثقافة الطفل في مساء يوم الأحد ١٨ محرم سنة ١٤٢١هـ، واشترك فيها: د. إبراهيم بن محمد أبوعباة، وتحدث عما يكتب للأطفال كما وكيفاً، مع تركيز على الشعر الموجه للطفل، بينما تحدث الأستاذ القاص محمد موفق سليمة عن طرائق الاتصال بالأطفال، وكيفية الحوار والتفاهم معهم بالطرائق التي توصلهم إلى القناعة بما يلقى إليهم من توجيهات، وكان آخر المشاركات للدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع عن معالم مستقبل ثقافة الطفل العربي في ظل وسائل المعلومات الحديثة، وتعدد قنوات المعرفة لدى الطفل، أعقب ذلك مداخلات الحضور ومناقشاتهم.

محاضرة عن آثار الجزيرة العربية

بالتعاون بين وكالة وزارة المعارف للآثار والمتاحف، وسفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالرياض ألقى الدكتور باول مايكل تايلور، مدير برنامج تاريخ التراث والثقافة الآسيوية ومدير قسم الأعراق والأجناس الآسيوية محاضرة بعنوان: «تراث شبه الجزيرة العربية ومتاحف المستقبل» في المتحف الوطني بمركز الملك عبدالعزيز التاريخي بالرياض يوم الاثنين ٥ محرم سنة ١٤٢١هـ الموافق ١٠ أبريل/نيسان عام ٢٠٠٠م.

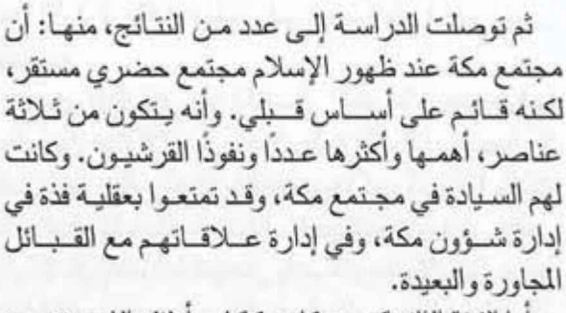
ببلوجرافيا البداوة العربية


غلاف الكتاب

صدر حديثاً عن مكتبة الملك فهد الوطنية كتاب بعنوان «البداوة العربية... ببلوجرافيا تحليلية مختارة» من إعداد د. أبوبكر أحمد باقادر، أستاذ علم الاجتماع في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

يضم الكتاب ستة أبواب رئيسة بالإضافة إلى ثلاثة كشافات للعناوين والموضوعات والمؤلفين مرتبة ألف بائياً.

والكتاب مسح ببلوجرافي للمواد العلمية المنشورة عن البدو والبداوة.



البابطين، إلهام أحمد/ الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي.ـ الرياض: إ.أ. البابطين، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٥٤٢ص.

يقع الكتاب في خمسة فصول: يبحث الفصل الأول منه في تركيب مجتمع مكة. ثم تم تقسيم هذا الفصل ثلاثة أقسام، تناول القسم الأول التركيب السكاني في مكة عند ظهور الإسلام. وفي القسم الثاني حاولت المؤلفة تقصي التحركات السكانية منذ ظهور الإسلام حتى نهاية فترة الدراسة، ثم بينت التغيرات التي طرأت على أوضاع بعض الفئات السكانية في مكة منذ الفتح حتى نهاية العصر الأموي. وفي القسم الثالث حاولت معرفة تقدير حجم السكان بمكة في مطلع فترة الدراسة ووسطها ومنتهاها.

أما الفصل الثاني فيدرس الأنشطة التي مارسها أهل مكة في فترة الدراسة، وخصص الفصل الثالث لدراسة الأسرة في مكة.

وجاء الفصل الرابع للحديث عن أساليب المعيشة، وتشمل الأطعمة والأشربة، ثم الألبسة والزينة والحلي. أما الفصل الخامس والأخير فيتناول المجالس وأساليب الترفيه.

وقد ألحقت بالبحث ملاحق تتكون من: خرائط توضيحية لمعالم مكة وأقسامها الجغرافية في فترة الدراسة، وفي العصر الحالي. ومنها: ملحق نسب قريش وسائر كنانة. ومنها الملحق الموضح لمعدل الزوجات والأبناء لدى رجال قريش عند ظهور الإسلام وفي العصر الأموي. وأوردت ملحقًا بولاة مكة منذ فتحها حتى نهاية فترة الدراسة ويتضمن أيضًا ذكرًا لخلفاء الدولة الإسلامية في فترة الدراسة.

حرصت هذه الدراسة على أمور ثلاثة: أولها: تقصي كل جوانب الحياة الاجتماعية بمكة. وثانيها: ملاحظة مدى الاستمرار والتغير من خلال المقارنة بما كان سائدًا في مجتمع مكة قبل الإسلام، ثم ملاحظة الاستمرار والتغير خلال فترات الدراسة. وثالثها: مدى التأثير الذي أصاب مجتمع مكة؛ إما نتيجة للتغيرات الاقتصادية، وإمّا لتأثير سكان مكة الوافدين من البلاد الإسلامية المفتوحة، وإمّا التأثر بما كان في المجتمعات الإسلامية الأخرى. وانتقل إلى مجتمع مكة عن طريق وسائط متنوعة ومتعددة.

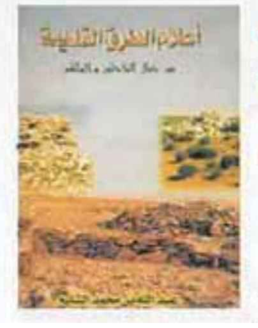
ثم توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، منها: أن مجتمع مكة عند ظهور الإسلام مجتمع حضري مستقر، لكنه قائم على أساس قبلي. وأنه يتكون من ثلاثة عناصر، أهمها وأكثرها عددًا ونفوذًا القرشيون. وكانت لهم السيادة في مجتمع مكة، وقد تمتعوا بعقلية فذة في إدارة شؤون مكة، وفي إدارة علاقاتهم مع القبائل المجاورة والبعيدة.

أما الفئة الثانية من سكان مكة فهم أولئك الذين ينتمون في نسبهم إلى قبائل عربية غير قريش جاؤوا إلى مكة، وحالفوا أهلها، وامتزجوا بهم عن طريق الزواج والمشاركة بكل أسباب الحياة.

أما الفئة الثالثة من السكان فهم الموالي والرقيق ومنزلتهم في المجتمع أدنى من منزلة قريش والحلفاء بكثير، ومارسوا أعمالا مختلفة، وأصولهم تعود إلى بعض أقاليم الجزيرة العربية، وإلى إفريقية وفارس والروم.

تبين من خلال الدراسة تنوع الأنشطة التي اشتغل بها أهل مكة من أجل تأمين معيشتهم، وأهم هذه الأنشطة السكانية العمل بالتجارة، فكان أكثر أهل مكة يرتبط بالتجارة والكسب منها.

أما النشاطات التي توازي التجارة، وتتفاعل معها فهي العمل بالحرف سواء أكانت إنتاجية، مثل الدباغة والخرازة والحدادة والنجارة والغزل والخياطة وصناعة الأطعمة، أم خدمية، مثل مهن البنائين والجزارين والسائقين والحطابين والحمالين والحلاقين.



الشايع، عبدالله بن محمد/أعلام الطرق القديمة: بين خيال الباحثين والواقع.ـ الرياض: مرامر للطباعة الإلكترونية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١١٩ص.

اختلف المؤلف مع علماء الآثار والرحالين والمستكشفين بشأن حقيقة الصُّوى والدوائر والمذيلات الحجرية المنتشرة بكثافة في أرض المملكة العربية السعودية والتي تباينت فيها وجهات نظرهم: فعدها بعضهم مساكن ومقابر تعود إلى عصور حجرية، وعدها آخرون أماكن لأمور تعبدية كعبادة النجوم، بينما قال بعضهم: إنها أمور لها علاقة بالسحر والشعوذة، وخلص المؤلف إلى القول بأن جميع أصحاب

هذه الآراء لم يذكروا دليلاً واحداً مبنياً على أساس علمي يقتنع به.

ويرى المؤلف في هذا الكتاب أن أغلب ما شاهدوه ووقفوا عليه من هذه الآثار هي أعلام طرق للقوافل القديمة ولا شيء غير هذا، وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً من أجل إثبات هذه الحقيقة؛ وذلك من خلال المسح الذي قام به في نواحي المملكة المختلفة، كما استعان بكتب التراث ولا سيما معاجم اللغة العربية ودواوين الشعر في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام والعصر الأموي.

وكتب الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري أستاذ آثار الجزيرة العربية وتاريخها القديم بجامعة الملك سعود مقدمة ضافية للكتاب دعا في ختامها إلى قيام فريق علمي يضم علماء الآثار والجيولوجيا والجغرافيا والبيئة تتبناه الدولة، وتشرف عليه مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية للاستفادة من كل منجزات العصر بما في ذلك الأقمار الصناعية والحاسوب، حتى نصل إلى حقيقة نقبل بها جميعاً.

وأورد الكاتب في نهاية الكتاب نماذج لأشكال الأعلام الواقعة على مسارات طرق الحج والتجارة التي تم مسحها، وختم بفهارس للمصادر والمراجع والأماكن والصور والمناظر.

القويز، عبدالله إبراهيم/ التخصيص: أهدافه وأسسه وفوائده وشروط نجاحه.- الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ٦٠ص (سلسلة دراسات معاصرة؛ ١).

شاعت حديثاً كلمة «التخصيص» واقترنت بالنشاطات التي ترمي إلى التحويل الكلي أو الجزئي للأصول المملوكة للحكومة إلى القطاع الخاص، وقد وجد هذا الطرح قبولاً وحماسة في كثير من الدول المتقدمة والنامية على حد سواء، وأصبح التخصيص شعاراً للتنمية الاقتصادية تتبناه معظم الأنظمة السياسية في جميع أنحاء العالم.

عالج المؤلف في هذا الكتاب موضوع «التخصيص» في مقدمة وأربعة فصول، جاء فصله الأول عن «تطورات مفهوم التخصيص»، و«تعريف التخصيص وتحديد أهدافه»، وتناول فصله الثاني «الأسس التي تنطلق منها عملية التخصيص»، وناقش الفصل الثالث «قضايا لها علاقة مباشرة بعملية التخصيص»، بينما اقتصر الفصل الرابع على «ملاحظات ختامية»، و«الهوامش».



الرشيد، عدنان محمد/ الأدب الألماني من الكلاسيكية إلى الرومانتيكية.- الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٩٩٩م، ٣٧١ ص (سلسلة كتاب الرياض؛ ٦٩).

يتناول الكتاب الأدب الألماني خلال عصر التنوير ثم الكلاسيكية والرومانتيكية، أي الفترة من عام ١٧٢٠م حتى عام ١٨٣٢م (العام الذي مات فيه الشاعر الألماني جوته)، هو عصر انتهاء مرحلة الكلاسيكية الألمانية.

يقع الكتاب في مقدمة وأحد عشر فصلا، تناول المؤلف في المقدمة، بإيجاز، تاريخ الأدب الألماني منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي حتى عام ١٨٣٢م.

وجاءت فصوله الأحد عشر كالآتي: «عصر التنوير» و«الأدب المسرحي الكلاسيكي»، و«أهم مسرحيات لسنغ وكتاباته النظرية»، و«ممثلو عصر التنوير»، و«مرحلة العاصفة والاندفاع»، و«أهم مسرحيات جوته ورواياته»، و«جوته والأدب العربي القديم»، و «فردريك شلر... والأدب المسرحي» و«جوته والأدب الألماني»، و«التطور الفكري لجوته وشلر من العاصفة والاندفاع إلى المرحلة الكلاسيكية»، و«المدرسة الرومانتيكية».



كالفينو، إيتالو/ ست وصايا للألفية القادمة، ترجمة: محمد الأسعد.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٩م، ١٢٧ص (سلسلة إبداعات عالمية؛٣٢١).

يحتوي الكتاب على خمس محاضرات، أعدها الكاتب الإيطالي إيتالو كالفينو (١٩٢٣ - ١٩٨٥م)، مساهمة في إحياء ذكرى تشارلس إليوت نورتون (١٨٢٧ - ١٩٠٨م)

أحد أساتذة جامعة هارفارد الأمريكية البارزين الذين يولون الأدب الإيطالي عناية خاصة، ولكن المنية عاجلت الكاتب قبل سفره إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإنجاز هذه المهمة عام ١٩٨٥م.

وكان الكاتب باتريك جراياه قد قام بمساعدة الكاتب في إعداد هذه المحاضرات باللغة الإنجليزية مع ترجمة الشواهد الواردة فيها باللغات اللاتينية والفرنسية والإيطالية والإسبانية إلى الإنجليزية.

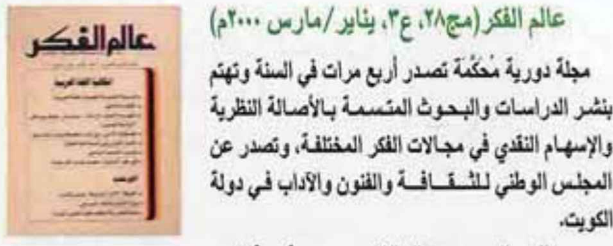
وتكمن أهمية هذه المحاضرات - كما يقول الناشر - «في كونها إطلالة واسعة على القيم الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية التي شغلت عقول كبار مثقفي الحضارة الغربية على مر العصور، وكذلك في كونها تعبيراً عن بصيرة كاتب انشغل كثيراً بتحليل عملية الإبداع الأدبي والفني».

الجاسر، حمد/إطلالة على العالم الفسيح بين الشرق والغرب.. الرياض: دار اليمامة للبحث والنشر، ١٤١٩هـ ٣٨٢ص.

هذا الكتاب هو الثالث من رحلات حمد الجاسر، وفيه قدم وصفاً تفصيلياً لرحلاته إلى عدد من أقطار العالم شرقاً وغرباً، شملت ألمانيا والنمسا، وهولندا، وانجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، واليابان، والصين، والهند، والفلبين، وسنغافورة، وباكستان، وأمريكا، وغير ذلك من الدول.

يعترف الكاتب أنه لم يكن يقصد من زياراته لهذه البلاد معرفة أحوالها أو ما تمتاز به من مظاهر، وإنما قصد منها تحقيق رغبات خاصة به تمثلت بالاستفادة مما تحويه مكتباتها العامة من مقتنيات للكتب والمخطوطات العربية بالمطالعة أو الاقتناء أو التصوير، ومعاودة بعض الأطباء في تلك البلاد لمعالجة بعض العلل التي يشكو منها، أو مرافقة من هو بحاجة إلى رفقة من أقاربه.

أورد الكاتب في خاتمة الكتاب قائمة بالمحتويات، وكشافاً بأسماء الرجال والنساء، وآخر بالمواقع «المدن والقرى وغيرها»، وأخيراً ببعض الأمم والقبائل والجماعات.



عالم الفكر (مج٢٨، ع٣، يناير/مارس ٢٠٠٠م)

مجلة دورية مُحكّمة تصدر أربع مرات في السنة وتهتم بنشر الدراسات والبحوث المتسمة بالأصالة النظرية والإسهام النقدي في مجالات الفكر المختلفة، وتصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت.

صدر العدد الجديد من عالم الفكر ومحوره في هذا العدد قضية «إشكالية اللغة العربية». فكتب د. عبدالله حامد حمد في «فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية»، ومحمد سويرتي في «اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي»، ود. محمد سالم ولد محمد الأمين حول «مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة»، وغير ذلك من الموضوعات.

وفي باب آفاق نقدية: عرض لكتاب «العولمة: الآثار البشرية» قدمته د.شفيقة بستكي، وكتب د. أحمد صقر بعنوان «بين التذوق والنقد المسرحي: دراسة تحليلية لجماليات التلقي المسرحي»، وتناول د. عمر خليفة «علم النفس والتحكم: نظرة للحرب الباردة».

مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (س٢٣، ع٥٧، ربيع الآخر - رمضان ١٤٢٠هـ/يوليو/تموز - ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٩م).

مجلة متخصصة محكمة تصدر مرتين في السنة، وجاء هذا العدد حافلا بموضوعات ثقافية وأدبية وتاريخية، ففي مجال البحوث كتب الدكتور حكمة علي الأوسي عن «التأثير الإسلامي في كوميديا دانتي»، والدكتور زكريا أبوحمدية عن «حركات التشكيل في الكتابة العربية وأثرها في مستوى الاستيعاب»، وتناول الدكتور إسماعيل أحمد العالم «أثر القرآن الكريم في شعر الأخطل»، وناقش الدكتور فيروز الموسى «المقدمة الغزلية للمدحة النبوية الأندلسية».

وفي العدد مراجعات لبعض الكتب، وتعليقات ومناقشات، وأخبار عن المجمع اللغوي ونشاطاته.

عالم الكتب (مج٢١، العددان الثاني والثالث، رمضان - شوال/ذوالقعدة - ذو الحجة ١٤٢٠هـ/يناير/ - فبراير/مارس - أبريل ٢٠٠٠م)

مجلة محكّمة متخصصة في الكتاب وقضاياه تصدر عن دار ثقيف للنشر والتأليف.

وصدر العدد الجديد من المجلة مزدوجاً يحمل العددين الثاني والثالث، وقد جاءت المجلة غنية بعدد من الموضوعات، ففي باب الدراسات كتب فؤاد حمد فرسوني عن «معالجة المسلسلات في تصنيف ديوي العشري: دراسة في المنهج»، ومحمد مراح عن «إسهام مجلة المسلم المعاصر في أسلمة الإعلام»، وتناول محسن السيد العريني موضوع «القفز على القمر: إنتاج مقرر تعليمي عن بعد في المكتبات لباميلاب بارون»، وتطرقت سناء عبدالمنعم المقدم إلى «العوامل المحلية وأثرها في تنمية المجموعات». وضم العدد مراجعات بعض الكتب والمناقشات والتعقيبات والدوريات التي صدرت حديثاً.



آل حمادة، حسن وبشير البحراني/ أفكار هادفة.ـ القطيف: ح.آل حمادة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ١٦١ص.



إليوت، ت.س/السكرتير الخصوصي (مسرحية)، ترجمة: محمد عبدالوهاب حمدي.ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠م، ١٥٧ص (سلسلة إبداعات عالمية؛ ٣٢٢).

الباجي، سليمان بن خلف (ت ٤٧٤هـ)/ النصيحة الولدية: وصية أبي الوليد الباجي لولديه، تحقيق: إبراهيم باجس عبدالمجيد.ـ الرياض: دار الوطن للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٤٨ص.

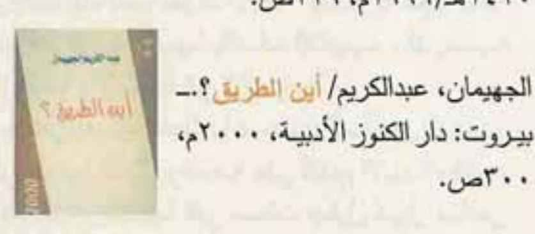


البديع، عبدالرحمن بن محمد بن محمد/ دليل الباحث إلى مصادر الأوقاف في مكتبات المملكة العربية السعودية (جمع وترتيب).ـ الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٥٤ص.



بركات، مصطفى/ الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات) ١٥١٧ـ ١٩٢٤م.ـ القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ٤٦٦ص.

الجماعيلي، عبدالغني بن عبدالواحد/ تحريم القتل وتعظيمه، تحقيق: عمار بن سعيد تمالت.ـ الرياض: دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٢٩ص.



الجهيمان، عبدالكريم/ أين الطريق ؟.ـ بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠م، ٣٠٠ص.



ابن الحسن، بدران بن مسعود/ الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي.ـ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٢٢٧ ص (سلسلة كتاب الأمة؛ ٧٣)



الذييب، سليمان عبدالرحمن/ نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية.ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٤٨ص.



ساجان، كارل/كوكب الأرض: نقطة زرقاء باهتة رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء، ترجمة: شهرت العالم.ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٥٢٧ص (سلسلة عالم المعرفة؛ ٢٥٤).



السايس، محمد علي/ تاريخ الفقه الإسلامي: كلمات في تاريخ التشريع الإسلامي.ـ دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩م، ٢٦٢ص.



الشريف، حمزة أحمد/ عطرٌ تهاميٌ.ـ الباحة: نادي الباحة الأدبي، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ١٤٧ص.



الشيباني، محمد بن إبراهيم/ من تاريخ الكويت: الأسواق القديمة في الكويت.ـ الكويت: مركز المخطوطات والتراث والوثائق، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٣٥ص (منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، ـ الكويت؛ ٦٤)



الصالح، مصلح أحمد/ الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية.ـ الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/٥٩٧ص.



الصقعبي، عبدالعزيز صالح/ أنت النار وأنا الفراشة.ـ بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠م، ١٥٩ص.

الصياصنة، مصطفى عيد/ الشعر في رحاب النبوة: دراسة أصولية تبحث في موقف الإسلام من الشعر وحاله زمن الصدر الأول.ـ الباحة: نادي الباحة الأدبي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ٢٣٢ ص.



الطلاع، رضوان بن ظاهر/ الدين والعلم: حقائق ورأي. ط٢.ـ الرياض: مطابع السفراء، ١٤٢٠هـ، ١٢٨ص (سلسلة الكتب كالرجال فرجل يعدل ألف رجل ورجل لا يعدل شيئاً؛ ٢).



الغامدي، محمد عصبي/ رفعت يدي.ـ الباحة: نادي الباحة الأدبي، ١٤١٩هـ/١٤٤ص.

الفهد، ياسر/ بين الثقافة والصحافة: دراسات في التطوير الثقافي.ـ دمشق: دار البشائر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ١٧٦ص.

قاسم، حشمت/ مدخل لدراسة التكشيف والاستخلاص.ـ القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ٣٠٠ص.

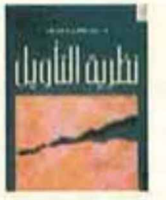


قباوة، فخرالدين/ تطور مشكلة الفصاحة والتحليل البلاغي وموسيقى الشعر.ـ دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ١٠٥ص (سلسلة البحوث والدراسات في علوم اللغة والأدب؛ ٢).

القهيدان، تركي بن إبراهيم/ مرشد معلم الجغرافيا في إنتاج وسائل تعليمية وإنشاء مركز جغرافي.ـ بريدة: مكتبة الرشد، ١٤٢٠هـ، ٩٣ص.



المبارك، مازن/ مقالات في العربية.ـ دمشق: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٢٤ص.



ناصف، مصطفى/ نظرية التأويل.ـ جدة: النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٢٤٣ص.



نجمي، حسن/ شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية.ـ بيروت: المركز الثقافي العربي ١٤٢٠هـ، ٢٣٨ص.

من سيول المسجد الحرام في العصر الحديث

إبراهيم محمد الزيد
جدة - السعودية

تعدّ المملكة العربية السعودية ومنها مكة المكرمة منطقة صحراوية تنعم بالشمس طويلاً، فهي بلاد الشمس؛ ولذا ترتفع فيها الحرارة بشكل واضح في الصيف، ومما ساعد على ذلك عدم وجود غطاء نباتي، وعدم وجود غيوم تغطي السماء؛ ولهذا لا تعرف الأمطار الغزيرة المستمرة التي نراها ونسمع عنها في بعض البلدان المجاورة، مثل البيئات الرطبة حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وإذا شاء الله، ونزلت الأمطار فهي لا تمتد طوال فصل كامل، ولا تحكمها قوانين ثابتة، وإنما تنهمر فجأة ثم تنقطع فجأة. وتتذبذب من عام إلى آخر، فهي قد تكثر في عام، وتقل في عام، وقد لا تهطل في عام أو عامين أو ثلاثة، ولله في ذلك حكمة، وما ينزل في شهر واحد قد ينهمر خلال يوم أو يومين أو خلال بضع ساعات(١).



صورة توضح تراكم السيارات وانجرافها بعد هطول الأمطار وذلك قبل إنشاء الخطوط الحديثة لتصريف المياه

ومكة المكرمة - شرفها الله - تتألف من سفوح جبال ذات صخور «كتيمة» لا ينفذ الماء من خلالها(٢). لذا فإن سقوط الأمطار يتبعه جريان سريع من الأعالي إلى المواقع المنخفضة في المدينة، وهي الشوارع الرئيسة، فتحدث فيضانات تجر معها - في وادي إبراهيم - البضائع والأخشاب والناس والأثاث والأحجار. وفي السنوات الأخيرة تجر معها السيارات، فتندفع هذه السيول بشكل جارف باتجاه الحرم المكي، فتدخله، فتمتلئ ساحات الحرم بالمياه والأتربة والحجارة والحيوانات. وترتفع المياه حول الكعبة المشرفة إلى الحجر الأسود وإلى باب الكعبة؛ وقد ترتفع إلى مترين فوقه. وقد جرف السيل في أعوام سابقة مقام إبراهيم عليه السلام - ولم يوجد إلا خارج مبنى الحرم المكي. وكانت السيول تدخل صحن المسجد وأروقته منذ القدم، ولذلك أمثلة في العصر الجاهلي، وأكتفي بمثال واحد: ففي العصر الجاهلي سال وادي إبراهيم سيلا عظيما، فدخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة، ورمى الوادي بالشجر إلى أسفل مكة، وجاء برجل وامرأة، ولم يعرف الرجل، فسمي «سيل فأرة»(٣).

أما في الإسلام فهناك أمثلة كثيرة منها سيل «أم نهشل» في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه - حيث ذهب بها السيل وهي بنت عبيدة بن سعيد بن العاص. وسيل «الجُحاف» في خلافة عبدالملك بن مروان سنة ثمانين من الهجرة. وفي خلافة المأمون العباسي رفع المقام من مكانه لما خيف عليه، وأحاط السيل بالكعبة. وجاء سيل في عهده يسمى سيل «سدرة» ذهب بناس كثيرين، ورفع المقام، وهي سدرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد على أميال من مكة المكرمة. وكتب مبارك الطبري، وهو على بريد مكة، إلى المأمون. فلما رأى الناس ما في المسجد من الطين والتراب اجتمع خلق كثير فقاموا بنقل التراب من المسجد الحرام، واشترك في ذلك الرجال والنساء(٤).

ولا أريد هنا التحدث عن سيول مكة عبر السنين، وإنما أود أن أشير إلى ما وقع في العصر الحديث - أي منذ القرن الحادي عشر الهجري؛ لأن أخبار تلك السيول أو بعضها مازالت في ذاكرة بعض الأهالي مثل «سيل الربوع». ففي سنة ١٠٣٣هـ وقع بمكة المكرمة سيل عظيم سالت منه أودية مكة، وامتلأ منه المسجد الحرام حتى حاذى الحجر الأسود، فقال الشيخ الحناوي:

قد جاءنا سيل من الله في
جمادى الاخر ياذا النظر
في مسجد الله الحرام الذي
سعت إلى علياه كل البشر
سيل عظيم ما رئي مثله
تاريخه. الماء حاذى الحجْر(٥)

وفي التاسع عشر من رمضان سنة ١٠٣٩هـ غطّت سماء مكة المكرمة سحابة، فأبرقت، وأرعدت، واستمرت تهطل ساعتين ودرجتين، فأقبل السيل من سائر النواحي، وثلم السد الذي يلي جبل حراء «جبل النور» ثلمة كبيرة، وعلا عليه، فدخل المسجد، وساق ما وجده في طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال، وخرّب الدور، واستخرج ما فيها من الأثاث، فامتلأ المسجد الحرام ماء حتى إنه دخل إليه من جهة باب الزيادة، وزاد حتى اعتلى على باب الكعبة ذراعين، وأهلك الرجال والأطفال وكل من وجد في المسجد، وكان أكثر الهالكين الأطفال الذين يقرؤون القرآن مع فقهائهم، فتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم، وأهلك الجميع. وكان من أهلك من بني آدم خمسمئة، ومن الحيوان كثير. وحمل جميع ما في المسجد من خزائن ومصاحف وقناديل وبسط وغير ذلك.ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل، فلما كان آخر ساعة قبيل الغروب من يوم الخميس العشرين من الشهر سقط جانب الحجر من البيت الشريف،

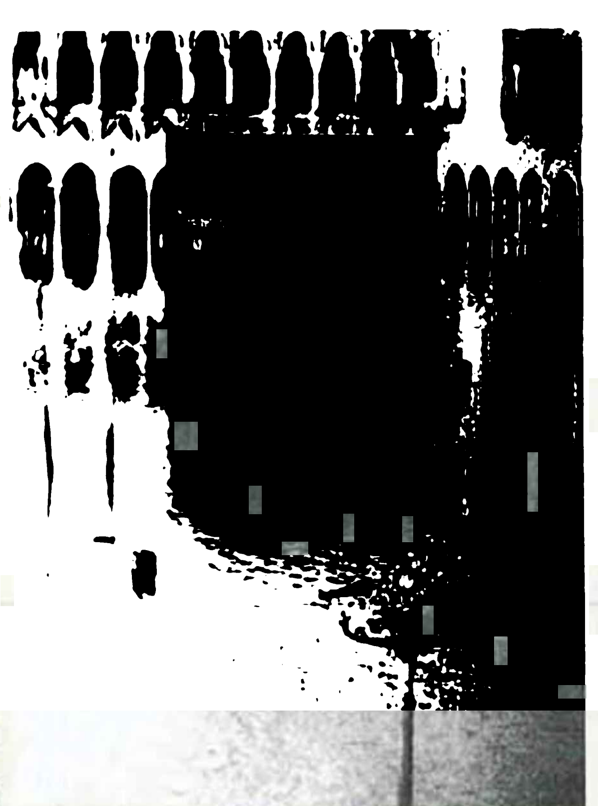
فسقط جميع ما بناه الحجاج، فكان بقاء البيت نحو ألف سنة من الآيات الجلية. فإن البناء المربع الذي تمر به الرياح لا يبقى عادة إلا نحو ثمانين سنة(٦).

وفي هامش تاريخ ابن ضويان قال: ورد في هامش أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار تحقيق رشدي الصالح ملحس: أنه في صباح يوم الأربعاء ١٠٣٩هـ وقع مطر غزير بمكة وضواحيها لم يسبق له مثيل، ونزل معه برد، وتغير ماء زمزم بملوحة شديدة، ثم جرى السيل في وادي إبراهيم فيما بين العصرين، فجرف ما وجده أمامه من بيوت ودكاكين وأخشاب وأتربة، ثم دخل الحرم الشريف، وبقي جريان السيل إلى قرب العشاء، فبلغ الماء إلى طوق القناديل المعلقة حول المطاف، ودخل الكعبة المشرفة، وقد أحصي من مات في السيل المذكور - فبلغ نحو ألف نسمة.

وفي عصر اليوم الثاني سقط من تأثيره الجدار الشامي بوجهيه، وانجذب من الجدار الشرقي إلى الباب الشامي، ولم يبق سواه من الجدار الغربي من الوجهين إلا نحو السدس، وسقطت درجة السطح، وقد بقيت المياه في الحرم ثلاثة أيام، ثم انسابت في السراديب إلى أسفل مكة، وبقيت الأحجار والأتربة مما كان السيل قد جرفها، فتكونت منها كثبان في داخل الحرم وخارجه توازي بارتفاع قامة الإنسان، فشرعوا في إزالة الطين، فشمر الشريف عن أكمامه، وأخذ مكتلاً، وحمل فيه شيئاً من الطين، وفعل الناس كذلك، مما أسرع في تنظيف المطاف وما حوله، فباشر الخطيب الجمعة، وأقام شعائرها. وعلى أثر ذلك الانهدام في الكعبة تم بناؤها للمرة الحادية عشرة. وفي غرة شعبان من سنة ١٠٤٠هـ ارتفعت المنارة التي حول البيت، وتكامل البناء في الجدران كلها، وبعد النصف منه شرعوا بتنظيف الكعبة المشرفة، وفي يوم الخميس ركب الميزاب، وفي يوم الجمعة غرة رمضان ألبست الكعبة المشرفة ثوبها(٧).

قال عثمان بن بشر: وكتب الشريف لوزير مصر بالخبر ليعرضه على سلطان الترك مراد أحمد خان، فأحضر الشريف خشباً من جدة لستر الكعبة، وجعلوا خشباً آخر من مكة، وستروا جميع ما سقط منها، وجعلوا باباً لطيفاً من خشب في الجهة الشرقية(٨).

وذكر العصامي: أن الإصلاح في المسجد الحرام استمر إلى ٢٠ جمادى الأولى من سنة ١٠٤٠هـ(٩). وفي سنة ١٠٧٣هـ في يوم السبت بعد الظهر حصل مطر سال منه سيل كبير ملأ المسجد، وغرق فيه نحو ستة أنفس(١٠). وفي سنة ١٠٨٨هـ حصل مطر عظيم بعد نفرة الحاج من عرفة، واستمر إلى ما بعد نصف الليل(١١)، وفي سنة ١٠٩١هـ سال وادي إبراهيم بمكة بمطر عظيم، واقتحم السيل المسجد الحرام، حتى انتهى إلى ما يوازي نصف الكعبة، وأزاح بعض الأعمدة من مكانها.



صورة توضح ارتفاع منسوب المياه إلى مستوى باب الكعبة

ومن غريب الاتفاق أن السيل حمل جملاً حتى استقر به فوق المنبر، فلما انكشف الماء وجد الجمل في مكانه. ومات في هذا السيل عدد كبير من الحجاج، وخرب بسبب ذلك كثير من البيوت(١٢).

وفي سنة ١١٢٧هـ أصيب المسجد الحرام بأضرار كثيرة عندما اقتحم السيل الذي سمي سيل الخديوي، فقد أخل بنحو ٢٢ أسطوانة عدا وجوه الخراب الأخرى، فأمر السلطان محمد رشاد في سنة ١٣٣٤هـ بعمارة عمومية شملت كثيراً من أجزاء المسجد، وأراد إبدال الإسطوانات بغيرها، ولكن تعذر ذلك عليهم لنشوب الحرب العامة، فلم يغيروا إلا أسطوانة واحدة(١٣).

وفي عهد الدولة السعودية تمت محاولات كثيرة لصرف السيول عن المسجد الحرام، وبذلت الدولة غاية الجهد والطاقة والمال، وقد كللت المساعي - ولله الحمد - بالنجاح، وتم إنقاذ المسجد الحرام من دخول السيول إليه وما تحمله من أقذار؛ وذلك بإنشاء خطوط رئيسة لتصريف مياه الأمطار عبر قنوات أرضية مدفونة مصنوعة من الخرسانة، مع مناهل وفتحات ملائمة لتصريف المياه من الشوارع، وتفرغ هذه الخطوط مياه الأمطار في الأودية بعيداً عن المناطق السكنية(١٤).

المراجع

١. مكة المكرمة العاصمة المقدسة ٤١.
٢. المصدر نفسه ١٢٦.
٣. أخبار مكة ٣، ١٠٣.
٤. المصدر نفسه ٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٠، ١١١.
٥. سمط النجوم العوالي ٤، ٤٠٤.
٦. سمط النجوم العوالي ٤، ٤٢٦؛ تاريخ مكة للسباعي ٣٦٢.
٧. تاريخ ابن ضويان هامش ٣٦ - ٣٧؛ وانظر تاريخ مكة للسباعي ٣٦٢.
٨. عنوان المجد في تاريخ نجد ١٩٩.
٩. سمط النجوم العوالي
١٠. المصدر نفسه ٤، ٤٧٠.
١١. المصدر نفسه ٤، ٥٢٩.
١٢. تاريخ مكة للسباعي ٣٨٤.
١٣. تاريخ مكة للسباعي ٥٩٣، ٥٩٤.
١٤. مكة المكرمة العاصمة المقدسة ١٣٦.

- ابن بشر، عثمان بن عبدالله، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، وزارة المعارف ١٣٩٤هـ.
- السباعي، أحمد، تاريخ مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مطابع الصفا، مكة.
- ابن صقر، عبدالعزيز ورفاقه، مكة المكرمة العاصمة المقدسة، مطابع الصفا ١٤٠٥هـ.
- ابن ضويان، إبراهيم بن محمد، تاريخ ابن ضويان، مكتبة الرشد، الرياض ١٤١٦هـ.
- العصامي، عبدالملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة.
- الفاكهي، محمد بن إسحق، أخبار مكة في قديم الزمان وحديثه، تحقيق د. عبدالملك ابن دهيش، مطبعة النهضة الحديثة، مكة ١٤٠٧هـ.

